الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من

حضارة الإسلام

تأليف

الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

الجزء الأول

لجنة

التعريف بالإسلام

لجنة التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

من
حضارة الإسلام

تأليف
الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل
الجزء الأول

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب السادس والعشرون
١٣٨٦ - ١٩٦٦

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

بسم الله أبدأ وأهتدى وبرسوله نور الهدى أستضىء وأقتدى ، ثم أستمد من الهداية والاقتداء ما يستطيع به قلبى وقلمى أن يقدما اقدامهما ويبثا الهامهما ، راجيا من الله سبحانه أن يكتب التوفيق لكل خطوة والسداد لكل كلمة فى الموضوع الذى تفضل المجلس الأعلى للشئون الاسلامية فدعانى اليه دعوته الكريمة ، وربما كان غيرى أولى ، الا أنها يد الله كانت منه لى ، وكل فضل ونعمة انما هى منه وهى اليه .

وبعد ، فما المراد بالحضارة ؟

ومن غير أن نشق على النفوس حتى نصل الى المراد منها نقول : ان المعنى القريب الذى ترمى اليه كلمة الحضارة هو غاية النفع والسعادة الناتجين سريعا من اتباع قوم من الأقوام أدق نظام وأرقاه من نظم الحياة .

هذا هو المعنى الذى يسرع الى ذهن كل من يسمع كلمة الحضارة من غير رجوع الى بحث لغوى يصل هذا المفهوم باشتقاقات اللفظ وكناياته .

وكما يتخطى الذهن ذلك البحث اللغوى يتخطى أيضا كل العصور القديمة وكل عصور التطور التاريخى ، ثم يقف عند صورة تمدن لعصر من العصور لا يتصور أن يكون هناك ما هو أبهج منه وأسعد ، أو يتصور — على أقل تقدير — أنه بهيج سعيد ، وسواء أكانت هذه الصورة قد حدثت وتكاملت أم لا تزال أملا مرجو الحدوث والاكتمال .

وهذا هو نفسه ما أردته من كتابى هذا عن الاسلام ، اذ تصورته — بعد دراسته — أتم غاية لتطور تاريخى عرضت عصوره صورا مختلفة لألوان الأديان : وثنية واشراكا وتوحيدا ، ثم تمت الصورة عنده بما لا يمكن أن يكون ما هو أتم منها ولا أكمل .

وهـذه العصور نفسها ما زالت — وهى تتطـور — تعرض صورا وأشكالا — على محك التجارب — حتى بلغت فى الاسـلام أدق الصور وأرقاها بما لا وفاء بعده ، ثم اتخذت من عصور اتباعها والعمل بها وعصور هجرانها والابتعاد عنها حجة لها على السواء .

وانه لأمر حق لا مراء فيه ، فان العصور التى اتبعت الاسلام سعدت به ، والعصور التى لم تتبعه شقيت بالابتعاد عنه ، وهى شـهادة التاريخ الذى لا يقاوم ، ومن هذه الشهادة كانت الحجة لهذا الدين .

واذن ، فما مصـدر القوة التى كانت له حتى أصبح هو سر سـعادة متبعيه ، وسر شقاء تاركيه ؟

ان قوة مذهب أو دين لا تكون من أنه يكتسب قوة من طواعيته لأفكار من أديان أو مذاهب أخرى وقبوله لها . نعم ، قد تكون قوته من ذلك أحيانا ، ولكنها غالبا ما تكون أيضا من أنه يرفضها ولا يقبلها فى شجاعة وتصميم .

والمذهب أو الدين الذى يفقد شـجاعته فى مجابهة الأمور من حيث يصاحب أفكارا ويعادى أفكارا لا يكون خليقا بأن يؤبه له أو يكون قادرا على أن يثبت قدمه فى طريق البقاء .

والاسلام جاء شجاعا ، مصاحبا بعض الأفكار ومعاديا بعضها ، ولكنه ألف من كل ما صاحبه وما ابتدعه كلا متكاملا ، سلكه فى نظام متسق غير مهلهل ، فكأنه أتى به كله مبتديا شاديا .

والمحتال الذى يقف أمام المتشـابهات فيقول ان الاسـلام خليط من مذاهب وأديان فانسـا هو يقصر عن ادراكه أو يهلهل نسيج معـارفه ، لأنه لا يمكن أن يجىء دستور كامل كل حرف منه مبتدع . ومثل هذا يجب أن يكون لكون غير هذا الكون ولناس غير الناس الذين يسكنون فيه .

ومن حيث صار الاسـلام كلا كاملا وجب ألا يوزن بما هو أقل منه وأدنى ثم يجعل منها بهذا القياس امتحان له . بل يجب أن تقـاس هى به وتقدر ، ولا سيما اذا كانت مأخوذة منه أو مسبوقة به ، لأنه أكمل وهى أقل وهو أعلى وهى أدنى وهو كل وانما هى أجزاء .

وان أمره هذا شبيه بقصة الالياذة ، أخذت منها الأقاصيص والأناشيد ثم ظهرت فى أثواب مبتكرة وكأنها لم تقد من الالياذة حين صار لها استقلال وشيوع ، ولكن الأم ما زالت تحوى مواليد أكثر من كل ما شاع واستطار .

والاسلام — لأنه حق كله — كان حجة نفسه على العصور والناس . وكلمة التقدم تبرز وتظهر حين يلتقى الناس وعصورهم عنده . وكلمة التأخر تبرز وتظهر كذلك حين لا يجاوز الاسلام نطاق نظريات مكتوبة أو مواعظ مقولة فيكون فى حكم غير الموجود .

وأعظم تقدم لأتباعه لم يجىء الا فى عصور تطبيقه تطبيقا جامعا : وذلك فى أواخر عصر صاحب الدعوة — أى حين قارب الاسلام أن يكون كلا ثم صار — وفى عهد صاحبيه أبى بكر وعمر بن الخطـاب ثم فى مدة عمر بن عبد العزيز . ولسنا نغض من عصرى الراشدين : الثالث والرابع ، الا أنهما استنفدا فى فتن وحروب .

فمن العصور الثلاثة الأولى نشهد أعظم تقـدم لأمتنا . وهـذا حكم صحيح لا خرق فيه . أما فى غيرها من العصور فقـد طبق بعضـه وأهمل بعضه ، فلا يمكن أن يحكم على هذه العصور بأنها شهدت تقدما يقاس بما حدث فى العصور الثلاثة الأولى .

وليس من شاهد بذلك الا العلم بالتاريخ ، والعلم بتلك الأصول التى وضعها الاسلام وجاءت فى كتابه وسنته وأصول فقهه ، وما لم يكن الحكم صادرا عن القراءة المضنية والمعرفة التامة بالاسلام وتاريخه وجب أن لايقبل ، لأنه حينئذ يكون نقصا أو يكون رجما . ومثل القارىء الذى لم تتم معرفته بالاسلام وتاريخه ثم يحكم له أو عليه فمثله كمثل من يعاديه . وقديما دخل الأوزاعى الامام الى بيت المقدس وأتى جبا من جبـانه فاستقى دلوا من ماء فوضعه وجلس يتوضأ منه ، فقال له بعض المـارة : يا شيخ أما تستحى من الله ؟ تتوضأ فى المسجد ؟ فقال له الأوزاعى : تفقه فى الدين ثم أفت .

واذا احتججنا للاسلام بمفاهيم أهله فى عصور التطبيق ومفاهيم الفقه الصحيح وأقوال الخلص من الفقهاء فانا لا نحتج له بغيرها ، نعم ، لا نحتج

له ولا عليه بغيرها ، ولا سيما حين صار أهم شيء في القرآن تلاوته والتغني به وحين صار كثير من أعمال الدين يؤدى بأجر ثم غاب المعنى الرائع المستكن في اسم « بلال » مؤذن الرسول ، وحين أصبح حديث الرسول دروس اعراب وغرابة وفنا لغويا رائعا لاغير ، وحين أصبحت كتب الفقه كدوامات التيار لا يفيق منها دماغ سابح . فاذا احتججنا من هذه الأمور والقائمين بها له أو عليه كنا كمن ترك الجوهر الى المظاهر ، وحاولنا أن نصف الشمس ونحن في ليل دامس أو ننظر اليها وعلى عيوننا أكثف الغشاوات .

على أن روعة في الاسلام لا تدانيها روعة أنه كان تطبيقا عمليا منذ جاء صاحبه به جزئيات متفرقة تطبق في تجاريب من واقع الناس ، ثم جمعت نتائجها ولمت أجزاؤها كأنها علم النفس والاجتماع ، جاءت روعته من أجزائه ثم جاءت مرة أخرى حين اجتمع وصار علما جامعا .

وحين عرف الاسلام الواقع وواجهه مجزءا حل عن جدارة وقوة مسائل المجتمع وحقق المنفعة من الأجزاء . وحين حلها حلا عمليا كان عمله أعظم قيمة من علم النفس والاجتماع اذ لم يدونه في نظريات وآراء ، بل كان عمله أعظم قيمة من تدوين نظرية وأرفع قدرا من ابداء رأى أو اعداد لفتوى .

ولم يبتدىء به المبعوث العظيم نظريات يكملها غيره ثم يعرضها على التطبيق حتى تكشف صحتها أو يدرك فسادها ، بل طبق ما جاء به على نفسه وطبقه على مجتمعه من أول ساعة شرعه وأمر به وطبقه أجزاء ثم صارت الأجزاء مجاميع ثم صارت كلا .

وبدت النتائج ليست باهرة وحسب ، وانما بدت أمورا وقوانين وأنظمة لا محيص عنها لمجتمع : ومجتمع راق يسكن القمة من حياته . وبدت أكثر لزوما في أن منها شئونا وقوانين يعيش فيها الناس اضطرارا ، حتى ولو لم يعرفوا أنها الاسلام ، أو يكونوا من الداخلين فيه .

وبدت الأحكام الكلية الاسلامية أحكاما نهائية مصوغة في قوالب من الأعمال والتعبيرات المحدودة ، بحيث لا يصح الخروج منها ولا الرجوع عنها . ومن هذه ما أصابته تجارب النبي نفسه فتم تعديله أو ما يقال من نسخ ألفاظه أو نسخ أحكامه .

وظهر الاسلام قويا شجاعا فى مكة ، وكانت حينذاك من أتم الأوساط المعقدة فى الأرض . كانت كثيرة المشكلات متشابكة العقد ، فدهم الاسلام كل مشاكلها بآراء واضحة وحلول عادلة لا مفر من الشهادة بصدقها والنزول على أحكامها حتى يبرأ المجتمع المعقد من بلاياه .

ولم يدع الاسلام وسيلة شريفة من وسائل الدعوة الا طرق الأبواب لها ، غير مؤتمر على أحد ، حتى على الأصنام ، فانه لم يهدمهـا الا بيد من دعاهم الى هدمها من أتباعها وعبادها ، فلما وقف المعاندون ضد صالح أنفسهم فى دنياهم وأخراهم تقدم هو فهدمها ودمرها تدميرا .

وأول ما اهتم الاسلام بشيء اهتم بالجوهر فكانت دعوته اليه أولا ، ثم بالمظاهر والتقلبات التى يعيش الناس فيها ، فانها تفنى فتفنى بهـا السعادة الموهومة . أما الجوهر فباق لا يزول ، ولا تزول السعادة المتصلة به أبدا . ولذلك بدأ به .

وترك الاسلام آثارا رائعة فى محو عار الفقر والجوع ، وجهد جهده لسد حاجات الأكباد ، ورأى الرفاهية أكثر بطلانا اذا كانت جالبة لعار الفقر والجوع وخلق الطبقات . وعمر بن عبد العزيز كان فى مقدمة من تركوا تلك الآثار ، ففى عصره التطبيقى الثالث باع سلاسل الذهب من المسجد الجامع بدمشق وحرم الـكعبة من كسوة جديدة وأطفأ مصـابيح الليل فى طريق المصلين بالمدينة حتى تسد حاجة الفقراء ثم ينظر فى مطالب الكمال .

وقد أطلق الاسلام أهله الى فراديس من الأرض تمور بالخير والجمال ، ثم وعدهم بها مرتين : مرة فى هذه الحياة القريبة التى يحيونها ، ومرة فى الحياة الآتية التى سيحيونها . وحيث حقق أتباعه البلوغ الى الحياة الأولى بما اتبعوه ، فهم لا بد بالغون ما وعدوا به فى الحيـاة الأخرى ، لأنه الحق والصدق . والحق لا يتجزأ والصدق لا يتلون .

ونظر الاسلام الى الفرد والمجتمع نظرته الى البناء الراسخ الشامخ ، فعنى بالوحدة التى تكون العدد والشكل ، والنظام الذى يقوى الشـكل ويحسنه ، ولم يدع البيت بلا طعام فأشعل فيه أضواء العلم والموعظة ، وملأه

بحركة العمل ومنافعه ، ونظمه فى سلك من الأخلاق والقوى . وحتى لا يفر أحد بعلة فرار أقام موازين الثواب والعقــاب ، لتتم صورة العــالم السعيد البهيج ، من غير أن تكون أعضاء صورته من نسيج خيال أو خداع .

تلك هى الحضارة المنسوبة الى الاسلام فى عنوان هــذا الكتاب ، والمفصلة فى أجزائه وأبوابه ، وليس كل ما جاء فيها الا بعضا من حضارته التى عرفناها فى بداية تمهيدنا هذا فقلنا « انها غاية النفع والسعادة الناتجين سريعا من اتباع قوم من الأقوام أدق نظام وأرقاه من نظم الحياة » وحينئذ لا يقاس بنفعها نفع الا صغر ، ولا بسعادتها سعادة الا قلت ، لأنها ناشئة من الذى هو أدق والذى هو أرقى .

والله يهدى الى القول الصائب والعمل السديد وهو ولى التوفيق .

القاهرة فى المحرم سنة ١٣٨٥ هـ

مــايو سنة ١٩٦٥ م

عبد العزيز سيد الأهل
عضو المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

دعوة الخير

مواطن الدعوة — وضوح الأفكار — سمو اللغة — استعانة الأخلاق — وسائل الدعاية — شمول الدعوة — أهدافها .

مواطن الدعوة :

من بادى الرأى أن يقال أن الاسلام كان دينا بدائيا واجه مجتمعا بدائيا وليس ذلك مرادفا — بحال — للقول بأن الاســلام دين الفطرة .. ويبلغ أقصى درجات النقص ذهن يفكر كذلك ، فان التعقيــد من الفطرة كما أن السهولة منها ، وليس يطعن فى ذلك ما قيل فى قصة اللبن الذى اختــاره النبى دون الخمر فى طريق الاسراء لأن النبى لم يختر اللبن بلا تفكير ولكن كان بلوغا للغاية وتقديرا للأنفع . أما البدائية فتهمة يراد منها تمثيل أفكار الاسلام بأفكار أوائل التاريخ .

ولو قد أتى الاسلام ليصرع الوثنية وحدها لــكان هناك عذر لسوق التهمة ، ولكنه لم ينفرد بها وحدها ليصرعها فقد بان أن الوثنية كانت أهون عليه من الهوان : لقد كانت كالعصفور الكسيح بين مخالب الرخ ، ولكنه جاء يجادل — فى حكمة وانصاف — أرقى ديانات البشر وأنظمة الناس ويستعلى عليها .

وجاء الاسلام فى مجتمع منطلق لا تشنــله قوى استعمار فكرى أو مجسد غريب ، وأهم ما كان فى ذلك المجتمع من مظاهر الانطلاق أنه كان مجتمعا تجاريا حرا ، أعنى أنه مع انطلاقه وراء المكاسب والمتــارف وحرية الرأى التى يمتاز بها الوسط التجارى دائمــا كان يعرف حصــاد الزراعة والصناعة ويتلقف الانتاج القريب والبعيد والبطىء والسريع ويبنى كيانه كله على المال .

وحركة المال كانت حينئذ فى أتم عقد كوارثها ، ففى سوق مكة مال داخلى ومال خارجى ومواعيد ومماطلات وغش ومخادعة وتأدية وتوفية ، فى مجتمع تتفاوت طبقاته وتختلف حقوق أجناسه وأنواعه : من السادة والعبيد والذكر والأنثى والقريب والدخيل ، فهو مجتمع معقد أتم التعقيد فى مذاهبه وآرائه وحياته ومسالكه وأهدافه وآماله وتماسكه وانفكاكه .

فحين جاء الاسلام فى مكة واجه العالم المعقد كله ، ضرورة بلا اختيار ، فأخذ يحل مشكلاته ويفتى فى قضاياه ، فى كل ساعة وعند كل حادثة ، لأنه

عالم لا يستقر ولا يهدأ ولا ينام ، ومن ثم طلع الاسلام من القمة ولم يجيء صاعدا من السفح ، وجاء فى عالم معقد متطور حى متحرك ، وجاء وسط العقدة المشتبكة ، ولم يجيء من البداءة ولا من البداوة ، فحق له أن يكون دين حضارة جاء فيها وجاء بها وجاء من أجلها .

واجه الكبراء أقسى مواجهة لينزلهم من طبقتهم ويحطم من جبروتهم ، وساوى بين الأجناس وبين الأنواع فقد كانت مكة بل كان الحجاز كله مهبط من يفر من الروم أو الفرس أو الحبشة ليجد فى الحجاز حريته ، ووضع الأحكام والآداب لاحياء الموءودة واطلاق العبيد وحدد الأوقات والمواسم لأداء الفروض .

واجه السمسرة والمزايدة والوساطة والاحتكار وبيع الغائب والتطفيف وكل صور المعاملات الممكنة ، الطبيعية والمصطنعة ، وأعد لكل منها نظاما وحلولا ، وميز بين حلالها وحرامها وصالحها وباطلها . وقد اندفع الرسول نفسه الى أبى جهل — وهو خصمه — يطلب اليه الوفاء بدين اعرابى كان أبو جهل يماطله فيه . ونادى فى أسواق مكة بتوضيح عيوب السلع ووفاء الأثمان والميزان ، وحتى لا يحدث زيغ أو نكران فقد فرض الاسلام أن يكون كل دين مكتوبا وعليه شهود ، مهما كان صغيرا أو كبيرا ، ولا يأب كاتب أن يكتب ، كما علمه الله فليكتب .

ومكث صاحب الدعوة ثلاثة وعشرين عاما يواجه —فى المدينة ومكة— هذا المجتمع المعقد ويحل مشاكله ساعة فساعة وحادثة حادثة ، بحيث لا يكرر العودة الى مسألة مرت الا اذا بدا فيها تعقد أكثر أو كان حلها ناقصا غير حاسم ، فنما نموا طبيعيا لمقتضى الأحوال المحيطة به . وبعد ثلاثة وعشرين عاما تم التشريع الأساسى الذى جاء به ، وقيل للرسول الكريم حين ذاك : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .

وكان من حقه أن يتم ، لأن دقائق أمور الحياة الفردية والجماعية —لمدة ربع قرن — وفى جيل ناهض ثائر دائم التحول والتقدم فى حياة متشابكة معقدة متحاربة — كافية لأن تكون مثلا يمر فى الأجيال الأخرى من فرديات وجماعيات ، ولأى مجتمع حى متحرك دائم التحول والتقدم .

وهكذا بنيت الديانة الاسلامية على الحوادث اليومية ونشأت قوانينها عنها ، ولم تجيء تعاليم منقطعة عن هذه الحوادث ، فصحت دعواها — من بين الديانات كلها — بأنها كانت حلا لحوادث الأزمنة — التى لابد أن تكون متشابهة مهما تكررت — وليست غريبة عن أى زمن منها اذ هى الأصل فى تلك الحلول .

فقوانين الاسلام التى حكمت ذلك كله جاءت مجموعة عالمية فذة لامثيل لها ، فكان من حقها أن تفرض صلاحيتها لكل العصور غير متجاوزة عن أى شيء ، حتى عمليات الحروب وحيل الأقوياء وأحداث القسر والارغام .

واسلام سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي كان كل ذلك رمزا صارخا على اقبال مختلف الأفكار فى الأمم الى الدين الجديد وتقبلها له ، ثم اتسع الرمز فأقبل على الاسلام أبيضها وأسودها وأصفرها . وارتفع صوت الحبشي بالأذان والدعوة للصلاة فى الدين الجديد قبل أى عربى قريب .

وضوح الأفكار :

وسلك الاسلام فى دعوته طريقا واضحة مفهومة ، وقد اشترط صاحب الدعوة على الدعاة والمعلمين أن يخاطبوا الناس على قدر عقولهم ، وكان هو ذاته يتحول عن ألفاظ لغته القرشية الى ألفاظ القبائل ولغاتها ليتضح لديها المفهوم ، اذ مخاطبة الناس على قدر عقولهم تحتاج معرفة ألفاظهم ، وهو ما جرى عليه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى مخاطبة القبائل ، وذلك أمثل مما يقوله أهل البلاغة من الايجاز أو الاطناب ، اذ الألفاظ هى الأساس ، ولا فائدة فى أطناب أو ايجاز ما لم يكن الكلام بألفاظ المخاطبين .

فقول الرسول « خاطبوا الناس على قدر عقولهم » معناه مخاطبة كل فريق من الناس بما يفهمونه وذلك يتجاوز الايجاز والأطناب الى كل صنوف الكلام لأن الافهام يشتمل على أنواع الكلام جميعها ، ومتى لم يكن الكلام مفهوما واضح المعانى لم يكن محسوبا فى جملة البيان .

فالأصل اذن فى الافهام انما هو كشف المعانى للمخاطب وايضاحها له ، وسواء أخوطبت به الخاصة أم خوطبت به العامة . فأمر النبى — صلى الله عليه وسلم — يتعلق بما يعرفونه من الألفاظ ويعتادونه بينهم من الكلام .

والكتاب الذى كتبه لكسرى يدعوه فيه الى الاسلام وكذلك كل الكتب المشابهة كانت سهلة موجزة اختيرت لها الألفاظ العامة السائرة التى يسهل ترجمتها وفهمها ، أما الكتاب الذى أرسله النبى — صلى الله عليه وسلم — الى وائل بن حجر — مثلا — فقد امتلأ بألفاظ عربية غريبة ، ولكنها مفهومة قريبة واضحة لتلك القبيلة ، وغيرها — مهما كان سهلا فى نظرها — كان يكون غريبا عليه .

ثم ما كان من كلام النبى أو اشاراته فى حاجة الى ايضاح وتفسير — من غير تعنت من سائل — أوضحه وفسره للسائلين ، لأنه يريد أن يبلغ ، ولابلاغ لمن لم يفهم التكليف .

ومن حيث كانت الدعوة الاسلامية كلها واضحة بينة الوضوح — لم تشترط المبادىء والفلسفات على نفسها الوضوح ولم تسع اليه فبات من غير الممكن الادعاء بأن كل ما فيها سليم يطمئن النفوس ، وقد جاء منها ماهو غير واضح ولا مفهوم ، ومن ذا الذى يحجر عليه اذا ادعى أنها لم تكن مفهومة أيضا ولا واضحة فى نفوس أصحابها ؟

وهذا كلام نحس أنه لا يوافق بعض من يظن كل الخير فى عقول الممتازين ، ولكنه لا يستطيع أن يلومنا انسان يرى معنا أن آراء الأديان والمبادىء انما هى موضوعة للناس ، فوجب أن تكون واضحة مفهومة لديهم مهما كان الادعاء بأنها آراء معمقة ومبنية على العلم ، اذ حين تخرج هذه الأفكار الى الناس يجب أن تسلك سبيل الوضوح ، كما يجب أن يكون العلم الذى خلقها قادرا على أن يبرزها واضحة ظاهرة كشمس النهار لتضىء للأبصار بأيسر ما تستطيع أن تحتمله الأبصار .

ولهذا الطبع الصافى الذى يؤثر الوضوح ويفضله عادى المسلمون الأولون التفلسف ، بمعنى الجرى وراء النظريات ، لأن الجرى وراءها يبتعد

بالانسان عن نفسه وذاته ، بينما عنى الاسلام دائما بألا يخرج الانسان عن جوهره ولا يبتعد به عن الانتفاع بتجاربه وآرائه .

وقد عادى الاسلام الجدل العنيف ، ودار وراءه يمنعه فى المجتمعات الصغرى حتى بين اثنين ، ويحرمه فى المجتمعات الكبرى كموسم الحج مخافة عواقب الخلاف . وليس معنى ذلك أنه أخمد حركة العلم والمناظرة ، بل أشعلها من حيث أبطل الجدل العنيف لأنه يحبطها ويخرج بها الى الحيرة والخصومة والى اللبس والابهام .

وما صلة وضوح الأفكار ومخاطبة الناس على قدر عقولهم بالحضارة ؟

ان وضوح الفكرة دليل على أنها قد استوت ونضجت فى الفكر ، كالطعام والثمرة اذا نضجا وهى آخر مراحل التطور ولا مرحلة بعدها الا الانتفاع . فوضوح الفكرة اذن قمة فى تطورها أو حضارتها ، وليس يواجه المعقد حتى ينحل ويتضح بغير الفكرة الواضحة ، وابلاغها للناس على قدر عقولهم دليل مقدرة الفكرة على أن تأخذ أشكالا متعددة تناسب عقول المخاطبين ، والمقدرة حضارة . كما أن العناية بصنوف المخاطبين فيها دليل حضارى أيضا : وذلك يتمثل فى جمع الناس على فكرة واحدة مع اختلاف عقولهم ليكونوا سواسية فيه ، والتسوية بين الناس فى الفهم مرحلة عليا من مطالب الحضارة ، بل من آمالها .

ولم تزل الأفكار الاسلامية واضحة الى اليوم والى الأبد ، بل هى وحدها من بين الأديان جميعا لم تزل واضحة قوية الاسناد ثابتة خطى التاريخ ، وأدوار سيرها ما زال ماثلا أمام العيون ، وتاريخ رسول المسلمين مقيد مدون حرفا حرفا ليس فيه غائب ولا غامض ، فى سيرة طيبة طاهرة تهز كل من يقرؤها ويطلع عليها ، وهى كفيلة متى وجدت القادة المقتحمين أن تقرع الآذان وتخضع النفوس .

والدعوة الى عقيدة التوحيد فى الاسلام موجبة أن يترك الناس آلهتهم المتفرقة الى اله واحد ، اذ كل عابد يتصور الهه عظيما وأعظم الآلهة ، فكل من لا يقبل على عقيدة التوحيد مصغر لالهه مدن له من الأرض . والعقل

المسيطر الجبار لا يقبل أن يخضع لاله صغير محدود ، بل هو فى الملحدين يحاول أن يحطم فكرة غير المحدود ، فالدعوة الى التوحيد فى الاله الأعظم ذى الأسماء والصفات مكمل لعظمة الفكرة مقبول من كل عقل سديد .

سمو اللغة :

ونزول القرآن ونسج الحديث باللغة القوية البليغة كان مظهرا من مظاهر الحضارة ورقى العرب . ومعنى هذا الرقى أنهـا كانت فى مستوى الأفكار العـالية والعقول المستنيرة ومن مظاهر هـذه القدرة والرقى وفرة الألفاظ والاشـتقاقات وكنـايات التعبير التى تدل على الذكاء وقوة اللمح ، ومن مظاهرها أيضا احتمال تعبيراتها معانى كثيرة تشتد وراءها العقول للحصول عليها ، وتجد فيها مشقة ولذة ، وهو أمر لا ينافى الوضوح والظهور .

وليس معنى رقى اللغة — على الاطلاق — وجود مصطلحات العلوم والفنون ومسمياتها لأن هذه المصطلحات لا تتحدث بها الا طوائف خاصة فى مهن تخصها ، فكأنها الرموز بين المترامزين كما أن تعذر الاحاطة بلغة أمة وألفاظهـا دليل قائم على ازدياد معارفها وكفايتهـا بحاجات العقل وسـعة الأفكار .

وقد بلغت اللغة العربية غاية رقيهـا فى الوسط التجارى المعقد بمكة ، وأصبحت لغة قريش سيدة لغات القبائل وسيدة لهجاتها ، لنقاوتها ولحاجة الجزيرة كلها الى هذا الوسط الرئيسى الذى يتصرف بمنتجات الجزيرة وما يجلب اليها من خارجها .

وعملت اللغة من جانبها على ازالة اللبس والتغلب على التعقيد — كما تفعل اللغة التى تحدد القوانين عند كل قوم — حتى أصبحت أصلح لحل كل لبس — وليس ذلك مضادا لكثرة المفاهيم — وعملت فيهـا قوى كامنـة لتسيطر ، وكانت قوالب التركيب وعمليات الصرف والاعراب من تلك القوى الكامنة التى عملت بجرأة على رقى اللغـة واستقبالها كتابا سـماويا طريف التعاليم دقيق التراكيب دقة معجزة باهرة ، بحيث لايساويه فى صفاته واتساعه كتاب سماوى آخر .

ومن حيث استقبلت اللغة العربية هذا الكتاب واتسعت له وتلقاه المكيون والعرب بالتفهم والاعجاب لأنهم كانوا فى القمة وعند الغاية — تلقته الجماعات الأخرى وهى على المنحدرات ، فكان صعبا عليها عصى الترجمة الى لغاتها ، فاحتاجت حتى تفهمه الى دراسة العربية أو اضطرت الى الاستعراب ، وحتى فى العصور التى وقف فيها الاسلام عن التقدم للفتوح كان لا بد له من مستعربين أو مستشرقين .

وليس يلام الاسلام حين حط من شأن الشعر فى اللغة كأداة للنفع ، لأن الشعر تعلق بالخيال ، والخيال جموح بالانسان عن ذاته وواقعه فهو رجوع بحضارته وتخلف بها .

والهاب المشاعر لواقع الانسان وذاته خير من الهابها وراء سراب لا ماء فيه ، ولهذا استثنى القرآن من المذمة الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، والتعبير بالعمل الصالح دخول بالانسان فى جوهره وذاته ووعى منه لصالحه وصالح مجموعه ، وفيه تفضيل أيضا للايمان والعمل الصالح عن كل ما سواهما .

وطبقات الأقيال والأسخياء والمتخاصمين التى أشعلت مقالة الشعر العربى كانت خطرا داهما على مستقبل القوم ، اذ سخرته فى عبادتها والتطاول لمدح فضائلها ، حتى صار الشعر العربى فى أزمنة كثيرة لغة عبادة الأشخاص ، كما هو لغة النيل من المروءات ومسخ الحقائق واشاعة السوءات ، فظهرت حينئذ — بحط الاسلام من قدره — معجزةُ فكرته وسر مذمته ، لأنها كانت كالانذار والانباء بالغيب للشر المختبىء فى أثوابه .

استعانة الأخلاق :

وليس فى مقدور الأزمنة والطباع أن تلد صفتين أسمى من الشجاعة والجود . نعم ، ليس فى مقدورهما ، وانهما قد أعقما بعد ولادتهما هذين التوأمين .

والشجاعة والجود خلقان متناصران ، كلاهما ينصر صاحبه ويشد من أزره ، فالشجاعة تحث على الجود بالمال وتهون من شأنه على النفس لأنها هى

جود بالنفس ، والجود يحث على الشجاعة لأنه بذل ولأنه لا قيمة للبقاء اذا نفد المال : انهما كليهما غاية ما خلق الله من حسن فى صفات الانسان .

والاسلام نزل بين العرب وقد بلغت الصفتان فى جيلهم مبلغ ما يوجد الانسان اذا اتصف بهما ، ومبلغ ما يهدمه ويمحوه اذا برىء منهما ، والصفات الأخرى كانت توابع وذيولا ، أما هما فكل الأصل وكل الكيان .

على متن هذين — وهما متنان قويان — عبر الاسلام ، فاستطاع أن يجرد من الشجعان الأجواد جيشا جرارا يدق به أبواب البلدان ليبلغ الرسالة الجديدة فى نطاق الدستور الذى جاء به ، من حيث لا يتردد ولا يجور : فاما الاسلام واما الجزية واما الحرب .

وكما تحارب الأمم الضعيفة المأسورة ضد الاستعمار اليوم لتتخلص من اسارها ، فيشهد لها بالبطولة ، وكما تعاونها دول حرة أخرى على الخلاص فيشهد لها بأكثر من البطولة فعل الاسلام ، فانه راح بجيوشه يخلص الأمم والشعوب من الاستعمار الأجنبى والاستعمار الطبقى ، الفكرى منه والمجسد ، وكان حسبه ممن يحاربه أن يرضى لنفسه العزة ويستعلى فيدخل فى الاسلام ، فان أبى وبقى فى أهل الذمة صينت له كل الحقوق من غير أن يستعلى لأنه لا استعلاء الا بالوحدانيـــة الدينيـــة الجديدة ، وهى لا تكلف غير النطق بالشهادتين ، أما مذلة الناس وفتح بلادهم للنهب والاستغلال فلم تدر فى خلد الاسلام .

وكانت الفتوح الاسلامية الضخمة أثرا للمبادىء العالية التى جاء بهـــا الاسلام ، ولو تمت هذه الفتوح فى عهد النبى لنسبت الى شخصه ، ولـــكن تمامها بعده كان دليلا على أنها نصر للمبادىء ، والاسلام كله أخلاق ومبادىء ، ولكن المبادىء مهما كانت عالية فانها لا تنتصر وحدها وانما تحتاج الى من يعتنقها ويعمل بها ، فدل ذلك أيضا على أن أصـــحاب النبى الذين فتحوا الأرض كانوا مخلصين لمبادئهم فلم يفتر لهم عزم بعد موت النبى فاستحقوا النصر الذى نالوه .

وهى كذلك دعوة الى كل جيل يتبع الاسلام ويستمسك بمبادئه ، ولا محيص من الانتصار لجيل يجىء كالأجيال الأولى ، أما ان حلت الأشخاص

مكان المبادىء وزاغ الناس عن الحق فلا محيص أيضا من أن ينهزموا ويذلوا ، وهو ما صارت اليه كل الأجيال التى خالفت مبادىء الأجيال الأولى .

وسائل الدعاية :

وكل دعوة لا تكفى وحدها لكى تشيع ، حتى لو كانت على أتم وضوح وأرقى فكرة ، وانما تحتاج الى عصبية من تضافر ذوى أفكار وعزم متفقين ، يتعاونون على الدعوة بالهمس والقول والاجتماع والتراسل والجدل ووضع القواعد والبحث عن الزعماء وتجنيد الرؤساء والعيون والأرصاد ، ثم هم يتحامون فيما بينهم ويدفعون عنهم الأعداء .

ومن وراء ذلك كله التأنى فى البناء لئلا يكون سريع الانهيار . ثم اختيار الازمنة والأمكنة التى يكون منها نقطة البدء والانطلاق ولا ضير أن تستخدم الدعوة بعض الآراء والمذاهب القديمة وتركب أكتافها ، ثم عليها بالتزام السر الذى يتلوه الاعلان ان كانت الدعوة تخاف الأعداء والمتربصين.. وبغير تلك الخطا والأركان لا تنجح دعوة ، بل لا أمل فى قيامها وبقائها .

وكثير من مؤرخى المذاهب الحديثة يطنطن فى كتاباته حين انتصرت هذه المذاهب بهذه الخطا التى اتبعتها فارضا أنها طرق مبتكرة خلقتها تلك المذاهب لتظهر بها ، ولو نظر هؤلاء المعجبون بنجاح مذاهبهم فى تاريخ الدعوة الاسلامية لتحقق لهم أنها أثبتت كل هذه الخطا ولم تهمل واحدة منها فضمنت لنفسها النجاح ، ولم يصدر عنها رأى لا يعتمد على قوى تسنده ، ولم تستند على قوى جاهلة لا يسندها العلم .

ثم استمرت ودأبت ، فلم تكن هبة ريح تسكن ، ولا شعلة نار موهونة تتقد وتخمد ، بل أخذت فى الخطا الوئيدة المحروسة بالعلم والقوة . وكلما تثبتت من خطوة أتبعتها أخرى واستمرت فى السير من حال الى حال أحسن حتى تمت .

وهكذا سلك الاسلام بدعوته ونظامه نهجا سديدا للذيوع ، بين تناصر القوى والأفكار ، فأمكنه أن يستقر فى معظم الأماكن التى بلغها ولم يتزحزح

عنها مهما أصيب أهله بالتأخر والضعف الشديد ، لأنه حين تفاعل مع الأسباب والعوامل فى الأمم التى حكمها وحول دينها كان جديرا بأن يثبت وأن يبقى ، وحتى لو رجعت تلك الأمم الى لغاتها .

وقد سار الاسلام فى خطاه سيرة العلم ، اذ حقائق العلم تقع أولا ثم لا يمكن أن تترك دون ادراك أو محاولة ادراك كما لا يمكن أن تترك كوارثها بلا حل ، فاذا بلغ الادراك هــذه المرحلة وضع الحلول ثم صبها فى قوالب علمية . والفوز دائما للحلول الواضحة دون الغامضة التى تتعثر فى عقبات الفلسفة وغيرها .

واحساس مذهب بقوته يدعوه الى أن يحاول تحطيم المذاهب الأخرى ، وهو أمر تراه فى دعاوى مذاهب عصرنا ، وهى طريقة للتغلب تتخذها لتوهم بقوتها وتلقى أمام دعوتها الرعب فى النفوس . أما الاسلام فكان لقوته الفائقة شجاعا ذا جراءة فنادى الناس جميعا ليدخلوا فى دعوته كافة ، مناديا جاهرا أنه آخر دين ، وقد ضمن لنفسه بصدق دعاته ودعوته كل الغلبة وكل الانتصار .

شمول الدعوة :

وقد وجه الاسلام دعوته لكل البشر بلا استثناء ، فالكل مدعو اليها ومن تخلف لحقه العذاب ، ولا مفر منه ، فان نجا منه فى الحياة وجده رصدا فى الدار الأخرى . ودعوة الاسلام هذه كانت أول دعوة شاملة تحت فكرة واحدة ونظام واحد . ومجرد دعوة عامة جدية للعالم كله شعور منها باستعلائها واحساس منها بقوتها ورحمتها للناس من أن يظلوا مبددين .

وليس بين قوله تعالى « وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا » وقوله : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم » — ليس بين الآيتين تضارب فان المشيئة فى الآية الثانية بمعنى الالجاء لا بمعنى الاختيار ، وانما أراد الله تعالى أن يخبرنا عن قدرته وأنه لا يخالف ولا يعصى .

وقد جرى لفظ الرحمة حيث انه تعالى كره الاختلاف والذهاب عن الدين ، ونهى عنه وتوعد عليه . وقوله تعالى « ولذلك خلقهم » أرجعه

الشريف الرضى فى أماليه الى اجتماعهم على الايمان وكونهم فيه أمة واحدة ولا محالة أنه خلقهم ليؤمنوا وهو مطابق لقوله تعـالى « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون » وهذا كلام كبير القيمة وهو أولى بالتقدير .

أهداف الدعوة :

والعبادة التى تطابق شرف الذات والعقل ، تعنى بالواقع لا الخيال ، جاء بها الاسلام ، فرفع الوجوه عن السجود للأوثان البشرية وغير البشرية ، وبدأ بها أولا لأنها أخطر وأشق ، وبغيرها لا يكون الانتقال من عبادة الى عبادة ، بل هى بمثابة الاقرار بالحق ، وبدونه تكون الاستهانة ، وهذا سر أسبقية الشهادتين فى الاسلام وكونهما الركن الأول فيه .

ثم ربط الاسلام الانسان من ناحية أخرى فشده الى الكون من غير أن تكون فى فتائل الرباطين خيوط من مخاوف أو من أوهام ، وهكذا أطلق الاسلام ارادة الانسان من عقالها لتسيطر على الطبيعة وعلى الأفعال ، ولكنه مخافة أن يطغى بعضها على بعض فيضطرب النظـام نظم مجموعة العلاقات الانسانية مبقيا على الفضائل التى تكتنفها .

وثار الاسلام فى تدرج سريع فاجتاز مظاهر انحطاط العنصر الانسانى من كل جانب ، ولم يكن فى نظره شىء يمكن أن يكون خليقا بأن يستعبد الانسان ، حتى السلعة التجارية والمال . ومن قبله خطت المسيحية نحو الغاء العبودية لسلع التجارة وضوضاء سوقها ، فضرب السيد المسيح تجار السوق بهراوته حول الهيكل لأنهم أفسدوا عليه هيبة صلاته . ولم يكن عمل المسيح الا درسا من امتهان المـال اذا تطاول فعطل العبـادة وتخطى حدوده فشغل الروح ، ولكن السيد المسيح لم ينظم عمل المال بل أراد أن يتركه طريدا .

وجاء الاسلام فتناول تنظيمه ، ادراكا منه بضرورة العمل والاستمرار فى الانتاج والاستهلاك من غير توان ، لتظل الحيـاة البشرية كائنا ممتد الحياة .

والحياة نفسها فى الكائنات التى حولنا ممتدة الحياة ، حتى يأذن الله بتغير نظامها ، ولكن الحياة البشرية التى هى جزء من الكون أو أهم أجزائه

هى المهددة بالانحطاط أو الزوال اذا لم تبد نشاطا وحيوية دائمين متصاعدين أكثر من أى كائن آخر ، لأنه ازاء العقل الذى وهبته القيت عليها واجبات وصورت أمامها آمال ، فعليها أن تؤديها وتحققها ، كى يحق لها أن تسيطر على منافع الكون ، لا على الكون ، لأن الكون ممتد الحياة من غير تدخلها ، أما منافعه فهى التى تتحكم فيها وتسيطر عليها .

ولم يجرؤ نظام فى الدنيا بدعوى أنه يخلق المثل العليا ويحقق أقصى المنافع المادية بها كالاسلام ، فقد ادعى — صادقا — أنه يجعل الأرض لأهله فراديس تمور بالخير والجمال ، وذلك حين قرر أن الجماعة ان استغفرت ربها أرسل عليها السماء مدرارا وأمدها بأموال وبنين وجعل لها جنات وجعل لها أنهارا .

فالوسيلة الاستغفار . وهى وسيلة هينة على الجهال — لو تعلقت بألفاظ الاستغفار — ولكن اللفظ وحده ليس الوسيلة ، اذ هى فى حقيقتها شاقة على المؤمنين والعلماء والأصفياء ، وليست كلمة الاستغفار العفوية هى التى تراد ، فان عليها يقدر الناس جميعا ، ولكن المراد عمل الاستغفار ، وهو الفرار من الذنوب والاقبال على عمل الخير وتأدية كل الواجبات ، وهو ما لا تكون المثل العليا الا به ، وهو ما مات العباد المخلصون دونه وهم خائفون يرجفون .

فما أراده الاسلام من الأهداف :

سعادة الحياة الدنيا المنتهية جزئيا عند أجل كل ميت ، واتصالها بسعادة أخرى ممتدة باقية .

فهو نقل من المنتهى المحدود الى ما لا حد له ولا نهاية ، ومما ينفد الى ما يبقى ، ومن القليل المعدود الى الغمر الكثير الغزير .

معرفة الذات

ذات الفرد — ثنائية الانسان — الروح والجسد — الذكر والأنثى — شخصية الرقيق — حقوق الذمى — اختلاف الدرجات .

ذات الفرد :

هذا العراك الصاخب المرير ، الذى يصبح فيه ابن آدم ويمسى ليسفر له عن يوم سعيد ثم لا يجده مهما توفرت له أسباب المتاع انما كان سببه أنه لا يعى معنى السعادة الحقة ثم هو يسير الى ما لا يعى فيضل الطريق مرتين . وليس هذا الخطأ الا لأنه ينظر الى السعادة وكأنها كائن غريب ومخلوق خفى لا يبلغ أعتابه بغير شق الأنفس وطحن غبار السنين .

ولكن السعادة الحقة فى أول مرمى البصر وعند ملمس أصابع اليد ، بل هى أقرب اليه من ذلك اذا تحقق أنها لا بد أن تصدر عن نفسه وتنبع من قلبه ، فاذا أخطأ وجرى وراءها ليحصل عليها من غير هذين المصدرين فانه سيرجع بلا شيء ، حتى من غير خفى حنين .

السعادة فى ذات النفس وبين حنايا القلب فان أدرك المرء ذاته وملك قلبه وعقله فقد بلغ الذروة التى يطل منهـا فيرى كل سعادة دونها أشـلاء وتفاريق .

ولقد أخذ الاسلام بيد ابن آدم فدله عليها بعرفان نفسـه ، وأمره أن يبصر فيها عظمة الخلقة ويدرك بها حقيقة العظمة ، وكأنما طار به الى القمة العليا حين أخذ بيده لينظر منها الى ما هو أدون وأقل ، فان عصى وتلكأ وبدأ من الوادى مصعدا ، ومن السفوح جاهدا ، فانه لن يبلغ القمة وحده أو بأعوان الا اذا أخذ بيده الاسلام ، وهو من غيره سيضعف حتما عن الصعود ويقعد عجزا دون البلوغ .

ورويدك قليلا ، فلا تظن أن بلوغ القمة كان فى الاسلام من غير صراع ، بل بلغ فيه الصراع أشده ، ولكنه كان صراعا فكريا نبيلا وكان مداره ترقية الانسان من طريق احساسه بذاته وادراكه حقيقة نفسه .

وقد شوهد كيف واجهت الرسالة الاسلامية منذ البداية هذه الفكرة وتصدت لها ، بل يكاد يكون الأمر أكثر من تنبيه المرء لنفسه فى كثير من الآيات والأحاديث التى تنص على النظر فى النفس ومعرفتهـا ، فقد أرغم الاسلام الفرد على ادراك ذاته ، ليس فقط بما ألقى عليه من واجبات وقدر

له من حقوق وعقوبات ، بل بدخوله بفرائضه وآدابه فى كل دقائق حياته حتى أوشـــكت هذه الفروض والآداب أن تمس ما بين جلده ولحمه وأن تحول مابين أشفار عينيه .

وتكليف الفرد بتكاليف كعدد شعرات البدن وافساح الأمل أمامه فى الحق والجزاء اشعار له بعدم الاهمال وانقاذ لدقائق حياته من المتاهة المظلمة التى تقضى فيها البهائم حياتها . ومقتضى كرامة المخلوق أن يكون مسئولا فيعطى ويأخذ ويفكر ويريد ويرجع ويمضى دون أن يكون ساكنا جامدا أو تائها فى مضلة عمياء لا يحس بذاته ولا ذوات ما حوله من أركان الوجود .

والعقل والقلب والتفكير والمشاعر هن مميزات عنصر الانسان المتعالى على أنواع الخليقة دونه . وحين قدر الاسلام فيه هذه المميزات جعلها ميزان حسابه ، فلم يسقط عن الصبى فريضة الحج — مثلا — اذا أداها وهو صبى لأنه يجب أن يؤديها عارفا عازما ، والعبد المعتق يجب عليه أن يعيد بعد أن يطلق حرا ، وفى مثل هذا وذاك اشارة جدية من الاسلام الى أن عمل العبد لا يصلح أن يحسب له الا اذا صدر عن ذات نفســه التى يحس وجودها ويملكها فيعمل عن عزم منها وارادة ، أما عزم الصبى والعبد وأمثالهما فهو عزم مفقود ما لم يكبر الصبى أو يرسل العبد حرا .

والظلم والبؤس والمرض كالطفولة والعبودية قيود تصيب هذا المخلوق فتحطم ذاته أو تضعفها وقد تكون أسبابها منه أو من غيره ، وسواء أكان هذا أو ذاك فقد انبرى لها الاسلام ليحطمها ويخلص الانســان منها ويرجع اليه خصائصه الرفيعة التى جعلته من ابان الخلقة مستخلفا على الكون .

والمثل ذاته الذى ضربه حديثا أحد علماء الاجتمــاع فى الدلالة على تخلى الانســان عن ذاته بالكوخ الحقير الذى يسكنه ، هذا المثل نفســه — مصادفة — هو الذى جعل المسلم الأول المسئول يعثر بذاته ويعمل على انقاذها .

ففى تاريخنا أن عمر بن الخطاب كان يلبى فى عرفات فلمحت عينه أثناء التلبية كوخا فقطع التلبية ، فقيل له : لم قطعت التلبيــة يا أمير المؤمنين ؟ فقال : خشيت ألا يجيب الله دعائى وهذا الكوخ على الطريق !

ولم يكن عمر غافلا عن مكان الكوخ قبل أن يلبى ، بل كان يعلمه ويراه — وأرض عرفات ذاتها كانت مرعى عمر فى طفولته وصباه — وانما أراد عمر أن يجهر بالدعوة فتبلغ كل من فى الموسم ثم من وراءهم اذا عادوا اليهم لازالة كل الأكواخ على كل طريق . كما أراد عمر أن يعود الناس الى بلادهم وقد علموا أن أبواب السماء مسدودة لا تقبل دعاء الأرض الا اذا اقترن الدعاء بعمل جدى خالص سريع ينقذ البائسين .. ومن ذات الفكرة ترى أنها كانت من جانب لانقاذ الفقراء ، ومن جانب آخر لانقاذ الأغنياء ، ومن جانب ثالث لتعليم العابد الداعى أن الدعاء الذى يلهج به لسانه من أجل نفسه قد لا يلبى الا اذا كان لغيره فيه نصيب .

ثنائية الانسان :

وكانت الأخلاقيات القديمة تتحسس الطريق فاهتدت الى أن الفرد الانسانى مخلوق شرير ، ثم جاءت أخلاقيات جديدة فعاندت هذا القديم وقالت ان الفرد الانسانى مخلوق خير .. هكذا على الاطلاق ، فى القولين القديم والجديد . ومن حيث كان نظرهما جميعا فى غير واقع الانسان وفى غير حقيقة وجوده فقد ضل الاثنان معا وتباعدا برأييهما فلم يلتقيا ، وبان هذا الاختلاف كأنه صادر عن عناد ليقال هذا قديم وهذا جديد .

وبين التجارب الطويلة فى حياة الانسان وانسياب أخبار الاسلام وادراكاته فى التيارات الزاحفة ، اهتدى المفكرون الى التوسط فقالوا ان الانسان بين بين فلا هو شرير خالص ولا هو خير خالص وانما هو شرير وخير معا .

وحتى لو كان هؤلاء الفلاسفة الذين اهتدوا الى هذه الآراء المتناقضة أو الجامعة قد أعملوا عقولهم وراء بحوث مضنية للوصول الى حقيقة الانسان فانه ثبت بما جاء به الاسلام ونزل به القرآن أن العقل البشرى فى حاجة ملحة لأن تهديه الى الحقائق أخبار السماء .

والرأى الذى جاء جامعا موافقا لا نحط من قيمته ولا نخفض من عظمته ، ولكنا ننكر أنه كشف فكرى تجريبى لغير الاسلام على الاطلاق ،

فمنذ بزغ نوره — وليس فى وسط البلاد الموسومة بالرقى الفكرى الآن — قرر الاسلام هذه الثنائية ونسبها الى مبدعها ، كما قرر أنها — وهى مستقرة فى الخلقة — كانت لادراك الخير والشر وتمييزهما . ثم قال الاسلام أفضل من ذلك كله وأتم تفصيلا ، قال :

ان الانسان بعد خلقه من مزيج الخير والشر مدفوع بتفاعله مع الطبيعة من فكر ومادة الى فعل الخير والشر ، ولكنه مسئول أن يقتحم العقبة فينفى جانب الشر ، ويحقق جانب الخير فى نفسه من داخل ، وفى أعماله التى يبرزها من خارج ، وفى كل روابطه بمجموع الخليقة الانسانية ، ولا سيما اذا كان الخير محطما لقيد من قيود الظلم أو البؤس أو المذلة ، فى الفرد نفسه أو فى فرد آخر غير نفسه أو فى جماعة من الناس .

ومسئولية الانسـان فى ذلك من أنه مطـالب أن يدرك ذاته ، أليس موهوبا بصرا يرى ؟ ولا قيمة للبصر الا اذا رأى . أو ليس ملهما أن يعبر عن معانى السعد والبؤس التى يحسها ويشعر بها ؟ ولا قيمة للسانه الا اذا دعا به وعبر ونصح وأثر . أو ليس موهوبا ادراك الخير والشر قادرا على أن يسلك طريقيهما ؟ ولا قيمة لهذه الهبة الا اذا صعد فى خير النجدين فاقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة ! « ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة » .

وان أول درجات اقتحامها محو الطبقة بفك الرقبة ، وتأمين الطعام فى المجاعة والمأكلة حين تضيق موارد الرزق وتنقطع أسبابه . وهذا كله امتداد من النفس بخيرها الى غيرها ، وهو فضل من تعاليم الاسلام ، ولكن لم يزل فيه فضـل بعد ، فانه يفترض مع هـذا الامتداد باليد الى الغير أن يكون الانسان فاضلا فى ذاته صالحا فى نفسه غير مكتف بما يفعله وحده ، بل عليه أن يدعو اليه غيره ويحثه عليه ، وفى ذلك يستطرد القرآن قائلا « ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة » .

وهو قول يؤذن بأن كل اصلاح يجب أن يقتلع جذور الشر من النفس لئلا تنبت بشر جديد ، ولا ضمان لمستقبل حضارة محققة السعادة بأفضل مما دل عليه القرآن .

الروح والجسد :

وفي الانسان ثنائية أخرى ، فيه روح وجسد ، وذاته المكونة منهما مصدر أقواله وأفعاله . هما متحدان في الذات ، ولولا اتحادهما لما ظهر التأثير الذي نراه في المادة بأشكال لا تعد ولا تحصى . ولكن حين كان الجسد ومطالبه الى الشر أقرب انصبت عليه أسواط التأديب الديني بالحركة المقيدة في الصلاة ، والجوع في الصوم ، والاحرام والحرمان في الحج ، ودوام النظافة بالوضوء والغسل وأساليب التأديب في الأكل والشرب والغدو والرواح ومشقة الحمية ومرارة الدواء . وكل هذه الأمور انما هي لدفع الجسد وتقويته على مرافقة الروح في قوة لتصعد به كما تريد .

والاسلام يأمر النفس في عدد لا يحصى من الأوامر أن تنظر في خلق الجسد وصورة البدن ، حتى تسلك مذهبه في التحول والنمو والقوة والنشاط ، والمزاولة والتجربة فتظهر من الخفاء وتنتقل من الجهل الى العلم ومن المعرفة الى الحكمة ، ثم تنطلق هي بعد تاركة هذا الرقيق المحطوم عند حده الى بقائها السرمدي وخلودها الأبدي .

ومن الممكن عند صفوة العارفين من علماء المسلمين أن تفارق الروح الصورة الانسانية الى صورة ملكية لو عاونها البدن وانحبس معها في محراب الاعتدال ، أو ساعدها على التطرف في التنسك وأعطاها فراغه قبل أن يشتغل وغناه قبل أن يفتقر وصحته قبل أن يسقم وشبابه قبل أن يهرم وحياته قبل أن يموت .

ولم يعبر الفكر الاسلامي في الروح والجسد وراء البحث عن غير المعقول ، ولكن المهم عنده الانتفاع باتحادهما في ترقيتهما معا . وأبسط العواقب أن يتخلف الجسد أو يتحطم ، أما تخلف الروح فمن ورائه الخطر الداهم والشر القاصم . والصوفية يدعونك الى أن تجرب فتقبل على تصفية روحك حتى ولو أرهقت البدن وجررته كسيحا كسيرا الى محراب الصلاة ، فاذا عصى البدن وذلت الروح هان على الله عذابهما واستحقا عذاب الحريق .

الذكر والأنثى :

ومن ادراك الذات الشعور بالقوة والضعف والاعتراف بهما والعمل طبقا لما تستطيع الذات أن تفعل ، ولا عبرة بأقوال طنانة تتناسى هذا الشعور ولا تعترف به . وفرق بين أن تحشد أمة لأعمالها كل قوى وضعيف وبين أن تسوى بينما فى الحقوق والواجبات ، اذ لابد حين تدرك الأمة ذاتها وتعمل لصالحها أن تشعر بالفرق بين القوة والضعف لئلا تلقى على الكواهل واجبات بغير حساب .

ولا يطعن فى قوة هذا الرأى ضرب مثل بفرد واحد ، فليست النساء كلهن عائشة ، وليس الرجال كلهم أبا بكر . وبحث الأمور بروح الكراهية ينطوى على خطيئة . وروح التسامح الذى جعل الاسلام يكره الجدل والعناد كفيل بأن يوصل الى الحق الأكيد .

وما من شك فى أن المرأة المسلمة ترتبط بضميرها فى الشرف والسمو لأن الاسلام — حتى فى أوهى خيوط التعلق به — يكبح فى نفسها جماح التهور والاندفاع ، فلن تسمح للآراء الجائرة على الأخلاق باسم الحرية أن تجتاح من نفسها كل السدود التى بنيت فيها لحماية الفضيلة .

وقد فصلَ الاسلام فى الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة بحيث جعل كل جنس منهما عند ذاته ، ولا مفر من الخضوع لحكم الخلقة . أما الأشكال والطوارىء فقد نفاها ، فلم يقض على المرأة بالاهمال أو الطرد أو الوأد ، وكذلك لم يطلقها من غير قيود ، بل أحلها مكانها فى أخوة الجنس بلا ميل ولا حيف .

ولم يحمل الاسلام المرأة من بعض الفرائض الا بمقدار ما يتيح لها استعدادها فى الفطرة ومقدرتها فى الخلقة ، واتخذ من بعض هذا الضعف المخلوق أو المكسوب علة كون الرجل قيما عليها — فى رباط الزوجية — وهو ليس قيما الا بعلتين : علة بنائه لمواجهة الشدائد والطوارىء المفاجئة حتى يصونها ويحميها من مواجهتها ، وعلة انفاقه عليها ليوفر لها جهدا تنفقه على

رعيتها . والعلة الأولى مخلوقة ، والثانية مكسوبة . فاذا انعدمت علة منهما أو انعدمتا معا تعادلت مكانتهما . أو كانت المرأة قيمة عليه ، فهما اذن — من غير علتى التفضيل — متساويان .

والأصل فى ذات الرجل أن يكون أبا راعيا .. والأصل فى ذات المرأة أن تكون أما راعية .. وهكذا يشير الحديث الذى اتخذ أصلا فى مسئولية كل من يلى أمرا عاما أو أمرا خاصا . وما عدا ذلك من الأمور فهى فروع لاتبلغ مبلغ الأصول .

وحيث كان هناك حقل للأبوة وجب أن يحمل الأب اليه فأسه ، وحيث كان هناك ركن للأمومة وجب أن تبذل فيه الأم قلبها وجهدها . وليس المراد بالبيت الذى أمر الاسـلام بالتزامه مجرد بيت من جدران وأستار ، ولكنه ساحة علم وبناء أخلاق وتخفيف متـاعب وارخاء سكون وتدبير مال ورسم خطوط حتى يعد البيت أبناءه للمجتمع الخارجى ويجهز له الأفكار ، ثم يعود البيت فيجنى ثمرة العمل الخارجى وينتفع بها ، فهو كالوسط التجارى بين العمل والاستهلاك .

هذا هو أصل الفكرة فى ادراك ثنائية الجنس فى الاسـلام ، وهو مجملها ، فاذا وجد شذوذ فى الجزئيات فالطبيعة من طبعها خلق الشذوذ .. ومن خير المرأة ألا ترجع عن حقها من التفيؤ بظلال الرحمة التى خلقت لها ، لأن ذات المرأة فى الخلقة من صورة دقيقة بالغة التحديد ، يتلفها أقل تطرف الى الترجل أو التبرج .. وكلاهما أمران مختلفان . ولكنهما يؤديان الى نزع خصائص الخلقة وانحرافها عن الذات . والتبرج أشد خطرا من الترجل لأنه مظهر ترف وداعيـة انحلال ، أما ترجل المرأة فقـد يكون أحيـانا محمودا كضرورته ابان الأزمات والحروب .

وعلى هذه الأصول يجب أن يقاس الأمر فى الزى والصوت والاختلاط ومهما دعا التطرف الناس جميعا الى الخروج عن الاعتدال فالاخلاص لهذه الأصول يحمى الأمومة من الضمور كما يحمى الأبوة من الانهيار .

شخصية الرقيق :

قضية (العبرة بالنتائج) قضية لا نقض لها . والنتائج هى المأمولة من كل عمل فى هذه الحياة . والعمل اذا كان لذاته أشبه بالتسلية أو ساعة من الهزل يطرح فيها الانسان عقله للذة عاجلة فارغة .

وكثير من الجدل والعناد يكون أشبه بالتسلية برواية مؤلمة المشاهد ، ومن هذا — تماما — القول فى الرقيق فى الاسلام : هل عمل الاسلام على الاسترقاق ؟ هل عمل الاسلام على الاطلاق ؟ ويدور المجادلون وراء السؤالين يحشدون الأدلة ويستنجدون التاريخ .

وقضية الرقيق فى الاسلام أيسر من أن تجادل أو يختلف عليها لو رجعنا الى قضية (العبرة بالنتائج) ومنها نستطيع أن نسأل : أين الرقيق اليوم عند المسلمين ؟

انه لا يوجد رقيق قط . لقد أطلق كله . واشمأزت النفس الاسلامية أن يسترق الناس ، ومع تأخر بعض العصور الاسلامية فى ديارها وأفكارها فانها لم تمسك الرقيق ، بل استمرت تطلق ما كان منه حتى لم يبق منه شىء .

هذا قول حق لا يعترضه انسان ، ولا يطعن فيه ما يتناثر من أخبار عن آحاد من الناس يملكون رقيقا ، لأننا لا نتكلم عن الآحاد ، وانما نتكلم عن فكر الاسلام وعمله والنتائج التى حدثت منهما .

وفى غير بلاد المسلمين يزعمون أن عالمهم خال أيضا من الرقيق ، وهو موجود بالجملة ، وجماعات برمتها تطرد وتقتل لأنها ملونة فى بلاد البيض . وهؤلاء الملونون أحرار ، ولكنهم يعاملون معاملة العبيد ، أما الاسلام فكان له رقيق ، ولكنه كان يحيا حياة الأحرار .

والزنوج الأحرار يطلبون الحرية والسمو فيطردون عن دور العلم وسكنى المدن . أما الأرقاء فى تاريخ الاسلام الأول حين امتلئوا من الحرية والعلم فقد ثاروا يدافعون عن الاسلام فى كل موقعة وينتظمون فى كل جيش .

وكذلك يبدو أن الاسلام تولى قضية الرقيق بالحل فكانت العاقبة أن لا رقيق والأمور بعواقبها ، فلم يسلب الاسلام ذوات الأرقاء بعد أن كان من الطبيعية أن يفقدوها بحكم ارتدادهم منهزمين . وحتى فى استمرار العبد عبدا فقد جعل الاسلام علاقته بسيده علاقة مساواة فى حقوق العيش ومظاهره كلها ، أما فى الحق العام فقد سوى أبو بكر فى القسم والعطاء بين الحر والعبد والحرة والأمة والذكر والأنثى والصغير والكبير .

ثم كان العبد ينطلق من عبوديته لسيده اذا أدرك واحد منهما ذاته ، فاذا ميز السيد الخير ومال اليه وتخطى العقبة أعتق عبده . واذا بلغ العبد مكانا فى الفضل أو ناله من سيده أذى يحقره ويؤلمه أعتق من سيده .

أما السبايا فقد محا المجتمع الاسلامى الأول عنهن هذا الاسم وسماهن « الفتيات » وقد كان منهن كثير من بنات الخلفاء والملوك وحسبهن أنهن ولدن خير الناس فى مبدأ الاسلام ، وكان من أولادهن فى عصر واحد بالمدينة فقهاؤها وعبادها الثلاثة : القاسم بن محمد بن أبى بكر وسالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب وعلى بن الحسين زين العابدين .

وربما دعا الاسلام الى عتق العبيد لأول استجابة منهم لندائه ، وقد نادى منادى رسول الله يوم الطائف يقول : أيما عبد نزل فهو حر وولاؤه لله ورسوله ! فقذف بضعة عشر رجلا من عبيد الطائف بأنفسهم من الحصون استجابة لمناديه .

وقصة أبى مسعود البدرى مع غلامه تضرب أروع مثل فى اطلاق الاسلام للعبيد : فقد كان أبو مسعود يضرب غلاما له مملوكا بالسوط ويثقل عليه بالضرب وقد ملكه الغضب فما يرفع عنه ضربة حتى يهوى عليه بالأخرى والغلام يصيح مستغيثا فلا يغيثه أحد . وبينما هو يفعل ذلك ويكرره اذا صوت يناديه من خلفه على بعد قائلا : اعلم أبا مسعود !

وسمع أبو مسعود الصوت ولكنه لم يميزه ولم يدرك لمن يكون لأن الغضب كان قد سد عليه منافذ السمع والتمييز ، ولكن الصوت جعل يدنو منه ويقترب ويرتفع ويقول : اعلم أبا مسعود .

والتفت أبو مسعود وراءه حين صـــار الصوت قريبـــا منه فاضطرب وأخذته الخشية والمهابة وسقط السوط من يده ووقف منكسا رأسه خاشعا . واذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول : اعلم أبا مسعود ، اعلم أبا مسعود !

فلما نكس رأسه وخشع وأخذته المهـــابة قال له رسول الله : اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام ! واستحيا أبو مسعود وأراد أن يكفر عن ذنبه ويستغفر فقال : يا رسول الله هو حر لوجهه تعالى ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما لو لم تفعل للفحتك النار !

حقوق الذمى :

ولم تخرج الذمية الفرد عن ذاته فى ظل الاســـلام ، بل حفظت عليه حياته وحريته ودينه ولم يكن الخراج الذى يدفعه أو الجزية الا مقابل حمايته أولا ثم استمتاعه بحق المسلم كله بعد ذلك فى نظـــام الحياة المفروض على الجميع ، فاذا لم يستطع المسلمون حمايته فليس عليه جزية ولا خراج !

وليست هذه دعوى نسوقها من غير دليل ، ففى أول فتوح الشام رد المسلمون لأهل حمص خراجهم الذى كانوا قد أخذوه منهم لمـــا عجزوا عن حمايتهم ، فلمـــا رأى أهل حمص هـــذه العدالة من المسلمين انضموا اليهم وقاتلوا (هرقل) فى صفوفهم حتى انتصروا .

وبيت مال المسلمين لم يكن أعز عند عمر بن عبد العزيز من ذمى يسلم ، وقد شكا اليه بعض الولاة اقفار بيوت الأموال من اقبـــال أهل الذمة على الاســـلام ليسقط عنهم الخراج ، فكتب اليهم عمر يلومهم على الشـــكوى ويقول : ان الله أرسل محمدا هاديا ولم يبعثه جابيا !

ولم يكن اقبال أهل الذمة على الاسلام الا لأنه رد اليهم ذواتهم التى كانوا فقدوها فى الشرك والوثنية ، ولو كان الاسلام سلبا للذات لظلوا على عداوته وما قبلوا دعوته ، ولكن المسافة لم تكن بين الذمية والاســـلام فى

كثير من الأحيان الا مسافة التجربة والاختلاط ثم يقبل الذمى على الاسلام مخلصا موفقا .

اختلاف الدرجات :

والفرد الذى يذوب فى طبقة أو يبيد من طغيان طبقة أخرى كلاهما أنقذه الاسلام ، اذ لم يعترف بنظام الطبقات الذى هو تكتل جماعى لصنف بذاته من الناس ، بل جاء ليقوض ما كان موجودا منه ويحل مكانه نظام الاعتراف بتفاوت الدرجات . ولم يرد فى القرآن ولا الحديث لفظ للطبقة يؤدى المعنى الذى نعرفه منها فى تفاوت جماعات الناس .

ومن حيث يذوب الفرد فى الطبقة أو يبيد تثبت ذاته وتبرز فى اختلاف الدرجات . وهذه الفكرة ناصرها الاسلام لأنه لا حيلة فيها اذ تكاد تكون مجمدة الخلقة لا يمكن أن تزول من الوجود الا اذا أعيد خلق الانسان من جديد على قد واحد وصب فى كل اناء جسدى ما هو مصبوب فى اناء الآخر من قوى على السواء .

يعرف الاسلام للفرد شيئا اسمه الدرجة ويحققها له فى أجور الدنيا ومراتبها ، ويعده بها فى الآخرة وثوابها ، ولا يعرف له شيئا اسمه الطبقة . والعبد فى نظر الاسلام ذو درجة عليا لو عرف ذاته والسيد ذو درجة سفلى لو انحط فكره وخلقه وآذى الناس .

وعمر بن الخطاب لم يبال بملك غسان حين داس الأعرابى على طرف ازاره فى الطواف فصفعه الملك ، وأراد عمر أن يقتص للأعرابى منه فعز على الملك أن يهان فترك الموسم ومضى .. ولم يبال عمر أن يخرج جبلة هذا من أرض المسلمين وأن يخرج من الاسلام جملة ما دامت فيه روح الطبقة وغطرسة الملوك .

وتساوى الأفراد فى الاسلام ، الا بوجوه من الفضل ترفع الدرجة ولا تخرج الى طبقة . وحتى فى مذهب الشيعة الامامية — وهم يقصرون الامامة

على الوراثة — لم يورثوا من الأئمـــة الا من كان ذا درجة عليا فى تدينه ، وأقصوا غيره ، فلم يخرجوا عن جوهر الاسلام العام .

والحق فى جانب هذا الدين ، فان نظام الطبقات مناف عقلا لكل رسالة تلقى المسئولية على ذات الفرد وتعرض عليها الثواب والعقاب ، اذ لا ضرورة لها لو كان الناس طبقات وكان الأمر ميراثا . وليس ينفع اذن نظـــام موحد تأتى به رسالة ، بل تتعدد الرسالات فتأتى لكل طبقة رسالة ، بل لا ضرورة لرسالات قط اذا انتهى الأمر بحق الطبقة فى الميراث من جيل الى جيل .

وهكذا أدرك كل فرد بالاسلام ذاته وأدركت كل جمـــاعة به ذاتها ، وتحققت السعادة لكل من نظر اليها فى نفسه ورآها بين جنبيه . وكل دنيا بغير معرفتها هباء . وليس بغيرها تدرك حقيقة الوجود .

بناء المجتمع

ركن الأجتمــاع — قيمة الجمــاعة — العدل والمســاواة — تجربة الاخاء — نظام الأسرة — الميراث والاقطاع — الدرجات والطبقــات — تساوى الأجناس .

ركن الاجتماع :

فى كل المذاهب الاجتمــاعية والاشتراكية نظرة جدية الى قاعدة علم الاجتماع التى تقول : ان الانسان مدنى بطبعه .. وهــذه النظرة الى طبع الانسان المدنى جعلت تلك المذاهب تتخذ لها أساليب مختلفة الخطا والمقادير فى التطبيق عليها . وهذا أمر اجبارى لا مناص منه ، لأن الفردية المطلقة غير موجودة . انها لم تخلق غير مرة واحدة فى الانسان : حين خلق آدم ومع ذلك فقد خلق وفى ضلعه أصل الاجتماع ، ثم لم يسع أولاده أن يتحرروا من علاقاتهم الاجتماعية قط لأن بقاءهم ذاته رهن بها .

وقد أيد الاسلام هذه النظرية وتبناها وطبقها . وقد حرم أئمته وحرمت قوانينه أن يتخلص امرؤ بالعقوق من واجبه الاجتمــاعى الضيق فى الأسرة وذوى الأرحام والجيران والأصدقاء ، أو من واجبه الاجتماعى الواسع لدى الدولة والأمة بالبخل أو التخلف عنــد لقاء العدو أو الامتنــاع عن أداء الحقوق .

وحتى مجرد دعاء الانسان بأن يغنيه الله عن الناس لا يحمده الأئمة ، اذ يرونه أمرا غير كائن ، فليس يستغنى أحد الا بجهود الناس ، ولو استغنى دون جهودهم لبطل ركن الاجتماع الذى عليه بقاء الانسان .. وقد قال رجل لجعفر بن محمد الصادق :

ادع الله لى أن يغنينى عن الناس . فقــال له جعفر : بل أدعو لك الله أن يغنيك عن شرارهم ..

وهذا الكيان الجماعى الذى يقره الاسلام ليس مذيبا للذاتية الفردية التى عمل الاسلام جاهدا على تقويتها لأنه لم يتصور الذاتيــة قوية بدون الجماعة ، وكذلك الجماعة الاسلامية لا تذوب أبدا لأن الاسلام لم يتصورها بلا فردية ، فلم يدر بخلده أن يجىء بنظام يسحق الفرد أو المجموع لأنه لا يقــوم فى الذهن أو الواقع تراكم وكثرة الا اذا كانت له أجزاء كالعــدد الحسابى لا بد أن يتكون من آحاد فاذا انعدمت فليس للعدد وجود .

والاجتماع الاسلامى لوحظت فيه المساواة والرحمة فتكون من كل الأفراد حتى الضعيف المريض .. ولا حاجز بين أحد وبين الجماعة ، بل هو يندفع اليها عفوا فيحسب منها من غير ضرورة الى أحزاب تتكتل فى داخلها ؛ بل ان دائرة الجماعة تحيط بجميع الأفراد بلا تكتل أو امتياز .

قيمة الجماعة :

ومع ذلك فقد كان اهتمام الاسلام بالجماعة أظهر وأبين ، لأن الجماعة أكبر قيمة ، وهو أمر لا تخالف فيه البديهة .. وقد جعل الاسلام يد الله معها وقوته ومعونته . وقد يعمل الفرد عملا يعود عليه وحده بالنفع ولكنه يثاب عليه لو أداه مع الجماعة أكثر مما يؤديه وحده منفردا حتى اذا لم يصب الجماعة منه نفع الا مجاورته لها عند أدائه .

وذلك كالصلاة ، فان صلاة الجماعة أكثر ثوابا للفرد من صلاة الفرد وحده ، فى حين أن الامام يضمن عنه بعض ما لا يؤديه معه كالقراءة ، ولو كان منفردا فى أدائها لوجب عليه القيام بكل أركانها اذ لا ضامن عنه .

وقد اشترط الاسلام على المصلى أن ينخرط فى الصف فاستثقل صلاة من يصلى خلفه منفردا ، وجعل خيرا للمرأة أن تؤم أهل بيتها من النساء فتصلى بهن دون انفرادها بالأداء ، وهو أمر جعله الاسلام فى العبادة ليكون فى غيرها أولى ..

ولم يهمل الاسلام فكرة الاستئناس اذا اجتمع الناس ووحشتهم اذا تفرقوا ، فجعل من آداب السفر أن لا يخرج المرء وحده فان الشيطان مع الواحد ، وهو مع الاثنين أبعد . وجعل من آداب الحج أن يخرج اليه الرجل ولو كان قد أدى من قبل حجة الاسلام اذا خيف على الموسم أن لا يقام .. وقد يكون فرد من السفر أو الحجاج مستغنيا عن الآخر ولكنه يستأنس به ولو فى عبور الطريق .

وكذلك لم يدع الاسلام فردا من ذوى الرأى اذا كان لا بد أن يدلى برأيه مع الجماعة ، ولم يترك على بن أبى طالب — فى بعض ما قيل — أن ينزوى فى بيته دون أن ينزل لمبايعة أبى بكر ليكون مع الجماعة ، ومهما كان

غاضبا حين ذاك فانه أجبر على أن يبايع . ولعل عليا لم يتخلف قط لأنه كان يعلم أكثر من غيره أنه لابد حينئذ من الاجتماع .

ولا يطعن فى هذا الذى حدث ما فعله بعض الأئمة حين كبرت أسنانهم ، وبعض الصوفية حين انعزلوا عن الناس لأنهم لم يفترضوا فى هذا الانعزال أنه اضاعة لحقوق الاجتماع ، وانما كان تنقية له وتصفية ، وكان هربا من بعض الشرور والآثام .

ومع أن فقهاء المسلمين قد اختلفوا فى العدد الذى يتكون منه أقل جماعة ، وجعلوا حده الأدنى أربعة ، فان الاسـلام لم ير أن تصلح لاقامة فريضـة الجمعة مثلا جمـاعة تكونت من أربعـة هم مملوك وصبى وامرأة وعبد ..

ومفهوم ذلك أن الجماعة ليست فى نظر الاسلام عددا أيا كان ، وانما هى نوع وعدد ، ولكل واحد من هذا العدد ذات لها قيمة وادراك . وهو مفهوم ليس أسمى منه فى تعيين الجماعة وتحديدها اذ لا يقرها الاسلام الا قوية غير مصابة بضعف من ناحية الحرية أو العقل أو سلامة البدن .. وهو مفهوم يوحى أن تعى الجماعة الاسلامية حقوق الفرد فيها حتى تكون قوية ذات قيمة : فتطلق العبد وتتعهـد الصغير ، وتعمل على سـلامة الأبدان والعقول .

العدل والمساواة :

والعدل أعم من المساواة ، ولذا فقد تكلم المسلمون فى العدل وأدرجوا تحته عملية المساواة .. وربما كان العدل محدود الأطراف فى نظريات الأخلاق عند اليونان ، وكانت قواعده مكتوبة مسبوكة النظم والترتيب ، وكان عند الرومان رمزا مصورا متقن الأجزاء والدلالة : انه كان عند اليونان فضيلة بين رذيلتين كما صوروا كل الفضائل ، وكان عنـد الرومان امرأة معصوبة العينين تمسك باحدى يديها ميزانا تزن به من غير تأثر بنظر ، وباليد الأخرى سيفا تقرر به ما يوزن وتنفذه من غير رحمة ولا خوف .. ولـكن هل نعم اليونان والرومان حقا بالعدالة نفسها ؟

أما الاسلام فكانت العدالة عنده عملا من غير اعمال الأوصاف وتصوير الرموز .. كانت عملا . وكاد فقهاء المسلمين لا يجهدون أنفسهم في وصفها وتكثيف شروطها ، ولكنهم صوروها في الأقوال والأفعال جزءا جزءا .. وقد كتب عمر بن عبد العزيز الى محمد بن كعب القرطي أحد فقهاء زمانه يستوصفه العدل ويقول : يا بن كعب ، صف لي العدل . فقال ابن كعب : سألت عن أمر حسن : كن لصغير المسلمين أبا ولكبيرهم ابنا ، وللمثل منهم أخا ، وعاقب الناس بقدر ذنوبهم على قدر أجسامهم ، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتتعدى فتكون عند الله من العادين .

وهكذا يحسب الاسلام العدالة عملا حتى يستمتع الناس بآثارها دون أوصافها ، ولأنه لا قيمة للصفات الا بالذات لأنها الجوهر .. وحقا ان العلم بها وبحدودها لا بد منه ، ولكن العلم لا أهمية له ما لم يتحقق عملا يجيء منه النفع الحق والسعادة العاجلة .

ولئلا يعتز المرء بنفسه اذا عرف ذاته فرفعها عن ذوات الناس فرض الاسلام المساواة من حيث لا تختفي الدرجات بين الأفراد في الملك والأجر والمتاع ، ليتفق عمله مع روح الطبيعة والخلقة ، اذ الناس مختلفون في القوى وفي انتاج المنافع ، فليس من الانصاف أن يتساوى من لا يعمل بمن يعمل ، أو من لا يتقن بمن يتقن . وهذا الاختلاف من صالح الأحياء لأنه يثير فيهم روح المنافسة ويدعوهم الى الدأب والاستمرار .

وينطوي وصف ابن كعب القرطي للعدالة على مبدأ رد الحقوق وتحميل الواجبات والعقوبة والثواب وتحسس أحوال الناس في مختلف البلاد . وأبو بكر من قبل ذلك كان قد سار في السنة الثانية من خلافته الى مكة ثم جلس قريبا من دار الندوة فقال : هل من أحد يتشكى من ظلامة أو يطلب حقا ؟

تجربة الاخاء :

وأبهى صورة للاخاء صنعها الاسلام ، وعنده يجب أن يعطى كل انسان حق غيره مع الاقرار بأنه حقه لئلا يعود فيأخذه منه اذا قوى عليه أو جشع من

أجله . ويجب عليه أن يشعر من صميم قلبه أنه حق غيره وليس له فيه الا حق توجيهه وبغير هذا الشعور لا تكون المحبة ولا يكون الاخاء .

على شعورك أن يكون سائقا عنيفا يلزمك أن تقر بأن ما أعطيته لغيرك انما هو حق له ، وعلى هذا الشعور أن يتخذ من نفسك مسكنا دائما كأنه عهد وميثاق أخذ عليك للناس ، بل عليك أن تبذل للغير أكثر من حقه وتغمره بعطفك وبرك ان احتاج اليهما وقبل أن تضطره الى أن يتقدم من بابك بالسؤال .

والانسان يشعر بأخوة الدم والنسب من قمة الرأس الى اخمص القدم ، فلا محيص من أن ينقل هذا الشعور الى أخوة الاسلام مهما كان الفارق بينه وبين أخيه من فقر وغنى وحسن وقبح واستقامة واعوجاج .

والاسلام يعطف الجار على الجار ، والغنى على الفقير ، والقوى على الضعيف ، والمقيم على الضيف وابن السبيل ، وانما يريد بذلك أن يبنى الناس جماعتهم — مهما صغرت أو كبرت — على مثل ما تبنى اخوة الدم فى الأسرة والأقرباء ..

وقد عقد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بين المهاجرين والأنصار أول هجرته الى المدينة اخاء من هذا النوع فاستطاع أن يؤسس بقوم ليسوا من دار واحدة جماعة متحابة متفانية فى الحب أحست احساسا واحدا واتجهت اتجاها واحدا .

جعل على كل أنصارى أن يؤوى مهاجرا ، وأن يقتسم العيش معه وأن يرثه ، ويكاد يكون هذا العمل حادثا فريدا فى الاخاء الذى يستقصى كل معانيه ويطرح وراءه كل صحبة واخاء جاءت بهما الأمثال فى القديم والحديث .

وكأنى بهذا الاخاء الذى عقدته روح الاسلام بين أهله لم يزل له أثره فى ضمائر المسلمين مع تأثر مظاهرنا اليوم بكارثة الجفاء الفرنجى الذى تعلمناه ، وكأننا ونحن نصنع الجفاء بوجوهنا وأعمالنا نحن حنينا عميقا الى أن نعود عن ردتنا هذه الى ما ترضاه ضمائرنا من الود والحب والاخاء الذى فرضه الاسلام على بنيه .

نظام الأسرة :

على أن هذا الاخاء الذى عقده النبى — صلى الله عليه وسلم — بين المهاجرين والأنصار كان عملا مؤقتا بالاضطرار اليه حتى لا يعيش فقير من المهاجرين بلا مأوى ولا حماية ، ومثل هذا الاخاء كان لا بد أن ينتهى فيعود الى النظام الذى صنعته الطبيعة ، لأن القلوب المتآخية فى قوة عند الاضطرار ما تلبث أن يضعف تآخيها اذا ذهب الاضطرار وخفت أسبابه ودواعيه .

وكأنما أبى بعض المهاجرين أن يكون كلا محمولا على أنصارى ، فنزل الى سوق المدينة عاملا للتجارة وكسب رزقه معترفا بأن هذا الاخاء المعقود ضرورة مؤقتة وفى الاستطاعة التغلب عليها ببعض الاحتمال وبذل الجهود .

فلما قويت شوكة النبى — صلى الله عليه وسلم — بالمدينة بعد غزوة بدر ، وقويت شوكة المهاجرين ، وقسم النبى — صلى الله عليه وسلم — خطط المدينة على الناس .. ووزع مساكن بنى قريظة حين أجلاهم عن المدينة بعد غزوة الأحزاب ، ونزلت آيات التوريث بطل نظام الاخاء المؤقت بنظام دائم لا تضعف أسبابه ولا تخف دواعيه .

ويخيل الى أن اخاء المدينة — مهمـا كان عملا انسانيا رائعا — كان برهانا على أن اقامة أسرة على غير روابط الدم — أولا — لا تصلح ، ولذلك ما لبثت هذه المحاولة أن انتهت بالرجوع الى نظام الأسرة الطبيعية التى يربط بينها الدم والعرق والقرابة والحب الطبيعى ، وينظم أمرها الاقتصادى نظام الميراث الذى جاء به الاسلام مرتبا فيه الحقوق للأقرب فالأقرب ، وقد طرد عن الأسرة الاسلامية نظام التبنى الذى كان عند الجاهلية ، وأخذت به بعض البلاد الغربية الآن لفقدان أسرة الدم والعرق . كما رفض الانتسـاب لغير الأب تمكينا للروابط الطبيعية من أن تسود .

والنقلة التى حدثت بالهجرة من الأسرة الطبيعية الى أخوة الدين وحدها ثم الرجوع عنها الى الأسرة الطبيعية وأخوة الدين معا — لأن الخارج عنها دينا لا يرث منها — اثبات لمكان الأسرة الطبيعية التى تقوى بالاخاء الدينى ثم بوحدة العيش ووحدة الأهداف والمنـافع . وهو ما أخذت به العصور

الاسلامية جميعها وما زالت تعتز به ، وما أظن فى قدرة أفكار طارئة أو أنظمة جديدة — حتى ولو أصبحت دروسا مشوقة فى الجامعات كما هو حادث الآن — أن تغير منه عند المسلمين ولو احتشدت فى العالم النظريات ، وهبت بها زوابع الانحلال .

الميراث والاقطاع :

واثبات حق الوراثة لأفراد الأسرة بالنظام الذى وضعه الاسلام لا يفقد القوة المكتسبة من الآباء ولا يفقد التاريخ نظامه ، فلا تحدث هزات دائمة تنافى السير الطبيعى الهادىء لأيام الحياة .

على أن عملية التوريث فى الاسلام كانت عملا هادئا آزر على تقسيم الارث الكبير وتفتيته ، وكأنه نقل من فرد الى جماعة من حيث لا يحرم فردا من جهوده من غير انحراف فى الأسباب التى تجمع له أو استغلال لجهود الآخرين ، والا فهناك عقوبات تحد من انطلاقه نحو غريزة الأثرة والاستغلال .

اذ تجميع الثروات يخل بسير المال ونظامه .. وهو نتيجة محتومه لاستيلاء غير الأكفاء على الثروات من وجوه غير مشروعة . ولسنا ننكر أنه حدث تجميع للأموال فى العصور الاسلامية كلها حتى عصر النبى — صلى الله عليه وسلم — ذاته ، ولكن العقوبات التى نزلت بأصحاب هذا التجميع — ومن النبى ذاته — كانت فوق ما يحتمله قلب مؤمن .

فقد طرد النبى — صلى الله عليه وسلم — ثعلبة بن حاطب الانصارى دون أن يقبل منه الزكاة لأنه هرب من المجتمع وانكفأ على تشمير ماله وانماء غنمه فى الوديان دون أن يلبى داعى الزكاة ، ثم طرده الصاحبان من بعد النبى — صلى الله عليه وسلم — وأبعداه من الاسهام فى البر لتلحقه المذمة ، ولولا أنه كان ممن حضر بدرا — كما قيل — لكان عقابه أكثر من الطرد والابعاد .

وعبد الرحمن بن عوف الذى هو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، سيدخل الجنة حبوا .. وهكذا أشار رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

وهى صورة مؤلمة للنفس حين تشتاق الوصول الى هدف مشوق محبوب ، وهى مؤلمة حتى لو رآها الانسان فى الأحلام .

وعبد الرحمن بن عوف ، لم يكتسب ماله الا من التجارة ، وقد رفع الله له شراع الرزق فيها ، ولـــكنها لما كانت مخلوطة الخير بالشر ، والحق بالشبهة ، فقد حسب الاسلام ربحه الوفير كأنه اثم ، فدخل الجنة حبوا .

ولم يزل هذا رأى الاسلام فى أرباح التجارة وتكديس الأمـــوال ، أما أدمغة علماء العـــالم كله ، فى شتى عصـــوره ، فقد انصرفت الى الحيل الحسابية فى تكبير الأرباح وتضخيمها وارتفع هذا الرأى من أسواق التجارة الى نظريات تدرس ودروس تلقى فى شتى دروس الاقتصاد والقانون ، وهو الرزء الداهم الذى تفاداه الاسلام .

ولم يكن الأمر عند الاسلام فى مال التجارة غيره فى الأرض والابل ، بل كما كان فى القرى كان فى البادية : وقيس بن عاصم ، سيد أهل الوبر ، حين سأل عن المال الذى ليس عليه فيه تبعة من طالب ولا ضيف ، قال له ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ :

« نعم المال أربعون ، والكثر ستون ، وويل لأصحاب المئين ، الا من أعطى الكريمة ومنح الغزيرة ونحر السمينة ، فأكل وأطعم القانع والمعتر ».

واقطاع الأرض لبعض المسلمين .. ألم يـــكن خطوة فى ســـبيل خلق الطبقات ؟

الحق ان هناك اضطرابا كبيرا فى التفاصيل التى تذكر ابتداء تمليك الاسلام أرضا لبعض الناس ، ولكن ثبت مع هذا الاضطراب أنه أقطـــع الأرض فى بدئه ، ولكن لأسباب تعود الى الأرض المهملة باخصابها باليد العاملة كى تعود على المجتمع أو على فريق منه بســـد حاجاته الطارئة أو الدائمة .

وكان هذا الاقطاع يزول أحيانا بزوال أسبابه اذا لم يظل سادا لحاجات من كان من أجلهم هذا الاقطاع : « فابن سندر » الذى أقطع « منية الأصبغ »

من عمرو بن العاص برضا عمر بن الخطاب ، ردت على بيت المال بعد موته ، بل أخذ منه الزائد عن حاجته فى حياته . « وعين أبى نيزر » التى استنبط ماءها على بن أبى طالب وأحياها وأوقفها على أبناء السبيل ظلت مع أولاده لأن ريعها ظل ينفق فيما أوصى به على . وأرض الصوافى التى منحها عثمان بن عفان لمعاوية بن أبى سفيان بالشام كانت لسد حاجات الوفود التى تجىء معاوية من بلاد العرب وبلاد الروم وتنفق عليهم . وكذلك الأرض التى منحها فى المدينة مروان بن الحكم .. وهذا كله كان أشبه بدور الضيافة التى تقام اليوم للغرباء والمحتاجين لئلا يحس مسلم — وهو فى أرض اسلامية — أنه غريب .

ومن ثم لا يجوز أن يقال ان الاسلام حين أقطع الأرض قد عمل على ايجاد طبقة ، وانما رفع درجة أفراد يحسنون القيام على ما سلطوا عليه ، فاذا كان بعض الناس أو بعض العصور قد تحول عن الشرط وانحرف عن الأساس فليس العيب على الاسلام .

الدرجات والطبقات :

ولعل من الحق أن يقرر دائما ويكرر أن الاسلام لم يخلق طبقة وانما حافظ على السير الطبيعى الصالح لحركة الاقتصاد والمال وزاد فى أسباب الانتاج العائد على الجماعة بسد حاجاتها وحفظ كرامتها ، وكان الاسلام دائما يحذر خطر المال .

وخطر أمره لا يأتى من غريزة التملك كما يأتى من غريزة الاستئثار بالمنافع .. وعرف الاسلام ذلك فاندفع بقوة وفرض شرائع لا مثيل لها ليحد من الخضوع لغرائز الاستئثار .

وغريزة حب التملك فى الانسان كانت لأنها مظهر سيطرته واستخلافه، فليست أمرا عاطفيا وحسب ، وانما هى مطلوبة بالعقل أيضا لأن العقل فى نهاية نموه واتساع أدراكه كائن مسيطر . ولا جدال فى أن التملك مثبت لحقيقة الانسان وسيطرته ، لولا أن غريزة الاستئثار — وهى حب الانفراد بملكية الأشياء والانتفاع بها — تبتلع غريزة التملك اذا قويت فتحرم الغير

من الانتفاع بالأشياء المملوكة ، وربما تطورت الى ما هو أخطـر من ذلك فألغت الانتفاع بها جملة حتى لمن يملكها . وعمل هذه الغريزة يتمثل فى المال الذى يجمعه البخيل ثم يخزنه فلا يفيد به أحدا حتى نفسـه ، أو فى اللعبة التى يحبها الطفل ، يملكها ويتلذذ بها ، ثم هو يحطمها بلا حسـاب لأن أخاه أراد أن يشاركه فى اللعب بها . فغريزة الاستئثار عنـد البخيل والطفل نمت فحبست منفعة الملكية عن الغير وعن النفس ثم جنت عـلى الملكية فأزالتها .. ولذا أقر الاسلام الأولى ، وحارب الثانية ، لأن الأولى من الخير والثانية من الشر ، وهذا موطن صراع .. وواجب أن تقتحم العقبة فيه كما أوصى الاسلام .

تساوى الأجناس :

فى المقال السابق كانت الاشارة الى أن الاسلام قد ساوى المرأة بالرجل مع اختلاف الحقوق والواجبات ، كما ساوى بين الأجناس والأنواع .. ومن أقوال النبى :

« لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .. والناس سواسية كأسنان المشط .. وكلكم لآدم وآدم من تراب » ..

وكان نبى المسلمين يقرأ سطور الغيب ، ويعلم أن البلاد ستفتح وأن الشعوب ستسلم ، ثم كان لابد بعد صدق هذه النبوءة أن تحدث المساواة . فلم يختلف اثنان فى الاسلام بدمائهم ولا أموالهم ، وانما اختلفوا بأعمالهم ، فلم يكن الكافر كالمؤمن ، ولا الجاهل كالعالم ، ولم يكن المتخلف كالمجاهد ، ولا القاعد الوكول كالقائم المجد .

وقد رفع قدر الصبى على الكبار لو كان أقرأهم للقرآن أو أقدرهم على البيان ، كما قدم النبى عمرو بن سلمة على الناس فصلى بهم اماما وهو ابن ست أو سبع سنين ، وكما قدم عمر بن عبد العزيز صبيا من قـريش وجعله رئيس وفد الحجار حين قال لعمر : المرء بأصغريه قلبه ولسانه .

وبدعة العصور كلها من تفريق الناس والامم الى طبقات بدعة مذمومة وشرعة خبيثة ، وأخصها ما مس الألوان ، والاسلام يفتخر الى الأبد بأنه

لم يرق دم آدمى لأنه ملون ، بل ان هذا الملون لو كان من شأنه أن يرتفع الى مقام الامامة والحكم فان الطاعة تجب له على المسلمين .

والرسول الكريم الذى جاء بهذا الدين يقول عن سلمان الفارسى : « سلمان ابن الاسلام . وسلمان جلدة ما بين عينى » .. ومعنى هذا الكلام — كما قال الشريف الرضى — أن سلمان يتعرف بالاسلام كما يتعرف الناس بآبائهم وينتمون الى أجدادهم .. ومعناه أيضا أن الاسلام يدعم ظهر كل من لا ظهر له ، ويشد أزر كل من لا أزر له ، فهو فى مكان الحاضن والكافل والأب العامل .. وجلدة ما بين العينين كناية عن مكان الأنف الذى هو مكان العزة والقرب .. وليس شىء أقرب من الأنف الى الانسان .. وكذلك كل مسلم غير عربى هو من العرب المسلمين مثل سلمان .

وبروح هذه المساواة التى عرفت بتجربة الاسلام انتصر الاسلام ودخلت فيه شعوب شتى وما لبثت هذه الشعوب أن تطوعت لنصرته ومضت فى جيوشه مستجيبة له داعية بدعوته من غير جبر ولا تسخير .

ومن بقى على دينه وعاند فلم يدخل فى الاسلام قامت بينه وبين المسلمين عهود ومواثيق حافظ عليها الاسلام ووفى بها ليسود السلام .. ولكن لعل قائلا يقول : لماذا لم تدخل الشعوب جميعها فيه اذا كان يدعى أنه يصنع هذه المساواة ؟

والجواب أن الاسلام ذاته قرر أن الناس مخلوقون للاختلاف والرحمة معا فى قوله تعالى : « و لايزالون مختلفين الا من رحم ربك » .. فكأن الرحمة ستظل منصوبة لكل من زال عن موقفه فى الاختلاف بقبول الدعوة التى يجب ان لا ينام عنها المسلمون الذين افترض فيهم الاسلام أنهم خير أمة أخرجت للناس .. ثم علل لذلك بأنهم يدعون للخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وهذا الكلام مع دقته يصرخ مدويا فى آذان المسلمين بأن عليهم ألا يقعدوا عن بث دعوة الاسلام والا فقدوا ميزة الخير فى أنهم خير أمةأخرجت للناس .

على أن بقاء الاختلاف فى الكون أمر لابد منه كما أن بقاء طيوف الرحمة لابد منه أيضا حتى تظل حركة الايمان فعالة فى الكفر .. وتظل الحياة بجانبيها من خير وشر ذات تقلب وبهجة الى أن تخمد وتنتهى .

والاسلام خير فى ذاته ولو لم يتبعه أحد ، كالحديد لا يفقد صلابته مهما كسا وجهه الصدأ ، وكالذهب لا يزال ثمينا مهما كان فى مناجمه بعيدا غائصا لم تنله يد الانسان بالاستخراج والصياغة ، وانما على أهل الصنعة أن يجلوا صدأ الحديد ، وعلى المستنبطين أن يذهبوا وراء الذهب فى كل قرار ..

وهكذا لا يفقد الانسان جدته — فى أفراده ومجموعه — فى نظر الاسلام ، وليس عنده انسان قديم وآخر جديد . والمجتمع المترابط القوى جديد فى نظره حتى لو تقدم به الزمن . والمجتمع المفكك المنحل ميت قديم فى نظره ولو تأخر به الزمن . ولم تغير الآلة والمصنع الكبير فى نظر الاسلام من أوضاع المجتمع فى مجموعها وترابطها ، وانما تكون السعادة بنفس الطرق التى رسمها الاسلام لبناء مجتمع من العدالة وتسخير العقل واخماد المطامع واعلاء شأن الانسان .

العلم والعمل

مرتبة الايمـــان • كيان العقل • دائرة العلم • العلم والعمل • قوة الاســـتنباط • النجوم والخرافات •

مرتبة الايمان :

كان أمرا ضروريا لانتظام الناس فى سلك عقيدة موحدة ومساواة عادلة أن تتقدم مرتبة الايمان فيطلب اليهم قبل كل شيء أن يؤمنوا ، ولو ترك للعقل والعلم ما وكل للايمان لما استطاعا أن ينظما الناس فى سلك واحد، اذ كما يقع الاختلاف بين العالم والجاهل يقع بين العالم والعالم فلا يمكن جمع العلماء على نظريات علمية يختلفون فى ادراكها الا اذا أصبحت عندهم من البداءة — أى فى درجة الايمان — ولكن العقيدة فى امكانها أن تجمع بين المختلفين مهما اتسعت مسافات الاختلاف بينهم ، ولا سيما اذا كانت سهلة ميسرة كالعقيدة الاسلامية التى بدأت بالتوحيد .

وفى الامكان أن تكون مسئولية الجميع متساوية أمام العقيدة من حيث تختلف المسئولية ولا يمكن أن تتساوى أمام العلم والعمل ، لأن ادراكات العقل متفاوتة بنسب الذكاء وما يدرك من مسائل العلم ، ودرجات العمل متفاوتة بحسب الذكاء والفكر والقوى المبذولة . أما العقيدة فلا تحتاج الى جهد من عمل أو موفور من عقل وذكاء ، بل يكفى فيها صحته وسلامته من الآفة ، ولذلك بدء بها لامكان التساوى فيها بين من يعرف الدليل ومن لا يستطيع أن يتهجى حروف الاستدلال .

وقد بدأ الاسلام بالايمان وجعله الغرض الأول ليكون حصنا يحمى الحضارة التى تبنيها العقول والجهود من أن تتسلط عليها معاول الهدم التى هى الأدوات الدائمة فى يد الكفر والالحاد . وليس بدعا ما بدأ به الاسلام ، فكل شريعة منظمة تفرض الايمان بها أول ما تفرض ثم تطلق الأيدى والأفكار فى داخل نظامها ، فاذا جاوزت هذا النطاق وتعدت حدوده عدت هدما وتدميرا .

ولا يحتاج ادراك هذه الحقائق الى ذكاء . أما من يطلبون أن يعمل العقل أولا ليدرك من نفسه وجه الايمان فأولئك دعاة السير فى الظلام ، وفى الظلام لا يهتدى الى حق ولا باطل ، وهى منزلة أشد خطرا على الانسان من انعدام الايمان .

ولئلا يحس العقل نفسه وحيدا فى وحشة الدنيا مضطربا فى استبانة الطريق عجل له الاسلام فلقنه الايمان ليثبته اذا اضطرب ويؤنسه اذا استوحش ثم يدفعه ليرى فى ضوء ساطع ونور واضح . والقلب لا يندفع الى حركة عادلة الا اذا هدأ ولا يتناول الأفكار والأعمال تناولا قاصدا الا اذا اطمأن ، ولن يكون ذلك من غير أن يشتعل مصباح ايمانه ليضيء لحريته أن تنطلق . والايمان — مع أنه فى منزلة البديهة اذ هو استجابة للشعور بالقوى الجبارة الخفية التى تسير الكون كله — فانه هيوب — كما قال الرسول الأكرم — يمنع صاحبه أن يقدم على الآثام والذنوب اقدام المرتكس الضال .

والحقيقة الأولى التى هى الاله الأوحد الذى ليس كمثله شيء نادى الاسلام أن يستيقظ لها العقل ويتنبه . وكانت دعوة مناسبة لجوهر العقل ذاته ، اذ كل ما انحط تحت الحواس فأدركته صورة من المادة ، أو توهمه الخيال صورة منسوجة الخيوط منها ، أو قعد عن ادراكه الجهل فأطلق لغريزة العناد أن تقابله بالجحود والنكران — كل ذلك حمى الاسلام منه العقل وناداه أن يعبد غير المحدود ، فاذا عبد العقل غير الذات المبرأة عن الحدود فقد أنكر ذاته أو تدهور اما الى دركات الحواس واما الى ظلمات الجهل والخيال .

ومن المسلم به أن عقول النابهين قد استيقظت من قبل الاسلام وبعده، وفى شتى مطارح الأرض ، متأثرة بتيارات ظاهرة أو خفية من دعوات الأنبياء ، وجهدت جهدها لتدرك الذات المبرأة عن الحدود ولكنها شقيت دون الوصول ، لأن ادراك هذه الذات فوق مقدور العقل ، ولأنه هو ذاته محدود فكيف يدرك غير المحدود .

وحين سبق الاسلام بمرتبة الدعوة الى الايمان وعبادة الاله الواحد المنزه عن الشبيه — وهى أعلى مراتب الفكرة الدينية التى تدرجت من الوثنية الى الشرك الى التوحيد — ترك للعقول أن تتقلب فى حدود مقدرتها لتصنع الدليل ، وهى رحمة بالعقول ودفع للثقة بما تصنع ، فقد حرضها على على أن ترى الغائب من الشاهد والصانع من الصنعة والوحدانية من اتساق

النظام وتناقضه فى الكون المخلوق ، واذا لم يفعل العقل ذلك جهل ذاته وجوهره ، ومهما اعتورته فى استدلالاته شكوك وريب واعترضته مشاق وجهود فعليه أن يجرى فى مجراه حتى يأتى اليوم الذى يكون علمه بالله تعالى فيه علم اضطرار غير مشوب بكلفة ولا معقود بمشقة . ولن يكون ذلك الا فى الدار الآخرة كما ورد فى كثير من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

كيان العقل :

ولم يخرج شيء قط من هذه الكائنات المخلوقة عن نظام التآلف والتناقض حتى العقل لأنه من واقع الكائنات ، وانما هو يمتاز عنها بالقدرة على الالتفات والسيطرة ، ولما كان من الموجود الواقع فقد جاز عليه أن يتناقض مع نفسه وأن يخطيء فى الالتفات والحكم والسيطرة ، وهو ذلك اذا التفت وحكم لم يكن حكمه حلا حاسما على الدوام ولم يأمن أن يخطيء الا اذا أدرك آخر الأطوار ، لأنه كما يتعثر يتطور أيضا مثل تطور الكائنات .

وبسبب ذلك كله كان الحل المدعى أنه من خارج هذا الكون المتآلف المتناقض حلا مقبول النظر أكثر من قبول حلول العقل . ولأنه حل موضوعى شامل لكل هذا الكون بما فيه العقل ، أما الحلول العقلية فحلول ذاتية ، وهى أشبه بحلول العاطفة فى مجموع قوى الانسان .

فدعوى الرسل أنهم مبعوثو السماء ودعوى الدين الاسلامى من بينها أن قضاياه لحل واقع هذا العالم ومتناقضاته سماوية أقوى وأشمل من كل حل عقلى ، لأن أحكام هذه الدعوى مصحوبة بأنها صادرة عن خالق الكائنات والعقول .

والمعجزات التى حدثت وخوارق الطبيعة التى تحدث — مع فرق ما بينها من مرافقة الأولى لدعاوى الأنبياء — لا تستطيع العقول ادراك أسرارها ولا دفع وقوعها مهما سيطرت على الطبيعة ، وهذا يفيد أن العقل مدرك منفعل أكثر منه خالقا وفاعلا ، وحيث تقهره المعجزة وخارقة الطبيعة فان من البديهة أن يكون عاجزا عن أن ينظم للطبيعة كلها حلولا .

انه من الممكن أن يعرف العقل الخصائص لا أن يخلقها ، وقد يدرك بعض الأمور بالأحاسيس التى لا يتدخل فيها العقل ، وانما العقل احساس فى حالة من التنبه والمقدرة على فعل أربطة الادراك فهو متساو فى الأصل مع غيره من الأحاسيس ، وزائد عنها بالتنبه المستمر . ولكنه مع هذا لايمكن تأليهه ولا الرضا بكل ما يحكم . وليس يحط ذلك من قيمة العقل بل سيظل قوة منفردة بالتنبه والقدرة ، وكذلك لن يفقد قيمته كميزان تعرض عليه الأشياء لتقدر وتقوم ، ومثله فى ذلك مثل ميزان من حديد ومعدن ، فهو أيضا حديد ومعدن ، ولكنه ينفرد وحده بهذه الكيفية لأن يكون صالحا لوزن الأشياء حتى الحديد والمعدن نفسيهما اللذين أخذ الميزان منهما .

والمذاهب التى أنكرت أن يكون الاله غير العقل لم يمنعها ذلك من الاقرار بعجز معبودها البشرى عن أن يبلـغ الى جميع مظاهر الأشـياء واسرارها دفعة واحدة ، بل حتمت عليه — فى معظم الأحيان — أن يحطم الأشياء بالتحليل ليتسنى له فهمها ، اذ ليس فى مقدرة عقل أن يكون محيط العلم ، وهو الوصف الذى افترضه الاسلام فى ذات الله .

ومن المذاهب ما اعترف بأن العقل يولد بادىء الأمر ثم يكون فى شىء من الغموض والوهن والعجز حتى يشتد أسره ويتوثق تركيبه فيثبت أركانه ويوسع دائرة نفوذه ويعبر عن ذاته بوضوح وجلاء ، ثم تأتى مرحلة السيطرة العقلية وهى المرحلة النهائية . وحين يخطىء العقل فى تقديره ويتناقض وهو ينمو رؤى أن يعترف بوجود المتناقضات فى أصول الأشياء لئلا ينسب اليه الخطأ والتناقض ، وهو أمر ظاهر الاحتيال لتبرئة العقل من أنه يخطىء ، ولكن وصفه فى المرحلة النهائية عندهم يظل مبتورا ، اذ من يضمن لهذا العقل أن سـيطر فى مرحلته الأخيرة بلا خطأ . ومن ذا الذى يحدد هـذه المرحلة النهائية . ومتى وما صفاتها ؟

واذا كان العقل هكذا عرضا محمولا عاجزا مظنون الوقوع فى الخطأ فى ادراك الواقع الذى هو تحت حسه ومشاهدته كان أولى أن لايتعلق بما وراء المادة وان كان لا يستطيع أن ينكره لأن فى مقـدوره أن يصل اليه بالاستدلال .

ولقد ادعى الاسلام بأنه لن تجيء بعده دعوة سماوية أخرى ولا بعد رسوله رسول ، وفى هذا أقوى شهادة بأن العقل الانسانى قد تنبه بالانذارات المتتابعة من السماء واستقرت لديه فكرة الألوهية والخليقة حتى لم يعد فى حاجة الى نذير جديد .

وفيه شهادة قاطعة برقى العقل البشرى العام حتى صار فى مقدوره أن يبحث عن الحقيقة من غير تعثر ولا خطأ . وصار على هذا العقل مؤمنه ومنكره أن يجد فى ختام الرسالات تناسبا بينه وبين ذواتها التى بلغت غاية رقيها فيشهد بصدق هذا الختام ، لأنه وقف بالعقلين المقبل المؤمن والمتردد المنكر عند الحدود التى يجب أن ينطلق فيها العقل وحده باحثا وراء الدليل .

دائرة العمل :

كل ما كان داخل دائرة الايمان من جميع ما يشار اليه بعقل أو حس فانه فى دائرة العلم الذى هو ادراك صور الموجودات مجردة وحسية مجملة ومفصلة بحالة مستمرة فى المحسوس والمعقول ، وذلك كله فى غير ذات الله التى يتمثل فى وصفها ما جاءت به الشريعة من وصفه بأعظم الصفات التى تتعارفها نحن البشر ، لأنه لا سبيل لنا الى غير ما نعرفه فيما بيننا ، ولاطريق لنا الى ما يستحقه — عز وجل — فى ذاته .

وهكذا كل علم يحيط بالكائن يحث عليه الاسلام أو يبيح الدخول الى حقيقته وسره ، والأمر أكثر من احصاء الفارابى أو ابن حزم ، كما أنه لا يحتاج الى حيرة ولا الى استصدار فتوى ، والقاعدة الصحيحة أنه لا ممنوع من أن يسلط عليه العقل والبحث فى السموات والأرض الا ذات الله وما جاءت به السمعيات أما عدا ذلك حتى الشد فى بطون الأحوات والنفوذ فى أقطار السموات فبابه مفتوح وليس عليه حارس لكل من اقتدر بالعلم على الولوج لأنه من ادراك صور الموجودات ، وادراكها كمال للانسانية فى ذات الانسان الذى امتاز عن غيره بقوته الناطقة التى تعلم بها حقائق الأسماء .

وقد قرر الاسلام أن تقلب الحياة وتغيرها يرى فى صور الأجزاء ولا يرى فى الكل لأن الكل يرى ثابتا . أما التحول فيكون فى المظاهر دون أن يخرج الكون عن حدوده التى خلق فيها ، سنة الله ولن تجد لسنته تبديلا .

فحين ادعى الاسلام أنه الدين النهائى لهذا العالم كله مس الكليات فوضع لها قوانين وأحكاما ، ثم ترك للمظاهر والأشكال أن تتحرك وتأخذ جوانبها ، بحيث لا تخرج عن دائرة الكليات ، وفى هذا سر ابتعاد القرآن عن الخوض فى تفاصيل العلوم والفنون وانما أصدر أحكاما كلية حتىتكون أسسا ثابتةواسعة من غير أن يمتنع على الأجزاء أن تتحرك فى داخلهامسايرة لحقائق الكون التى تحيط بنا . وتكاد هذه الأحكام تنطبق على كل أحكام العقيدة والتعبد وأحكام الأخلاق والمعاملات والمسئوليات .

فالكون — مثلا — حادث فى نظر الاسلام . ذلك حكم كلى .ومظاهر الحدوث من تغير النظام فى جزئياته من موت وحياة لا يشاهد فى الكل الذى يظهر كأنه فى حالة دائمة ثابتة بينما تتغير الأجزاء دالة على صدق الحكم العام بحدوث الكون ، دلالة الجزء على الكل ، مهما بدا الكل غير متقلب ، وهو حكم نهائى لا سبيل الى نقضه أبدا .

والصلاة على الوضع الذى توصف فيه بالاقامة جاء نهاية تطور فى أداء هذه العبادة ، فاشتراك البدن والجوارح مع الروح فى اقامتها كل . أما صور الاداء المناسبة من ضرورة وقوف الصحيح واباحة قعود المريض والضعيف ، وصلاة القصر فى السفر والحج والحرب ، والايماء عند العجز — فتلك صور تدور فى فلك ذلك الكل ولا تخرج عنه . وكل صلاة لا تشترك فيها الجوارح والروح تبطل ، أما اذا أقيمت خالصة فلن تعد ناقصة اذا كانت من قعود أو قصر أو ايماء .

والعدالة خلق فاضل وعمل فاضل كذلك ، وهى بهذا الوصف كل . أما تطبيقها على صور شتى بحيث لا تخرج صورة عن كونها من العدالة فذلك ما جاء به الاسلام ورضى به لأن صور الاداء انما هى دورة الأجزاء فى اطار الكل من غير أن تخرج عن محيطه وتجاوز حدوده .

والاشارة بقصر بلقيس صاحبة سليمان الى حقيقة علم كلية جاءت فيما بعد أجزاء فى نقل الأصوات أو نقل الصور أو نقل الأجسام فى سرعة مذهلة لم يخالف بها القرآن طريقته فى المصارحة بالكليات وعلى الزمن أن يفصلها أجزاء لتوافق الحقائق العلمية ما جاء به القرآن .

وهذا وغيره من الأمثلة — مع أنه مسايرة من الاسلام للفطرة وحقيقة الكون من ثبات الكل وتغير الأجزاء — هو جنوح من الاسلام نحو الكمال دون نظر الى ما يتغير من المظاهر والأشكال ، بل ان هذا التغير فى الجزئيات والأشكال حسب الظروف والأحوال هو نواة الاجتهاد ومدار حرية الرأى واباحة الاختلاف فى صور التفكير والاداء .

وأولى العلم بالتقديم فى الاسلام علم المشاهدات لأن الانسان اذا لم يعلم المشاهدات لم يصح أن يعلم شيئا غيرها من المعلومات . وقد استعلى جعفر بن محمد على أبى حنيفة — فيما يقال — حين سأله عن الحكم فى كسر ثنى الظبى فى الحرم — والظبى ليس له ثنى — ولم يكن أبو حنيفة يعلم ذلك فعتب عليه جعفر واستغرب كيف أنه لا يدرى أن الظبى ليس له ثنى . وهو علم المشاهدات الذى تبنى عليه الأحكام .

العلم والعمل :

والعلم — كما بيناه — انما هو أثر الفكرة أو هو الفكرة ذاتها ، وهى فى حقيقتها أمر خفى مستور ، وحتى تظهر وجب أن تنتقل الى حياة أخرى هى العمل . واللغة العربية — التى أكد القرآن فى غير موضع أن نزوله بها كان فوزا ومجدا — دلت بفطرتها العبقرية على هذا القرب بين استتار الفكرة وبروزها وبين كونها خاطرا خفيا وأثرا ظاهرا ، فكانت الحروف هى الحروف مع تبدل فى الوضع والترتيب .

وما لم تتبدل حروف الكلمة — التى هى العين واللام والميم — من ترتيب الى ترتيب آخر تكون اللام العاملة بقوة فى اللغة ختاما للكلمة مكان الميم التى هى حرف أصم مكتوم كما هو فى ظاهر اللفظين فان الفكرة تظل جنينا مخبوءا لا يعرف ومستورا لا يكشف .

والعمل بالنسبة للعلم عملية ابراز للموجود ، وهــو الدليل الحسى الذى لا ينكر على أن فكرة قد تحركت فوجدت ثم صارت كائنا ، وهــو أيضا دليل على مقدرة فاعل قادر . وهذا الكون المخلوق والذى نحن من أجزائه انما هو عمل يدل على أنه كان فكرة ، كما يدل على قدرة خالق أوجده ليمثل فكرته ويدل عليه . ولو ظلت الفكرة مخبوءة لما كان عــلى الموجود دليل موجود .

لعله كلام دقيق يحتاج الى القاء البال واعادة القراءة لأن عليه معولا كبيرا فى الادراك الحقيقى لقيمة العمل . ومع أن الكتب المقدسة لم تهمل الدلالة عليه فان القرآن فاقها فى التنبيه الى قيمته بما لا يحصى من الكلمات والآيات والتنويهات .

ولما كان العمل دليل العــلم والفــكرة وفيه تتمثل القــدرة والعجز والاحسان والاساءة فقد جعله الاسلام العاتق الجرىء الذى يحمــل عليه العبء الخطير فى الثواب والعقاب ، لأنه هو الذى مثل فكرة العلم والعالم معا وحمل الدليل عليهما فكان هذا جزاؤه وهو جزاء عادل .

وقد قدر الاسلام العمل مهما كان مقامه حتى فى الاحتطاب والقمامة، وكانت « أم محجن » تخدم مسجد الرسول فتخرج منه كناسته ، وظلت كذلك ثم غابت فلفت غيابها نظر النبى فسأل عنها فقالوا : ماتت ، فقال : أفلا كنتم آذنتمونى . فكأنهمصغروا أمرها فلم يخبروه بموتهــا يوم ماتت ، فقال : دلونى على قبرها ، فدلوه فذهب عليه الصــلاة والسلام اليه وصلى عليها .

والأعمال فى الاسلام — دنيوية وأخروية — تتفاضل ويترتب عليهــا التفاضل فى الأجور — وقد عطفنا على هذا الأمر بالقول فيما سقناه من قبل وكررناه بحيث لم يعد فى حاجة الى توسعة وتفصيل — غير أننا نشير الى أن من الأعمال ما هو سلب ومنها ما هو ايجاب ، فهجرة ما حرم الله والانتهاء عنه كتأدية ما أحله والاقبال عليه ، كلاهما له فضل وكلاهما له أجر .

وكأن الاسلام لم يكرم العمل اذا كان خلوا من الاتقان ، لأن الاتقان تتضافر فيه قوى البدن وقوى الروح ، والاتقان مظهر من مظاهر الاخلاص

والاهتمام واعمال الفكر والانطباع على الصبر وحسن النظر ، وطالما حث الحديث والأئمة على الاتقان ولقيت القولة الكريمة « ان الله يحب اذا عمل أحدكم العمل أن يتقنه » — لقيت فى كل عصور المسلمين تقديرا من العلماء حيث عدوها من جوامع الكلم وفواصل الأحكام .

قوة الاستنباط :

كانت المرة الثانية والاخيرة التى لقى فيها الوحى المحيط بالعلم بشرا أميا يعلمه ما لم يكن يعلم . المرة الأولى حين لقى آدم أبا البشر يعلمه الأسماء وحقائق الأشياء وينطق بها بما ذخر فيه من قوة النطق . أما هذه المرة فقد لقى محمدا خاتم الرسل يعلمه أن يتخذ القلم رسالة النهاية ، وذلك ليسير خبر السماء سيرته الصادقة فى تعليم العلوم التى بدأ بها منذ خلق آدم الى أن ينتهى ، وكانت أولا فى السماع والتلقى ثم كانت آخرا فى البحث والترقى .

حقا ان القوة المدخرة فى القلم بلغها الانسان قبل الرسالة المحمدية كما أن قوة النطق خلقت فى آدم قبل تلقى المعرفة ، ولكن الأمر فى الغاية التى قررت قيمة القلم فى تقرير العلم وتثبيته ، فكأنها غاية يجب أن يعلم منها أنه لم تعد اداة غيرها لتدوين العلم يبلغها الانسان ، كما بدأت قوة النطق مخلوقة فى آدم وكانت غايتها أن يتلقى المعرفة والأسماء . ولعل فى هذا للناظر الفهم معنى من معانى الختام الذى جاءت به رسالة الاسلام .

والقرآن ذاته يحمل فى سطوره وكلماته ما يثير الفكر ويطلب الحلول. انه ليس كتابا يبسط للبلداء ، وليس حدودا لمعلومات يقف عند شواطئها الحفاظ والقراء ، ولكنه جاء بمعضلات تحتاج الى أسطع العقول ضوءا وتوهجا ، ومع ذلك فقد تقف دونه عاجزة متحيرة .

وليس يريد القرآن أن تجمد العقول اذا عجزت ، ولكنه يدعو مدى الدهر عقولا أخرى وأذهانا أقوى ليظل دائم الاثارة طلابا للحلول ويظل جديدا باقيا ، محفوظا أن يزول ما دام ، حتى آخر الأبد يثير الافهام . ولعل هذا من أدق المعانى فى قوله تعالى « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون »

فمدى العلم الذى يرضاه الاسلام حفظه والاستبحار فيه وفهم مسائله فهما دقيقا بعد تسليط البصيرة عليه . والاكتفاء بالرواية دون الدراية منزلة من أدون منازل العلماء فى الاسلام . وقد كره الرسول أن يتوسد الرجل القرآن ولا يتلوه حق تلاوته . ونوه بالقلوب التى هى أوعى من غيرها . وبين على بن أبى طالب استعراض الغافل للخيبة مهما حمل من العلم اذا حمله من غير بصيرة فى قوله — رضى الله عنه — : رب حامل حق لابصيرة له ينقدح الشك فى قلبه لأول عارض من شبهة .

وقوة الاستنباط ميزة فرد عن فرد وأمة عن أمة ، والاسلام أول دين عنى بهذه القوة عناية لا حد لها فوصلت بعقول علمائه الى حقائق ومعان لم تكن مكشوفة لأنه طلب اليها أن تتعدى النصوص المنقولة التى تنتهى حدودها واعدادها الى المعانى التى لا حد لها ولا عدد ، واهمالها تضييع لها، وهو اضاعة للحكمة من الحياة الانسانية كلها .

وجوامع الكلم من الحديث كانت كالقرآن منابع للاستنباط ، وقد كان لحديث النبى دور هائل لم يبلغه دور لحديث نبى ولا للأنبياء مجتمعين، وكانت دراسته باعثة لنشاط الأمة الاسلامة ونشاط عقولها سنين طويلة ، ثم لم يخمد الاشتعال بعد ، فلم يزل الحديث يريد مزيدا من الاستنباط لأنه من جوامع الكلم التى تحتاج مدى الدهر الى البحث والكشف وراء المجهول .

ومن الغريب أن يخمد فى الأمة الاسلامية ذكاؤها واستنباطها فتتلقى النصوص جامدة وتحفظها حروفا صماء . وكان من الكوارث أن هذا الجمود قد تقدس فكان حلقات متصلة فى سلسلة التقهقر فانصرفت الأفكار الى التهويل فى الخيال والتعقيد فى الألفاظ والمصطلحات ، وهو أمر طبيعى، لأنه كان عملية من عمليات التعويض للاستنباط المعطل المتروك .

النجوم والخرافات :

وحفاظا على كيان العقل وجوهر ذاته ، وتسديدا له ليسير فى طريق العلم النافع ، وللجهود أن تسلك طرق السلامة حارب الاسلام السحر

والتخرص والتنجيم والخرافات وأخرجها من دائرة العلم كله فلم يعدلقديمها ولا لما يحدث منها حقيقة عنده ولا قيمة .

لقد رأى الاسلام الاشتغال بأحكام النجوم ضربا من الباطل ، والأمر لا يخلو من أن تكون هذه القضايا حقا أو باطلا ، ولا سبيل الى رأى ثالث، فان كانت حقا وكان ارتباط حوادث الأرض بالنجوم صدقا فهى حال من الاضطرار لا يفيد فيها الاختيار شيئا ، فامتنع على العقل أن يخوض فيها اذ هى كالآجال لا سبيل الى معرفتها ولا الى رد أقدارها . وان كانت باطلا فأولى أن لا يشتغل أحد بها .

وليس القضاء بالنجوم علم برهان وانما هــو بالرصــد والتجارب ، ووقوع هيئة من الكواكب على حال فى السماء قد لا يتكرر الا بعد ألوف السنين ، فبطل أن يدرى حقيقة التجربة حى من الأحياء .

وأبطل الاســلام السحر ، وقد طمست معــالمه فلم تعد منه بقيــة فى الأرض . وكل المغالاة التى اقتحمتها العصور الاسلامية فى هذه الترهات يبرأ منها الاسلام ، وانما وفدت عليه هــذه الجوائح قصدا مرة لاضعاف النفوس وعفوا مرة لميل الناس فى عصور الجهل الى اعتناق آراء الجهال ظنا منها أنها ظفرت بمنجاة كما يظن أنه ظفر بالنجاة مقدم على الانتحار .

ان عداوة الاسلام للأخيلة الكاذبة والخرافات سافر شديد ، وعلاقات النجوم بالحوادث لقيت منه أول سهم نافذ فقــد كسفت الشمس يوم مات ابراهيم ابن النبى ومحا النبى مظنة الناس فى أن تكون كسفت من أجله ، ولم يكن الانصراف الى صلاة مثل صــلاة الخسوف والكسوف الا مظهرا من مظاهر تمجيد الله على بديــع خلقه وباهــر آياته ، وهــكذا فى تدمير الأعاصير وحدوث الزلازل وامساك السحاب .

ولقد نفى القرآن أن يكون من العلماء من قصروا علمهم على ظاهــر من الحياة الدنيا وغفلوا بعد ذلك عن مصير الكون . وقوله تعالى « ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » قوله هــذا يوجب الاستدلال من طريق التفــكير فى النفس

وخلق الكون أن تغييرا يوشك أن يطرأ فيتغير الـكون من حال الى حال وهو أقصى ما يبعث الهمة العقلية والروحية للبحث عن المصـير الذى لم يعرف أوانه وان كان قد تحقق حدوثه وامكانه .

واذا كان العلم الذى يرضاه الاسلام هو الذى يسمو بالعقيدةويسدد طريق العبادة ويقوم الخلق ويرقق الطباع ويرهف الملكات وينظم المعاملات ويحسن كل مقومات الحياة ، فان الايمان باليوم الآخر والبعث الحق هو العلم الحق والصفقة الرابحة التى تؤدى الى الفوز الخالد فى دار البقاء .

قضية الشعر

الشعر فى اللغة ــ الشعر العربى ــ رأى الدين ــ شعراء النبى ــ القول المذموم ــ بعض المقاييس ــ ميدان السباق .

الشعر فى اللغة :

الشعر قسيم النثر فى كل لغة ولا يستطاع بحال أن تفقد اللغة أحد شطريها أو تهمل أمره ، وهو يتأثر فى صوره ويتحول كما تتأثر اللغة وتتحول ضعفا وقوة ، وضيقا واتساعا ، وقبحا وجمالا ، وانما قد يسبق أحيانا فى ألفاظه وتصوراته وأخيلته ، ويتأخر أحيانا .

وطبقا لاستقبال النفوس للكلام وتأثرها به فان النفوس عند قراءته أو سماعه تنبسط له أو تنقبض حسبما يتجه لفظه ومعناه — مثل كل الكلام — غير أن موسيقاه وأوزانه وما فيه من وحى خفى — وهى الحلى الزائدة فيه عن النثر — تشعل التأثر النفسى أكثر مما يشعله النثر والقول المعتاد ، ومن هذه الناحية كان للشعر مكانه المكين وتأثيره الشديد .

وليس من شك فى أن قانون الاجتماع الذى وضعت أحكامه عادات الناس وفرضته مجتمعاتهم يبيح لجيده ومهذبه ونافعه أن يسترسل ويسير كما يشاء ، فتصغى له الأسماع وتتلقفه النفوس ليكون من مرددات الألسنة ومكنونات الصدور .

أما ماكان منه رديئا معطوبا أو فاسدا مفسدا فان قانون الاجتماع يقضى عليه بالطرد أو الموت ، أو يقضى عليه أن يسرى مختفيا يتناقله قائلوه بالهمس دون أن يعلن لأنه يناقض آداب الاجتماع ويعادى قانونه .

ولم يجاوز الشعر أن يخضع لهذا القانون سواء كان فنا لذاته أو فنا لغير ذاته ، ولن تجدى حيلة فى أن يستساغ من الشعر قبح أو فساد ، لأن قانون الاجتماع الذى يرفض الكلمة البذيئة ، والفعلة الذميمة ، والصورة النابية ، والحكاية الخليعة ، ويرفضها فى النثر يرفضها كذلك فى الشعر اذا اعوج طريقه وفسدت صوره وقبحت أساليبه .

وبعيد من المقبول أن يكون من حجة مثل هذا الشعر للبقاء والذيوع أنه عبر قرونا طويلة عاريا هجاء بذيئا ، أو أن عبوره هذه القرون منشأنه أن يقرر قبوله فى كل النفوس مادام لم ينكسر به جسر أو تغور به طريق ، لأنها حجة واهية ، وما من بد فى أن يحسب مثل هذا الشعر نوعا من أنواع

الجرائم التى شرعت لها عصى التأديب ، وما دام لم يسمح للجرائم أن تسبح عارية فى خضم الناس — مع استمرارهم فى ارتكابها — فكذلك لن يسمح قانون الاجتماع بأن يمضى الشعر على هواه مهما أغفلته المراقبة ، وأهملته عصى التأديب .

وهذا كله قول يمس الشعر من النواحى الخلقية والسياسية وآداب المجتمع وبنائه ، أما أن الشعر يظل قديما أو يتجدد ، وينطلق من القافية أو يتقيد ، وتنحسر بحاره أو تتمدد .. فانما هى أمور خارجة عن الكلمة التى أنا بصددها مما يتصل بحضارة الاسلام وحضارة المجتمعات التى تماثلها ، اذ من طبيعة اللغة — أى لغة — ألا تتخذ دائما طريقا واحدة فى التعبير الذى من شأنه أن يدل على أمة تكبر وتصغر ، وثقافات تتوحد وتتعدد ، وآراء تجتمع وتختلف ، فمن طبيعته أن تتعدد طرقه وتختلف مسالك أدائه ، وهى طبيعة عاتية جارفة التيار ، ولا سبيل الى مجابهة الطبيعة العاتية والتيارات الجارفة بأصوات الاشمئزاز ومط الشفاه .

الشعر العربى :

والشعر العربى الذى امتاز فى قيمته أول الأمة العربية عن النثر ثم تخلف عنه حين قوى النثر — بمعاضدة القرآن له — جرت عليه هذه الأقضية كلها . وما من ريب فى أنه — وهو يتكون — قد انتقل من بحر الى بحور ، ومن شكل الى أشكال حتى صار كائنا مظنون الكمال ، ثم ما لبث أن أحس بنقصه وضيقه فانطلق الى اتجاهات شتى من الرجز والموشح واللزوم والانطلاق ، ثم مضى فاتخذ من كل القيود والانطلاقات وسائل مختلفة فى التعبير تجرى أشكالا مختلفة باختلاف البيئات والعلوم والآمال — من غير نزوة الى التحكم — ووهبت طبيعة التقلب والتشكل لكل قائل أن يختار القالب الذى يصب شعره فيه .

ومع اتضاح فكرة الملحمة لدى العرب — بعد عصور الترجمة — وتطور الشعر فى الأندلس والمشرق تطورا واسع المدى ، امتنع على العرب أن يصنعوا الملاحم بمثل ما كانت عليه فى اليونانية — غير محاولات ضعيفة

فى عصرنا الأخير — وعوضت اللغة ذلك بخليط من النثر والشعر فى قصص البطولات والتخيلات .

فلما آن للغات كلها أن تطرد عنها صور الأخيلة والأساطير وربات الشعر — ولا سيما حين دوت فى أرجاء البلدان أصوات الآلات الضخمة التى تفزع الشعور — كان قد ثبت فى تاريخ المدنية أن مسلك الشعر العربى — حتى فى أشد صور الغلواء فى المدح والهجاء — كان مسلكا انسانيا يبغى خدمة المجتمع ويشيد بفضائله ، وكان أمس بحقائق البشرية أكثر من كل شعر ضرب فى متاهات الخيال .

ولم ينفرد نثر العربية الدارجة — حين صار فنا — بالتعبير وحده فى قصص البطولات بل استدعى قسيمه الشعر العامى فأعانه وحلى قصصه ورواياته . ثم جاوز الشعر العامى عمود الشعر الفصيح الذى اهتم لهالنقاد والعلماء يضعون أسسه وتقاويمه ، فالتزمه حينا ومال عنه حينا ، كيفمااتفق له أن يجد سهولة ولينا .

ولم تحدث ثورة قط فى تاريخ العرب أو المسلمين تنقم على الشعر الدارج ، وانما ألقى حبله على غاربه ينشد ويكتب ويتغنى به ، ثم يقوى ويضعف ويحلو ويمر . وما دام لم يخرج على قانون الاجتماع فقد أبيح له أن يحتل مكانه على مقاعد القصاص فى المقاهى والمنتديات . وقد عبر هو الآخر قرونا يؤدى شرف الخدمة ويعبر عن آلام المجتمع وأمانيه .

رأى الدين :

ولم ير الدين — ولا سيما دين الفطرة — أن يخالف الطبيعة التى جعلت الشعر أحد شطرى الكلام ، ولم ينكر الاسلام على الشعر العربى قوته التى كان قد بلغها حين جاء ، ولا أسلوبه الذى كان قد بلغ فيه أقصى ما يمكن أن يبلغه التعبير البشرى من رونق ودقة . ولو لم يكن قد بلغ هذه المنزلة ما جاءت بلاغة القرآن لتتحداه .

ولكن الاسلام — وقد حرص أن يسود قانون الاجتماع الشريف — أنكر على الشعر انخداعه بقوته وتأثيره ، وميله بسبب هذا الاغترار الى

التطرف والفساد ، وأنكر على الشعراء المتطرفين المفسدين أن يتخذوا الشعر مركبا لأهوائهم الجامحة يهيمون به فى كل واد ، أو يجعلوه كل أداتهم قولا بلا فعل ، وكذبا بغير صدق ، أو يتخذوه كل آنيتهم فراغا بلا امتلاء وخيالا من غير علم .

أما اذا لم يكن الشعر مراكب للأهواء ، فان الاسلام لم يتعرض له ولا لقائليه ، بل أذكى فيهم الحماسة له لأن من الطبيعة أن يوجد الشعر وأن يعيش ، ولأنه الكلمة ذاتها ، وهى الصفة التى كان بها الانسان انسانا ، فاذا لم تقل شعرا قيلت نثرا .

واستثناء النبى — صلى الله عليه وسلم — وحده من أن يكون مقدورا له أن يقول الشعر جبلة أو كسبا فى قوله تعالى « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » كان من مفهومه أن من طبائع الناس غير النبى أن يكون الشعر فى مقدورهم طبعا وكسبا ، خلقة وتعليما .

ولهذا لم تنطفىء شعلة الشعر العربى فى العصور الاسلامية — الا قليلا — ثم ارتفعت مشاعلها الى أعلى مما كانت عليه فى العصور الجاهلية . وحان للشعر فى كثير من الأحيان أن يعدو على قانون الاجتماع بحجة ما وهب من الحرية حينا وبنفس الصفات التى وصف القرآن بها الشعراء من أنهم يقولون ما لا يفعلون .. فمن حيث أراد بها القرآن ذمهم والنصح لهم بالعدول عن الشر الى الخير ، فقد جعلوها حجة لهم لئلا يعاقبوا اذا قالوا الشر وأقروا بالاثم ما داموا لم يفعلوه ، كما عفى عن الفرزدق الشاعر حين اتخذ فى دفاعه عن نفسه ما وصف الشاعر به فى القرآن .

وكذلك لم تثبت الأحكام الشرعية بالمجازات الشعرية — كما قال بعض الفقهاء — فتجاوزوا فى الاستغراق حد الصدق الى الكذب .. واسترسلوا فى القول حتى أخرجهم ذلك الى البدعة والمعصية ، وربما وقعوا فى الكفر من حيث لا يشعرون .

ومع أن بعضهم درأ فى بعض قضايا الشعر الحدود بالشبهات فان عمر بن الخطاب قضى بعزل النعمان بن عدى عامله على ميسان من أرض البصرة حين

أقر على نفسه فى شعره بما يوجب حد الخمر ، فلما استشفع لديه بقوله تعالى : « وأنهم يقولون ما لا يفعلون » قال له عمر : ان رفعت عنك الحد فانك لا تعمل لى عملا أبدا .

كما أنه كان من الممكن أن يفر أذكياء الشعراء من العقوبات لو وجبت عليهم بما تقلد به الشعر العربى من القدرة على التكنية ، فصار من المستطاع أن يتناول الشاعر أغراضه الذميمة من بعد ، وأن يذكر القبائح بكناياتها فينجو من المعاصى الظاهرة والحدود المفروضة ، وان كان الدين لا يعفو عما تعلق به قصده واتجه اليه أذاه . وقد أنذر القرآن الشعراء اذا أثموا كغيرهم من الآثمين بأن الحساب قائم مهما اغتفرت حيلة اللغة لهم أن يقولوا ، فالجزاء على النية المعقودة والأهداف المقصودة ، ويقول القرآن فى ذلك عقب وصفه الشعراء : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » ، وهو — فى نظر أهل الاستنباط — يعنى الشعراء وغيرهم من الظالمين .

أما ما عدا ذلك فقد استدعت علوم القرآن وتفسيره وتأويله شعر الجاهلية كله ، وشعر القبائل فى البادية عامة ليتخذ منه العلماء والمفسرون والمؤولون سندا للقرآن وحجة على المعاندين الذين أنكروا بعض ألفاظه وتراكيبه ، جرت بها العربية كما جرى . وكان الحق على الضد من ذلك ، فقد كان لفظ القرآن حجة على الشعراء وأسلوبه حجة على العلماء عند المصدقين المؤمنين .

شعراء النبى :

وحول النبى ودعوته قامت قيامة الشعر العربى ، فمدحه قوم دون آخرين ، غير أنه ما لبث كثير من المترددين والمعاندين أن صاروا بعد دخولهم فى الاسلام واستغفارهم عما فرط منهم أكثر التفافا حول النبى — صلى الله عليه وسلم — وأشد ثباتا فى المواقع والحروب .

وفى جهة مقابلة من استثناء النبى وحده من قول الشعر استثنى القرآن من الذم الشعراء المؤمنين والذين يعملون منهم الصالحات ، ووشيكا أصبح هؤلاء المستثنون هم كل الشعراء حين شمل الاسلام الجزيرة ، وقد عمل

النبى نفسه لشيوع هذا الاستثناء فسمع شعرا لعمه العباس بن عبد المطلب .. وقال للعباس وهو يمدحه « لا يفضض الله فاك » ثم استنشد أبا بكر أقوال قس بن ساعدة وشعره وكان النبى قد سمع له فى عكاظ وهو ناشئ يتفرج بالسوق ، ثم استنشد أبا عمرو بن الشريد أشعارا لأمية بن أبى الصلت . وكلما سكت ابن الشريد استزاده النبى قائلا له « هيه » ثم عقب على انشاده ذلك بقوله : « وكاد أمية بن أبى الصلت أن يسلم » .

وقالوا ان رسول الله — صلى الله عليه وسلم صعد منبره فى المدينة حين اجتمع واستسقى فما لبث أن جاء الأرض من المطر ماكاد يغرقها ، وجعلت السماء كلما سكبت غيثها ثنت بسماء أخرى تسكب وتغدق ، فأقبل أهل الضواحى فى الجمعة التالية يشكون الغرق ، فدعا رسول الله أن ينجاب السحاب عن المدينة وضواحيها فانجاب .. فلما رأى رسول الله ذلك ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال « لله در أبى طالب لو كان حيا لقرت عيناه . من الذى ينشدنا شعره ؟ » فقال على — رضى الله عنه — : يا رسول الله ، كأنك أردت قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

ثمال اليتامى عصمة للارامل

فقال رسول الله : « أجل » وجعل على ينشد كثيرا مما قاله .

وقد خلع النبى — صلى الله عليه وسلم — على كثير من الشعراء صفات مميزة من المدح البليغ ، فقال لعبد الله بن رواحة « أنت شاعر كريم » وقال لكعب بن مالك « أنت تحسن صفة الحرب » ثم أمره فى سفر صحبه فيه أن يحدو بالشعر وراء ناقته فحدا . وقال لحسان بن ثابت « قل والله يؤيدك بروح القدس » ، وقال لأكثر من واحد منهم « والذى نفسى بيده لهى أشد عليهم — يعنى أعداءه من المشركين — من رشق النبل » وقال فى الشعر عامة « ان من الشعر لحكمة » .

وقد وقع على لسان النبى قليل من الرجز فى بعض المواقع من غير أن يقصد له ، ثم قال — وهو على منبره — : « أصدق كلمة قالتها العرب قول لبيد : ألا كل شىء ما خلا الله باطل .

وفى جانب المخالفين فرض النبى العقوبة ، حتى أهدر دم الشاعر الذى يلج فى عدوانه ويغالى فى كفرانه ، ومن أجل الخوف والضياع جاءه كعب بن زهير راجفا معتذرا بعد اسلام أخيه بجير ، فعفا عنه النبى — صلى الله عليه وسلم — وعطل قول الوشاة الذين سعوا الى كعب بأنه مقتـول من النبى لا محالة ان هو هاجر اليه . وقد ألقى كعب بين يديه وفى مسجده قصـيدته « بانت سعاد » فخلع النبى عليه بردته الخاصة التى اعتز بها كعب وأبى أن يبيعها من معاوية بن أبى سفيان بعشرة آلاف درهم ، ثم باعها ورثته فصارت تحفظ فى خزائن أمراء المؤمنين حتى قيل ان ألسنة النيران التهمتها فى خزانة بغداد فى أثناء غزو المغول .

وهكذا سمع النبى فى مقدمة قصيدة كعب غزلا شعريا ، وسواء أصاب أبو العلاء المعرى أم أخطأ فى رسـالة الغفران بأن كلام حسـان بن ثابت فى قصيدته « عفت ذات الأصابع » كان غزلا وكان غيره من النقاد يقولون انه وصف للخمر — سواء كان هذا أو ذاك ، فقد سمع النبى ما قيل فى مقدمات القصائد من غير أن يكون لهذه المقدمات قصد الا التقليد .

ولقد كان اسلام كبار الشعراء واعترافهم بسلطان النبوة أمرا سياسيا هاما ، ولعل أكبرهم جميعا كان اثنان : هما لبيد والأعشى . أما الأعشى فانه لم يبلغ المدينة بعد أن قدم بين يديه فى طريقه للنبى قصيدة عصماء ، ولكن البائس مات دون أن يصل الى رؤية الرسول ، وأما لبيد فقد كان شاعر هوازن كلها ثم كان أحد الرؤساء فى وفدها الذى ذهب الى النبى فى المدينة وأعلن اسلامه واسلام قومه وانتظامهم فى الدعوة الجديدة ، ومع أن قصائد لبيد فى الجاهلية كانت تمتاز دائما بنفحة حنيفية فقد غلبت على شعره الجـديد مسحة الدين ثم أمسك عنه جملة اذ رأى الخير فى تركه الى القرآن .

وهؤلاء جميعا من الذين جاءوا ، أما من لم يجىء مسلما طائعا فلم تزل العقوبة واجبة عليه لاحقة به . وهؤلاء وأولئك كانوا فى الدائرة القريبة ، أما الدائرة الواسعة التى انتظمت كل الشعراء من أصحابه وخصـومه والذين تبعوهم من أولادهم فقد خمـد فيهـا الشعر خمـدة امتـدت طول عهـد

الراشدين واتجهت موضوعاته الى الجد الخالص والى معونة الدعوةالاسلامية فيما تبتغى من خير عميم .

القول المذموم :

والمصير الذى حكمت به اللغة ذاتها كان أقسى مصـــير آلت اليه ردة الشعر الأموى وأقوال فرسان الهجاء فيها ، فقد حكمت عليه بالموت الأبدى ، فقد صار ذلك الشعر كأجساد الموتى لا يقدر على أن ينبعث منها الى الحياة غير النزر اليسير .

ومثل هذه الردة الأموية فى الشعر والتى انتظمت نحوا من ثمانين شاعرا سعروا الأمة بهجائهم وأقوالهم كل ردة من الشعر يكون همها أن تبهت البرىء وتفسق التقى وتجبن الشجاع وتبتهر الأخوات والأمهات .

وانصراف الرجل الى الشـــعر الرذل والهيام وراء خيالاته واصـــطياد أساليبه بحيث يغرق حياته فيه ويفارق بحالته هذه عرف الناس أمر ذميم ، وأصح ما حكم به فى مثل هذه الحال قول رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير من أن يمتلىء شعرا » .

وبعض المتأولين أنكروا بهذا الحديث على الرجل أن يكون كل علمه شعرا ، وأن يكون صدره قد خلا من كل علم سواه . ويرون أنه اذا غلب الشعر وحده على الرجل دفعه الى كثرة اللغط والهذر والغيبة وقبيح القول

وفى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : « بينما نحن نسير مع رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ اذ عرض شاعر ينشد ، فقال صلى الله عليه وسلم « خذوا الشيطان ـــ أو أمسكوا الشيطان ـــ لأن يمتلىء جوف رجل قيحا خير له من أن يمتلىء شعرا » .

وكثير من الأئمة يقولون انمـــا فعل النبى هذا مع الشـــاعر لما علم من حاله ، فلعل هذا الشاعر كان ممن قد عرف من حاله أنه قد اتخذ الشـــعر مدعاة للفخر الكاذب أو طريقا للتكسب فيفرط فى المدح اذا أعطى وفى الهجو والذم اذا منع فيؤذى الناس فى أموالهم وأعراضهم . و لاخلاف فى أن من

كان على مثل هذه الحالة فكل ما يكتسبه بالحيلة والتخويف حرام ولا يحل الاصغاء اليه بل يجب الانكار عليه .

وقد عد بعض المتأولين للقرآن أن من الزور قول الشعر الذى توصف فيه المغريات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ، أو يثير كامنا من حب اللهو ، ولا سيما اذاقرن به شبابات وطارات ، قال القرطبى: مثلما يفعل اليوم فى هذا الزمان . وكأنما امتد زمان القرطبى الى كل الأزمان .

وأسوأ من كل ذلك وأقبح ما لو قلب الشعر قضايا المنطق الخلقى ودعا الى استحباب الانحراف واشعار النفوس كلها أنها مجبولة على الظلم والتعدى أو أغراها بالاجتراء على الشهوات كقول الشاعر « والظلم من شيم النفوس » وقول آخر « فما أطال النوم عمرا » فهو وان كان معنى شعريا لا يحتمل من النقد الا ما يليق بالصناعة فانه يفسد الرأى ويحبط المنطق ويظلم بهذه المغالطة مجارى الأنفاس فى الصدور .

ولم يذم القرآن الشعراء المذمومين بألذع من اقترانهم فى آياته بـكل أفاك أثيم تتنزل عليه الشياطين ، وذلك فى قوله تعالى :

« هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون والشعراء يتبعهم الغاوون .. »

حتى خيل لبعض المتأولين أنهم نوع من الشياطين أو هم اخوانهم لما غلب عليهم من الهوى والكذب والفجور .

بعض المقاييس :

ومن المحقق أن يسير خط بيانى يمثل الأدب — ومنه الشعر — وحال الأخلاق والسياسة والاجتماع لقوم من الأقوام فيعلو الخط ويرتفع حين تجد حياة القوم ويستقيمون ويبنـون وينتصرون ، وينخفض الخط ويهبط حين يلهون وينحرفون ويهدمون ويتقهقرون . وانه من اليسير على كل باحث أن يجد الموضوع الذى يشتاقه من العصر الذى يضاهيه : فالحماسـة فى عصر تملؤه الشجاعة ، والاحماض فى عصر يهدمه الفسوق والانحطاط .. والفكرة العميقة فى عصر يعمره العلم وتغمره المعرفة ، والسطحية فى عصر يتخلله الجهل والغباء .

وعلى هذا فكل أدب — ومنه الشعر — يمثل عصره ويشاكل حاله ، وفى عصر الاشتراكية وموطنها اذا لم ينبعث الشعر بأهدافها من بعث الجد والمحبة ودفع المطامع والأحقاد بحيث يكون له أقوى رنين فى النفوس فان التاريخ لن يترك لهذا الأدب فترة يعيشها الا بمقدار ما يملك من خناقه ويشد من وثاقه .

والأدب — ومعه الشعر — عليه عبء ثقيل فى نصر مبادىء الاشتراكية اذ مهما ظهر للمبدأ من أثر فى عناصر المدنية فانه لا يحدث أثره كله الا اذا دخل فى روح الجموع وحل فيها حلا مقبولا يحقق له الفوز ، على أن الأدب — ومعه الشعر — مسئولان عن تمييز اشتراكيتنا التى تنبعث قوتها من منابعنا ومن سيرها مع أصول ديننا ، وليست صورة مطلقة تثير صورامختلفة بحسب الجموع التى تنتمى اليها .

وليس من المستساغ — مثلا — أن يتمرغ أديب فى عصر الجد والاستعداد للحرب فى أدب الجنس ، فمثل هذا الشذوذ حرب على توثب الشباب وتوقد الأفكار ، وهو توهين للتأهب والاستعداد . وخليق بمثله أن يكون فى العهود التى طغى فيها المال المستغل حيث يتفق مع النهمة وانطلاق الشهوات .

وانه ليقر الأعين ويهدىء الأنفس أن نجد ناقدا صحفيا معاصرا ، فى احدى نقداته فى أيامنا هذه يقول :

ومن الواضح أن موجة الأدب الجنسى الطاغية التى اعتصرت العالم فى أجيال قريبة متلاحقة أخذت تخبو برد فعل عجيب يلاشى مثل هذا اللون من الأدب ويجعله دائما وفى أروع مظاهر انتاجه وعلى يد كبار أساتذته ذاتهم أدبا قابلا للبوار المستمر .

ميدان السباق :

وفيما عدا ذلك فحلبة السباق تستقبل جميع الجياد ، وفى مزدحم الحلبة يجتمع على الألفاظ والمعانى والأفكار كل من اقتدر أن يقدم للفكر الانسانى ما يستطيعه من سبق وابتكار .

على أنه لو قامت دعوى للمحافظين بضرورة المحافظة على عمود الشعر القديم وضرورة الابقاء على القافية فيه لوجب أن يكون أولى من هذه الدعوى أن يحافظ الشعر فى أية صورة من صوره على آداب الاجتماع .

أما الوقوف فى وجه التيارات الفكرية وآفاق الفنون والخواطر وتعدد الأساليب فما من شك فى أن اللغة التى تتسع لها ستعمل جاهدة دائبة على أن تضيف كل آن الى كل جيل من القدماء جيلا من المولدين يتعهدون فنونهم فيها بالتنمية والتجديد ، وليس من شك أيضا فى أنه مهما اختلفت أساليب المجددين ومهما تأتى لهم من البراعة فى الابتكار فان طبيعة القصيدة العربية سترفض أن يعيش فى الأزمنة المتطاولة غير الشعر الذى يساير قانون الاجتماع ، والذى لا تنعدم فيه رنات القافية الأليفة التى جادتها الحروف العربية بالسخاء وميزت بها بناء الشعر القديم .

وما دام لم يعد فى امكان المحاولات المعادية للاسلام اقصاء لغةالتنزيل عن التداول .. واقصاء أدبها عن التيار العالمى ، فان كل محاولة شعوبية لن تفلح ، ولا سيما فى الوسط العربى الذى ورث نسقا خاصا للكلام مستمدا من فكرته الداخلة ذاتها ، ولن يستطيع أبدا أن يكون له كلام منفصل عن طريقة تفكيره وصياغة أساليبه .

ويسعفنا بالاحتجاج لنا أحد مؤرخى الفرنجة فى نقد أبى نواس فيقول « بركلمان » فى تاريخ الشعوب الاسلامية : والواقع أن الاشارات البذيئة التى يحفل بها ديوانه فى تصريح حينا وفى تلميح حينا لتدل دلالة واضحة على ذوق سامعيه الوضيع . ولكن عصره لم يعدم فريقا آخر من الشعراء أخذوا بأسباب الجد وحاولوا أن يردعوا المجتمع المنغمس فى ملذاته عن ضلالته وشهواته .

فما لم يخرج الشعراء بالشعر الى مجاهرة الآداب والأخلاق بالعداء ، وما لم تحدث بينهم نزعة الى تمجيد الشعوبية على حساب العرب — كما حدث فى العصر العباسى — فان الباب مفتوح لكل مجدد وكل مبتكر مع كل قديم وكل مقلد مادام يضيف الى أفكار قومه فكرة والى أمجاد أمته مجدا .

مدارج السلوك

حركة الفضائل — التطرف الجاهلى — العجب والغرور — منة الاسلام — السمو والثبات — القدوة والمثل — ايقاظ الضمير .

حركة الفضائل :

الناس طوائف : فمنقادون الى ما يكره من الأخلاق ويجفى وليس الى تأديب هؤلاء غير القهر والتخويف . وميالون الى طريق الخير فاذا أرشدوا تدربوا وتعملوا وارتاضوا . ومتنبهون الى المقابح ينتهون عنها بجودة الفكر وقوة التمييز . أما المجبولون على الأخلاق الحميدة فهم فى الناس نادر قليل.

ومع اختلاف الناس الى هذه الطوائف فان فى فطرتهم جميعا ميلا الى الفضائل ونزعة اليها . والعقل يزيد هذا الميل ويقوى حركته ، وربما كان ذلك من قبل أن يحتاج الانسان الى شرع يهديه ، ولكنه يكون ميلا غير ثابت وغير أكيد ، وانما تأتى الشريعة بتأكيد دوافع العقل والفطرة الى حركة الفضائل بالتنبيه الى شرفها والتنويه بنفعها ، وتقترن هذه الحركة فى معظم الأحيان بحب الشكر وطلب الثناء والشهرة ، وقد يكون هذا القرين أيضا فى عداد الفضائل التى تنزع الفطرة اليها ، ولو لم يكن كذلك لما رغب الانسان فيه وسهر من أجله من غير أن تذم رغبته فيه .

غير أن الشريعة تخلع هذا الحب أحيانا أو تخفف من حدته وطغيانه لتصفى فطرة الانسان من شوائبها ، ومن ثم ظهرت تعاليم الأخلاق فى الرسالات أكثر من غيرها لأن الأنبياء جعلوا وعاظا لعلمهم برعاياهم . وأبوعمروالأوزاعى الامام يفصل هذا العلم النبوى بانه اسمان الهزيلة ورد الضالة وجبر الكسير

والأحكام التى صدرت من الاسلام فى قضايا الأخلاق هى من هذا العلم ، وتزيد قوة بأنها تمت فى حقل الواقع الانسانى بتحسس الأحداث الواقعة والاحتكاك بها واعتماد التجارب الاجتماعية والمعرفة التى بلغها العقل أو يبلغها .

وعلماء الفكر الاسلامى يقولون ان مطابقة هذه الأحكام لحركة الفضائل المنبثقة عن الفطر والعقول ينبثق منها دليل على أن الخالق سبحانه واحد . ولولا هذه الوحدانية لما تساوت هذه الحال بالناس فى أصل الخلقة ولا استجاب أحد للدعاة الذين دعوا اليها وحضوا عليها اذ لا يجدون فىأنفسهم شاهدا لها ومصدقا بها .

ومثل الايثار ومواصلة البر ومعونة المحتاج واللاجىء واغاثة الملهوف مع رجاء الثواب أو من غير انتظاره انما هى أخلاق شريفة وخصال محمودة. ومع أن الفطرة تدعو اليها والشرائع تؤكدها فانها ضرورية كذلك للتمدن والاجتماع ، وحين جعلها الاسلام أحكاما له مجزية بالثواب والأجر نظر الى قيمتها فى ترقية الاجتماع وتقوية بناء المدنية فساير الفطرة والضرورة لأنه ما من ذلك بد فى حياة الناس جبرا واختيارا .

التطرف الجاهلى :

وحركة الفضائل قد تخمد ولا تنتصر فى طبائع صنف من البشر أو أكثر اذا حرم التنبه اليها أو حرم من شريعة تهديه وترشده كما حدث للعرب فى جاهليتهم وكما يحدث لكل جيل يحرم رسالة أو ينحرف عنها أو تضعف هى عن أن تؤثر فيه .

والتطرف الجاهلى المدمر الذى بدد العرب أجيالا طويلة وجعلهم كيهود سيناء لا يعرفون شاطئا للتيه كان يساكنهم الجزيرة فى أثنائه نصارى ذوو دين متسامح ، ومع ذلك فلم يستطع التسامح المسيحى أن يجد طريقا الى قلوبهم ولا الى حياتهم . وكان يساكنهم كذلك يهود ، ولعل اليهود قد زادوا التطرف الجاهلى غطرسة واثما ، فلم تكسب الوثنية العربية من الدينيين المجاورين شيئا يردها الى الاعتدال ، وكأن وجودهما كان عبثا ، بل كان من جانب اليهود اتلافا لمعايش الناس وتأريثا لمطامعهم الى حد كبير .

وفى بضع وقائع بين عبس وذبيان فى لجة البادية — كما يعرف مؤرخو الأدب العربى — ظل هرم بن سنان وحارث بن عوف يدفعان بطنا بعد بطن من نتاج الابل فى ديات قتلى من القبليتين صرعوا لأمر تافه هو الخلاف على سباق كانت نتائجه مؤسفة وبيلة على الأموات والأحياء .

ولم يكن هذا الذى حدث فى هذا الجانب من الجزيرة الا مثلا صغيرا لما يحدث فى كل أرجائها ، ولم تغب الجاهلية عن الشعب العربى الا بعد أن تركته طحينا من حروب بين العرب والعرب لمجد كاذب ، أو بين العرب وغيرهم خدمة للغرباء .

والغريب المذهل أن مركب هذه الآثام الجاهلية كان متون الأخلاق : كانت الشجاعة وحماية الجار والدفاع عن الحمى واباء المذلة وأمثال هذه — كانت هى الفتائل التى أشعلت نار الحروب .. تماما تمـاما كما يفعل الذل واباحة الحمى واصطلام الجار والنذالة والعدوان .

لقد كانت فضـائل كالرذائل ومحاسن كالعيـوب لأنهـا لم تكن ذات اعتدال .. كانت شيئا زائدا عن حده ، ولم تستطع المسيحية ولا اليهودية أن تردا هذه الأخلاق الى الاعتدال ، وهما وان كانتا قد أثرتا أو أثرت الفطرة السليمة معهما فى بعض الأفراد ، فقد كانتا أضعف من أن تتغلغلا فى الجزيرة ؛ فظل جيل العرب وثنيا هشيما تعصف بها هوج الرياح .

وزادت كارثة التطرف فى مـكة فخضعت لنـوع من الجبـابرة أذلوا الضعفاء أولا ، ثم ما لبثوا أن ذلوا هم أيضا بتخيل الأصنام والأوثانوالنصب آلهة تعبد ، ولعلهم استصعبوا رحلة التجارة واستبعدوا مواقيت الربافنصبوا حبائل الاحتيال على عقول الناس وأموالهم بالركوع بين يدى الآلهة لتفتيهم فى الحظوظ ، ولم تكن الفتوى فيما يأتيهم به مستقبل الزمان ولكن فيمـا مضى ـــ والماضى لا يحتاج فى معرفته الى عراف — وانما كان من قـدرة الههم (هبل) المنصوب فى جوف الكعبة أن ينظر فى الماضى ويبدله كما شاء فيصطنع الآباء ويغير الانساب .

وحيث كانت العصبية تجتمع فى البادية على رأى وتمضى فيه من خير وشر لم تستطع العصبية فى مكة أن تجتمع حتى على دعوة الخير فانشقعليها ألصق الناس بالعصب وأدناهم منه قربى ، ولم تزل مكة كلهـا تبغى وتشتط فى البغى حتى اتفق كبراؤها على جناية القتل الجماعى الذى يتمثل فيه الجبن والنذالة حيث يختفى القاتل ويختبىء ويضيع دم القتيل هدرا .

وكذلك بدت الجاهلية فى مكة أشد عنفا ، وكانت البادية أولى بهـذه الشدة من الحاضرة ذات التجارة والاجتماع ، ولعل المال كان هو السوط الرهيب الذى جعل مكة هكذا فائزة فى السباق .

العجب والغرور :

وكانت بلوى الدنيا كلها من العجب والغرور ، بل كانا أصلا فى قضايا البشرية الأولى ، ولذا واجهتهما الأديان كلها بالتأديب والتحطيم ، حتى ان أديانا برمتها كانت الفكرة السائدة فيها قتل غرور الانسان .

ومنذ أرسل نوح أبو البشر الثانى فقد صرخ فى آذان قومه المستكبرين أن لا تزدرى أعينهم مظاهر الضعفاء قائلا « ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى أنفسهم » ليرد قيمة كل امرىء الى ما هو مطوى فى نفسه ، ويرد علمه الى الله ليعلم المرء أنه لامفر من أن يقر بما يجول فى نفسه لأنه مشهود للخلاق العليم .

ومصيبة العجب الفادحة التى بذل الأنبياء فى علاجها أشد نذير جعلت حياة الناس لا تطاق ، فالمجانين والسكارى والجهلاء والسفهاء هم — على ترتيب النظم — العقلاء والصاحون والعلماء والحكماء ، ولن يغيب عنك هذا المشهد فى أى طريق. ومن ثم نصبت الأديان الموازين ودوت فى القرآن أشد الصرخات فى آذان المعجبين والمغرورين ، ولا سيما أهل مكة الأولين ، وانه لا تكاد سورة من سور الانذار تخلو من النعى على عوارض العجب وسوانح التيه لأنها فى العدد الغالب والجم الغفير ، ولم يهمل الاسلام انتزاعها من الحاكم لئلا يظلم أو يتعالى عن استشارة النصحاء ، ومن المحكوم فلا يعصى ولا يتمرد ، فكان له ما شاء من القلوب والجهود ، ومن النصر والفتوح .

ومغابة العجب والغرور أنه ينشأ طفيليا بغير سبب من فضل أو علو . انه ينشأ سفها وجنونا ثم لا يبرأ . وليس عيبا يقصر شره على المعجب المغرور وانما هو يتعداه لاحتقاره غيره ، ويتمادى فيصيب الناس بالمهانة والأذى . وقد رأى حاتم بن عنوان الأصم الزاهد أصل المعصية فى الكبر والحرص والحسد ورأى أنه لا يخلق هذه الأصول فى النفس الا العجب والغرور ، فاذا تجردت منهما النفس انغرست فيها أصول الطاعة من الخوف والحب والرجاء .

وقد جهد الاسلام جهده للوقوف بالنفس دون العجب والغرور ،ورسم لذلك طريقين كلاهما خير وبر : فالأول ادراك عيب النفس وتقصير ثوب

خيلائها ثم الزامها طريقا سويا لتنظر فى خارجها الى الأمور ومقاديرها فيحدث منها العدل والقسط . والثانى طرح أمر النفس واهمالها — وهو الأمر الشاق المرير الذى فعله أهل التصوف من المسلمين — لتعرج النفس بهذا الطرح والاهمال فى معارج الكمال .

ولصوفية المسلمين فى تأديب أنفسهم بقتل عجبها وغرورها مجال يشوق النفوس ، وأستاذهم فى ذلك عمر بن الخطاب ، فقد رآه عروة بن الزبير وعلى عاتقه قربة ماء فقال له : يا أمير المؤمنين ما ينبغى لك هذا . فقال : لما أتانى الوفود سامعين مطيعين دخلت فى نفسى نخوة فأحببت أن أكسرها . ومضى بالقربة الى حجرة امرأة من الانصار فأفرغها فى انائها .

وقد كانت صوفية المسلمين طائفة من الفضلاء ذابوا شوقا الى الاستكثار من التواضع والصدق فيه عملا وقولا — والتواضع غير الضعة — بل كان منهم أفضل من الفضلاء : عرضوا أنفسهم للأذى واستجلبوه فارتقوا بذلك الى درجات الالهيين . والعصور الاسلامية كلها باهرة الضوء بأنوار أولئك القديسين .

منة الاسلام :

ولا يخطر ببال أحد أن مكة وحدها من بين الحاضرات القديمة كانت تنفرد بذلك البغى الجامح ، بل ربما سبقتها فى بغيها كل حاضرات الكون ، فان الانسان كان قد فقد ذاته وركب الجبابرة فيه رءوسهم وساقوا الناس فى كل مكان من الارض سوق العبيد .

فلما جاء الاسلام — وكان تجربة جرت أول ما جرت بين العرب من داخلهم — لم ينظر الى العرب نظرة المسيحية واليهودية الغريبتين ، ولم يغل يده كما غلتا ، بل نظر الى قومه وأهله وامتدت نظرته بالرحمة لهم والاشفاق عليهم ، فلم يلبث أن محا عيوب الأخلاق ومساوىء التطرف . واستطاع فى سرعة مذهلة أن يهدىء القلوب من الغيظ المفتعل الذى يحمسها ، وأن يكف الأيدى الباغية عن اهراق الدماء وأن يكفكف العبرات ويبرىء الجفون ، كما

استطاع أن يمسك بالانسان عند الفرح الطاغى فلا يبطر ، وعند الحزن الشديد فلا يمتلىء جزعا . وحتى مخافة الخطأ الذى يقع فيه الانسان بغير قصد فقد حذر الاسلام من التردد أمام الشبهات والحوم حول حماها مخافة أن تزل القلوب فتقع فى الآثام .

وامتدت بالاسلام المنة فلم يدع أتبـاع الأديان المجـاورة دون أن يدعوهم الى فضائله ذات الاعتدال كما دعا العرب . وكأنه بهذه الدعـوة الصارخة فى آذانهم قد نعى عليهم أن لم يؤثروا فى الوثنية بما كان عليهم أن يؤثروا به ، فلم يبق عليهم — وقد ضعفوا عن اشاعة الخير — الا أن يتبعوا الدعوة العربية التى كان لهـا أن تستعلى عليهم ، وقد حق لها بما قصروا أن تكون الدعوة العامة وأن تكون آخر الدعوات .

وتجربة الاعتدال الخلقى التى جاء بها الاسـلام كانت عمـلا واقعا فى المجتمع الاسلامى أكثر منها دروسا فى سطور أو عظات فى أقوال ، فمع أن القرآن والحديث قد أشارا فى عدد وفير من أقوالهما الى التوسط فى الأمور فان التطرف فى الأخلاق والأقوال كان يستوجب أحيانا حكما من القـاضى أو الخليفة ذاته قابلا للخضوع والتنفيذ . وربما تناول المسائل الأدبيةوالجدلية كما حدث فى قصة استعداء بنى العجلان عمر بن الخطاب على النجاشىالشاعر وقضاء عمر بتطرف النجاشى والشهادة بكرامة بنى العجلان .

وكره الاسلام العقوبة الى حد الانتقام . والاحسان الى حد الخروج عن المال كله — الا اذا كان ذلك فى دفع عدو ، لأن المال ضائع كله اذا قدر له أن يغلب ويقهر — والاقدام على اقتحام المخاطر حتى التهلكة ، والصبر على النقم والاستسلام لها مع القدرة على التغلب عليها ، كل هذه الحـدود جعلها الاسلام من قواعده فخلقت رجالات ذوى أخلاق عالية وأمانة تدعـو الى الثقة واليقين .

وجدير أن ينبه الى أن هذا الاعتدال الذى رسمه الاسلام للفضـائل لايتنافى مع القوة المرغوبة فى المؤمن اد الرسول ينبه الى ذلك قائلا « المؤمن القوى خير وأحب الى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير » .

السمو والثبات :

فى الثورات الفكرية الضخمة التى اجتاحت الكون فى القرن التاسع عشر ضد الأخلاق التى كانت أدوات مسخرة لمصلحة طبقة من الناس لتسيطر بها على سائر الطبقات لم يكن من المستطاع أن يتهم الاسلام بكلمة واحدة فى الأخلاق التى فرضها دائما أدوات للتخلص من الحكم الطبقى .

والشتائم التى كالها الثوار للاديان بأنها الأفيون المخدر للشعوب لم يمس الاسلام منها حرف ، وسواء علم أولئك القادة الثائرون بالاسلام أو جهلوه فانه كان فى المستوى الخلقى الذى ترتد هجماتهم عند بابه أو تحت أقدامه ، اذ لم تكن لديه أخلاق للسادة وأخرى للارقاء . والخضوع والاستسلام لم تصنع منهما قيود لعبيد ، وانما كان التواضع واجب الاتباع من جميع الناس .

ولم تتحول الأخلاق الاسلامية فى كل عصور المسلمين — حتى فى عصور انحطاطهم — عن الشكل الذى وضعت عليه فى أول عهد للمجتمع الاسلامى فلم تنقلب قط فضيلة الى رذيلة أو ترتد هذه الى تلك ، فاذا كان بعض ذوى الجاه قد خرقوا هذه النظم ، أو كانت بعض الجماعات قد تفشى فيها الشر ، فذلك عمل خرجوا به عن طبيعة الاسلام . والعلاقات السائدة بين ذوى الدرجات لم يسبق فى عرف الاسلام أن يجمدها ، بل جعل الأيام والأموال دولا بين الناس ، وكل أمر سائر الى أحسن من ذى قبل فانما يشجعه الاسلام ويبعث فيه روح النماء .

وكذلك لم تسمع فى الاسلام كلمة تقول بالعودة الى البساطة ، أو الى مبدأ الانسان الفقير الذى ليس له حاجات — وذلك فيما عدا أهل الزهد والتصوف لأنهم أفراد قادة ومجموع الأمة لا يكون منهم — وانما الاسلام يرفع البسيط ليكون معقدا ويدعو الى تخطى الفقر بسد كل الحاجات . وعمر بن عبد العزيز صاحب المدة السعيدة لم ير أن تفرض على المسلم ضرائب الا بعد أن يكون له مسكن وفرش وخادم ودابة ، وهو المستوى الأدنى الذى رآه خليفة راشد لكل مسلم وعمل على تحقيقه ثم كان ، وأيما فرد

يجبر جماعة على أن تستعبد لجماعة أخرى فان الاسلام برىء منه ولا فرق عنده بين مسلم ومسلم أو مسلم وذمى أو معاهد ، وانما تجرى الأمور بالوفاء والمساواة .

ودوام الاقبال والمجاهدة عند المسلمين من أمارات الفتح والقبــول ، والمسارعة الى الله والى الخير من علو الهمة فى الاسلام . أما الملتفت وراءه والمتسلل من الصفوف فلن يفلح ، والمتهور فى قوله وعمله وكسبه متورع عن أن يفتح له الطريق .

القدوة والمثل :

وفى حمل الناس على محاسن الأخلاق كان لا بد من قدوة ، شأن كل أمر جليل ثقيل ، لتيسر القدوة على من يضن بقواه أن يبذلهـــا فتهون لديه المشاق ، ولم تكن فى الاسلام قدوة أعظم من رسول الله — ولعله — صلى الله عليه وسلم — قد بين وصف الله له بقوله « وانك لعلى خلق عظيم » — بينه بقوله « أدبنى ربى فأحسن تأديبى » .

وليس فى الامكان بعد ذلك أن تتجاوز عن تأديب السماء له — ثم لنا بسببه — الى الوقوف عند نشأته فى بنى هاشم — وان كانت النشأة فيهم كافية لتنشئة الرجل الكامل — فقد كانوا عاجزين عن تنشئة رسول لوكانت الرسالات من غير اجتباء .

وبان أثر هذا الاجتبــاء فى كل خاطر وخطــوة اذ كانت ذات اتزان واعتدال ، وكان ذلك ممتدا الى كل أمر وشأن حتى فى المباح لكل آدمى أن يفعله كالطعــام الحلال الذى تسطع رائحته أو يكثر دهنه ودسمه فقد مال عنه الرسول القدوة وتركه أو قام عنه فتوضأ منه — وان كا نالفقهاء وأهل التأويل قد عللوا ذلك بأنه امتنع عن أكل ما يسطع ريحه لأنه يلقى جبريل — وكالضحك الذى صار لديه ابتساما ، والصوت فى القراءة والعبادة الذى ابتغى به سبيلا بين الجهر والتخافت . واذن فقد كان رسول الله أول من تأدب بأدب اللقاء وأعظم من اقتصد فى كل الأمور .

وحين قاد رسول الله الناس حمل على كاهله أعباء لم يستطع القادرون من أتباعه حملها ، وقد رؤى كيف كان يقوم فى الصلاة حتى تتورم قدماه ، وكيف توارى عن الناس فى أداء النفل الخاص به رحمة بقوى الناس أن تنوء بأمثاله ، وكيف أنبأ عائشة بيقظة قلبه مهما نامت عيناه .

أما فيما هو فى متناول قوى الناس فقد ضرب لهم المثل فيه أمامهم ليقتدوا به . وقد جزأ نهاره ثلاثة أجزاء : جزء لله وجزء لأهله وجزء لنفسه ثم جزء جزأه بينه وبين الناس .

ومن بعده كان آله وأصحابه قدوات للناس .. كانوا كسهام الجعبة قد تشابهت أشكالهم وتدانت أحوالهم ، ولن يستطيع أحد أن يفر ليله ونهاره من دهشة تملكه وتعجب يتبعه اذا التفت الى سيرهم يقرؤها والى أخلاقهم يتبينها .

وقد صح أن ينسب كل نصر حصل عليه الاسلام الى ما كان عليه هؤلاء من أخلاق — كل نصر بلا استثناء — كسبوه هم وأتباعهم ، فى أى عصر وبلد ، لأنهم كانوا المثل والقدوة . ومن لم يتمثلهم ويقتد بهم فالهزيمة به أولى .

وضرب الرسول أعظم مثل للقائد فى ايصال البر الى الناس اذ كان يستعين بالخاصة على العامة ويدعو الى ذلك ويحث عليه يقول « أبلغونى فانه من أبلغ حاجة من لا يستطيع ابلاغها آمنه الله تعالى يوم الفزع الأكبر » ومع ذلك فلم يبح مال المسلمين فذاد عنه الطمع وقلم الأظفار ، ولم يجعل لأحد شفاعة فى الحدود .

وحسبك من تلاميذه أن تسمع على بن أبى طالب يقول للناس :

« ولقد جاءنى عقيل « يعنى أخاه » يشكو الى سغبا يستمنحنى صاعا من بركم أو صاعا من شعيركم ، فأحميت له حديدة ثم أصغيتها الى بدنه فأن أنين الدنف الهائم فقلت : ثكلتك الثواكل . أتئن من حديدة أحماها انسان لأخيه وتجترىء الى نار سجرها الرحمن لمبغضيه ؟!

ايقاظ الضمير :

وكما كان الاسلام قد جاء بآخر تطور بشرى فى كل فروضه وتعاليمه فانه أعلن أن الثواب والعقاب الأبديين — واللذين تحكم بهما عدالة حقة لا تخطىء ولا تميل — سيتأخران الى ما بعد الموت .

فالخوف الزائف الذى كان بمكة فعذب به جبابرتها الموالى وغربوا به الضعفاء جاءه خوف أشد منه ولكنه حق فمزق أكباده . ولم يكن الخوف الأقدم الا حسابا للظاهر الذى يتغير كل آن ، أما الأحدث فجاء حسابا للباطن الذى لا يعتريه تبدل ولا تغيير .

ولقد عذب المجرمون وثوب الصالحون بالجزاء الدنيوى العاجل فى الأنظمة التى وضعها البشر . وكثير من شرائع السماء عاقب أمما كثيرة بالاهلاك العاجل ، فلم يكن أمام أحد من الذين عوجلوا بالهلاك أن يستبرىء أو يرجع فيثوب ، ولكن الاسلام أخر العقوبة والجزاء وجعلهما فى يد العليم بالسر وذلك ليترك للانسان مدى من عمر الدنيا يرجع فيه الى ضميره لئلا يفر من حق ماثل هو طبق ما فى الضمير سواء بسواء .

وكان هذا اطلاق قوة أخرى للانسان وراء حريتها ، فكما أطلق الاسلام عقل الانسان للبحث وراء الدليل ، وكان فعله هذا حجة على صحة ختامه للرسالات — كما أوضحناه فى مقال سابق — كذلك ، أيقظ الاسلام ضمير الانسان ووضع بين يديه وعينيه أقواله وأعماله وترك له تقديرها اذ هو أعرف بها . وهذا مع أنه ايقاظ للضمير الانسانى فهو اطلاق أيضا لقواه وراء البناء والاصلاح من غير تعجيل أو ارهاق .

وقول الرسول الأعظم « والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » وقوله لوابصة بن معبد حين سأله عن البر « استفت قلبك .. البر ما اطمأنت اليه النفس واطمأن اليه القلب . والاثم ما حاك فى النفس وتردد فى الصدر وان أفتاك المفتون » قاعدة يضعها الاسلام للمعرفة والقياس أمام الضمير . وهو ما قيل أن « كانت » قد ارتآه فى الفلسفة الحديثة وسماه أداء الواجب للواجب أو سماه الخضوع التام لأمر الضمير النهائى .

ولقد كان تأجيل العقوبة النهائية فى الاسلام أمرا خطيرا ، فانه لم يدع للضمائر أن تنام ليلة أو تغفل لحظــة اذ جعل حد تفكيرها وزمن أعمــالها محدودا بانتهاء الأجل . وهو تحديد مبهم لأن الأجل مجهول ، وقد يقع فجأة : فالمسارعة بالتوبة والعمل الصالح أحق وأولى .

وكم فى ضمير الناس اذن من قساوة حين تمر عليهم الليالى والأيام وهم فى نوم دائم أو عناد قائم ؟

وماذا كانت تسلك هذه الضمائر من نهج للتعليم ومهاد للرحمة أفضل مما مهد لها الدين القويم وأوضح لها الصراط المستقيم ؟

والنفاق الذى يحدث القلق والتضارب بين حركات الجسم وخطرات النفس . ألم يحاربه الاســلام ويجعل طبقة أهله فى الدرك الأســفل من النار ؟

وهل تبتعد النفس عن النفــاق والقلق وتألف الاخلاص والثبــات الا بمراقبة الضمير وتقسيط الأقوال والأعمال ووزن مقاديرها حتى تصــدر ذات اعتدال ؟

فلا مراء فى أن الانذار بالجزاء الآخر كان بعد أن وضعت أمام الضمير مرآة مجلوة تنطبع فيها الصورة أتم انطباع ، كما ترك له أن يبدل من صورته ويحسن فيها كما شاء وكما اقتدر ليعود الى فطرته فى حركة الفضائل ، وقد فتح له طريقا الى الحياء الخفى حتى لو قيل للحر الكريم : اعمل ما شئت فلن يأخذك الله بذنب ، لزاده هــذا الكرم هجرا للمعصية واستحياء من الله العلى الكريم .

معارج الارتقاء

صفات موروثة • صفة الكمال • بداية رفيعة • نظرية الأسماء • القلم والكتابة • القدر المفروض • الحروف العربية .

صفات موروثة :

فى باب « دعوة الخير » أول هذا البحث تحدثت عن استعانة الاسلام فى دعوته بالأخلاق التى امتاز بها العرب ، وأوضحت أن الأزمة والطباع لم يكن فى مقدورها أن تلد صفات أسمى من الشجاعة والجود اللذين ينصر كل منهما الآخر ويشد من أزره ويدفع فيه القوة والبقاء .

وكانت طباع المروءة والكرم جبلة فى العرب عامة أى تكاد تنتظم أفراد الجيل كله ، ومن لم تنتظمه فى سلكها نبذ ورمى بهجاء موجع لأنه لم ينطبع كانطباع أهله ولم يتخلق بمكارمهم . ولو لم تكن المروءة كذلك لما عدت من مفاخر ذلك الصنف من الناس ، اذ لا مفخرة لقوم الا اذا شاعت فأظلتهم جميعا بأجنحتها وغمرتهم بلجتها . أما أن تطلق مفخرة على الجيل بمفخرة واحد من أبنائه فانها لن تنصرف على ذلك الجيل كله الا بمتعسف من المجاز . ولم يكن حاتم الطائى وحده العربى المعطاء ولكن الاعرابى المجهول صاحب الخطيئة الذى هم بذبح ابنه لقرى ضيفه كان معطاء كذلك بل كان أكرم من حاتم ، وانما اشتهر حاتم لاتساع غناه وبعد مداه .

وكذلك كانت الشجاعة — والفروسية أحد مظاهرها — تقليدا عربيا فى البادية كلها ولولاها ما حصل ذلك الجيل على رزقه من الوحش والحيوان والطير وما حمى كيانه ومروءته من كل عدوان مادى أو روحى وما اشتعل أدبه وفكره بالعواطف الثائرة والحيوية الجياشة .

وهكذا كونت هاتان الصفتان ذلك الفرد العربى وأمته العربية كلها تكوينا قويا . ولكنى أعود هنا فأقول ان هذين الخلقين لم يكن لهما أن يكونا فى الفرد الممتاز أو الأمة الممتازة الا معظم الكيان ، فظل الفرد وظلت الأمة بهما ناقصين عن بلوغ الكمال ، لأن شيئا مكتسبا من الصفات التى تنتمى الى العقل الانسانى وترقق الطباع وتلين النفوس لم تضف اليهما .. وحتى يمكن أن يسود الكريم الشجاع فلا بد له من أن يكون قد بلغ فى الانسانية والعقل مكانا ما ، وكلما كان مكانه فيهما أرفع كانت سيادته أقوى وأوسع ، ولذلك لم يتهيأ للعرب قبل الاسلام — مع سمو الصفات الطبيعية

فيهم وغلوها أحيانا — أن يسودوا غيرهم من الأمم ، بل كان الغلو فى الصفات المطبوعة أحيانا سببا فى الخراب ان خرج الكرم الى الاسراف ، وفى الهلاك والاذلال ان جاوزت الشجاعة حد الاعتدال .

صفة الكمال :

وقد وقع فى عرف عرب الجاهلية الأميين أنفسهم أن العربى يظل ناقصا ان لم يمح أميته ويعرف القراءة والكتابة ، فاذا محا العربى أميته مع الكرم والشجاعة أطلقوا عليه اسم الرجل الكامل ، وقد تتبعوا باهتمام من بلغ بالصفة الأخيرة حد الكمال فعدوهم فردا فردا عرفانا بمكانهم وتنبيها بأسمائهم لما صاروا اليه من علو الشأن ، غير أن هؤلاء الكملة فى جيل العرب القديم ،كانوا قليلا من الرجال ونادرا أقل من النساء .

ويعنى هذا أن هذه الصفة المكتسبة تصعد بصاحبها الى القمة ، وحيث يكون الكرم وتكون الشجاعة وراثة وتقليدا — ومن الممكن أن يشيعا فى جيل بكامله — تظل الكتابة والقراءة مكانا عالى الرتبة والقيمة لأنه لا ينال الا بجهد وكسب . ثم لا يمكن أن يشيع فى الجيل كله الا بمثل الطرق والوسائل التى اهتدت اليها الدول الحديثة فى محو الأمية ، وقد تكون أحيانا بالقهر والالزام .

ومن العجيب أن يقع فى حساب فطرة العرب الأميين أن عدم القراءة والكتابة نقص وعيب وأن يكون عرفانها حسنا وكمالا ، بل مما تدهش له العقول فى لغة أولئك الأميين أن يرادف لفظ الكتابة فيها لفظ العلم ترادفا عفويا أو عقلانيا ، وكأنما كان ذلك — فى هذه الفطرة الرشيدة — ارهاصا للدعوة القادمة التى بدأت دعوتها من قمة هذا الكمال المكسوب .

وقد أقرت الرسالة الجديدة فى بدايتها ما وقع فى الفطرة والادراك اللغوى من أن الأمى لا يكمل الا بالكتابة مهما اتصف بشتى صفات المكارم كفاعل الصالحات لا تقبل منه الا بالايمان ، وأقرت أن الكتابة سبيل تحصيل العلم والارتفاع فيه درجات وقد جاء ذلك فى قول الكتاب الكريم « أم عندهم الغيب فهم يكتبون » وفى مفهوم قوله « الأعراب أشد كفرا ونفاقا

وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .. » حيث يستفاد من قسوة الاعرابى الأمى مجافاته للعقل ، وترقيق العلم للقلوب وتليينه للنفوس .

بداية رفيعة :

ومن هنا — أى من القمة — بدأ الاسلام أول بدئه على الاطلاق : بدأ بالقراءة والكتابة فى آيات سورة العلق الأولى « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » فكان ذلك ايذانا للعرب بانتقالهم الى الكمال واعلانا دينيا عاما الى الدخول فى دور جديد ذى تيار جارف يخلق فى شواطىء الحياة مدا عاليا من العلم الخالد ويحض دائما على الترقى فى مراتبه والتوسع فى نواحيه .

وكان هذا الاعلان الدينى أشبه بالأذان الذى ارتفع من هـذا المكان نفسه من أبى الأنبياء ابراهيم عليه السلام يدعو الناس لحج البيت . واذن فقد بدأت مرتبة الاسلام بمرحلة الانسان الكامل الذى جعل صفة الكمال قاعدته الأولى التى بنى عليها .

ولم يكن الأمر بالقـراءة لادراك صور الحـروف وتصور رسـوم أبجديتها — فقد لا يأتى ذلك بغير معرفة شكلية تافهة دل عليها أنف أعرابى موهوب دفعوه فى زمن عمر بن الخطاب ليتعلمها ففر منها هاربا — ولكن كان الأمر بأن تأخذ القراءة سيرتها وتتعالى فى درجاتها لادراك أسرار الخليقـة وصلتها بالخالق وصفاته وما بينهما من واسطة ، وهى كلها أركان العلم التى أمر بها فى أول الآيات النازلة طرا .

وكذلك كانت البداية . وقد تنتج عنها فى العالم كله ما لم ينتج عن أية بداية أو نهاية . فقد كان بالعالم معارف وعلوم تتقدم فى تؤدة وبطء ولكنها لم تعم ، ولم يستمتع العالم بالعلم والمعرفة القديم منها والمبتكر الا بعد الدعوة الاسلامية التى أشعلت ثورة الحضارة ، ولا ضرورة بأن تكون حجة هـذا الكلام من أرض المسلمين فقد عصوا أكثر مما أطاعوا وتخلفوا أكثر ممـا تقدموا ، وانما الحجة فى كل ما تخلف عن هـذه الدعوة من رواج للمعارف واطراد رقى العلم بسبب الثورة التى أشعلها الاسلام فى الأرض ، ولو كانت هذه الحجة فى أرض أعداء الاسلام .

ونداء الثورة الذى دعا الى اجلال الخالق ونبه الى مراحل خلق الانسان الذى لا يتم كماله الا بتعليمه ، ووساطة القلم الذى هو أداة هذا التعليم لم يكن الا نداء لخلق حركة فكرية واسعة تسير بالعلوم والمعارف الى النمو والتقدم ، وذلك للرباط الوثيق بين العقل والعلم من ناحية وبين القلم والكتابة من ناحية أخرى ، اذ أن الكتابة هى أعلى مرحلة وصل اليها الانسان فى تقييده أفكاره بل وفى تنقيتها وتخليدها .

وربما كان هذا فى البداية تقريرا قوليا للكتابة والقراءة ، ثم ما لبث النبى — صلى الله عليه وسلم — أن نفذه من فوره تنفيذا عمليا اذ اتخذ له عددا من الكتاب يكتبون الوحى ويدونون القرآن ويستملون منه الكتب ، ثم ما لبث الاسلام أن وضع هذا العمل وضعا مساويا للحرية التى هى أعظم أقدار الحياة .

وقد تحقق هذا من جهتين : تحقق فى فداء الأسير من أهل مكة فى وقعة بدر — ان لم يكن له مال — اذا علم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة ، فكأن محو الأمية قد اشترى بالحرية والأطلاق . وتحقق فى محو جهالة الحر الذى تزيده الكتابة حرية وانطلاقا ، وهو تقدير يزن الحصول على العلم أو أوائله بأنه مساو للحرية والحفاظ عليها والانطلاق بها ، وهو أعلى من أوزان الغنائم المادية كلها .

وقد مضى الاسلام فى تحقيق هذه المعادلة مؤكدا اقتران العلم والحرية والسلطان بحيث ينال المتعلم من مراتب الحريات ودرجات السلطان مايتساوى مع درجة علمه وفقهه ، وجعل جزاء من يصعد فى درجات العلم أن يعتق لو كان عبدا وأن يكون اماما ولو كان أعجميا ، وقد تأثر السادة الأولون بهذا الروح فى اعتاق مواليهم الذين يفك الفقه والعلم رقابهم ، واتسعت حلقة السباق ، فما كادت الطبقة الأولى من الصحابة تغيب حتى تولى الموالى المعتقون فى كل البلدان مراتب الفقه والفتوى .

نظرية الأسماء :

وحين نظر الاسلام للانسان من القمة التى كانت سبب تكليفه واستخلافه وقرر أنها فى العلم الذى وهبه من الله كان له قول فى تعليم

الأسماء ، ويفهم مما ساقه القرآن — مشابها للتوراة والانجيل — أن هذا التعليم كان بخلق ضرورى فى آدم والقاء فى روعه . وسواء أكان هذا مفتقرا الى سابقة ليتسلسل أو غير مفتقر فان القول بالتوقيف لا يتنافى مع القول بالاكتساب والتدرج والتكيف فى الأزمنة متى صرف الأمر الى آدم وذريته ، ومهما جاوز الباحثون رأى التوقيف بنظرياتهم فانه لا يخرج عن الأصل الذى هو اعداد الانسان للكلام ووضع الكون حياله وادخاله فى كيانه .

وهذه الأسماء التى عرضت فى أقوال التوراة والقرآن لم تكن الا للمسميات المدلول عليها ضمنا ، ولها اعتبارات فى الاشتقاق والعرف والاصطلاح ، ومعنى ذلك أن تكون علامات للأشياء من لفظ أو صفة أو فعل ودليلا يرفعها الى الذهن ويفيد معناها مفردة ومركبة كما يفيد الروابط بين أجزائها .

واذن فقد خلق الانسان مستعدا للكمال باستعداده لادراك ذوات المدركات من المحسوسات والمعقولات والمتخيلات والموهومات وادراك أسمائها وأنواعها وخواصها ، ومن المعقولات ادراك البدائة التى تتخذ طريقا للاستدلال الصحيح والموجبات الصادقة التى تقوم عليها أصول العلوم وقوانين الصناعات وتركيب الآلات .

وقد وضح سر التكليف من تعليم آدم الأسماء وحقائق الأشياء ثم من تركيبه بما ذخر فيه من قوة المنطق بمنفاخ الرئتين والفم وتأثير النفس فى البدن ، فلم تكن خلقة الانسان هكذا وتلقيه العلم بلا حكمة . وانما كان جمعه للأمرين دليل شرفه وامتيازه . وكما كان التعليم شرطا فى شرف التركيب والتكوين كان هذا الشرف والامتياز سببا فى ضرورة الخضوع والتعبد لمن منح التركيب ووهب التعليم وأنقذ طبيعة الكون من الجمود والظلام باستخلاف الانسان فى الأرض واستعماره فيها .

وقد جرى القرآن شوطا بالغا فى التنبيه الى السمع والأبصار والأفئدة مشيرا الى أنها الأدوات المخلوقة فى الانسان ليدرك بها البدائة ثم يحصل بها العلوم المكتسبة بالنظر فيها ، وقد استفاد بعض نابهى المفسرين من قوله

سبحانه « ثم أنشأناه خلقا آخر » أن المراد من وراء نفخ الروح فى البدن واحداث الحيـاة فيه انما هو الادراك والنطق وتحصيل المعلومات وجمع الكمالات .

القلم والكتابة :

وكما كان القول والتعبير بالضرورة منة الخلقة على الانسـان كانت الكتابة منة ضرورية أخرى عليه ، ومع أنها كانت أرقى درجات الاكتساب لتدوين الأقوال فضروريتها تتبين فى أنه لم يكن بد منها لتخليد العلم وبقائه قديما وحديثا وفى كل ما يأتى من زمان .

وقد أوضح ذلك اخوان الصفا فى رسائلهم قائلين : انه لولا الكتابة لما بقى العلم ، ولما كان بقاؤه ذاتيا فقد اضطرت الحياة الانسانية الى ايجـاد آلات . وكما كان اللسان والفم للقول كان القلم والألواح والأحبار والأوراق للكتابة . بيد أن القلم صار أرجح من اللسان وغدت الكتابة تقييدا للمآثر على مر الأيام والدهور .

وهم يوضحون هذا الاضطرار بأنه لما كانت الأصوات لا تمكث فى الهواء — الذى هو جسم سيال — الا ريثما تأخذ المسامع حظها ثم تضمحل احتالت الحكمة الالهية بأن قيدتها بالقوة الصناعية التى هى الكتابة ، وذلك أن القوة المفكرة استعانت بالقوة الصناعية أن نقشت حروفا خطوطية بالقلم تحاكى معانى حروف لفظية ثم ألفتها ضروب التأليف حتى صارت كتابا مكتتبا وأودعتها وجوه الألواح وبطون الطوامير .

ومع أن هذه الصفات التى قالها اخوان الصفا للحروف لا تنطبق الا على بعض حروف اللغات التى تهتم بتصوير المعانى بها كالهيروغليفية والصينية مثلا فانه صار فى الاصطلاح فى غير اللغات التى لا تصور حروفها المعانى أن يعبر الحرف عن صوت ثم تتآلف من الحروف المجتمعة أصوات كلمات تدل على المعانى .

وقد رجح القلم على اللسان لأنه أبقى العلم مقيدا ومفيدا يبعث الماضى للغابر والأول للآخر والغائب للحاضر . ومع أن المخترعات الحديثـة نقلت

الأصوات والصور فان آلة الكتابة — فى مختلف صورها — لم تتقهقر عن مكانها بل ازدادات قوة لاحتياج المخترعات اليها ولأنهـا لا تجد من الكلفة والتعقيد ما تجده آلات نقل الصور والأصوات ، وبذلك فان الكتابة تعتبر أرقى مرحلة فى سلسلة التصنيع والايجاد .

وقد أكد حاجة الانسان للكتابة والتزام صناعتها توافقها مع خلق الأناة والتعقل والاحتيال فى الابتكار والتصنيع وارادة التوضيح فى قوة والافهام فى بلاغة . وابن خلدون ينسب تأكيد الحاجة الى الكتابة فى الدولة الاسلامية الى ذات اللسان العربى والبلاغة التى امتاز بها فى العبارة عن المقاصد ، فصار يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية فى أكثر الأحيان . وهـذا فى الأدب وأمثاله ، أما فى العلم فقد صار جديرا أن يقـال : انه لولا أن القلم يدون أجزاء كل كشف رياضى أو كيمياوى أو هندسى حتى يتم الكل من هذه الأجزاء لما رأينا تقدم العلوم كما نرى اليوم .

القدر المفروض :

وقصر الأمر على محو أمية العين الباصرة والوقوف عند ادراك الكلام المعتاد ليس مراد الاسلام بالكتابة والقراءة فان الفطرة تستغنى عن كتابته بما وهبت من القدرة على ادراكه وتفهمه دون تعمل أو تكلف ، وانما المراد محو أمية العقل والفهم ، والانتقال من الطبـاع الموروثة الى المعالى المكسوبة — لدى الرجل والمرأة على سواء — ولعـله المقصود من قوله سبحانه فى سورة الجمعة « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة » .

وكما أنه لا يخرج كل من يعرف القراءة والكتابة عن الأمية ان لم يفقه ما يقرؤه أو يكتبه على وجهه فان القرآن يسلك كل من يتناول ما يقرؤه أو يكتبه بالكذب والانتحال فى سلك الأميين وذلك حين يقول « ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى .. » وحين يقول .. « كالذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها .. »

والتقييد بلزوم القراءة فى الصلاة فيه الزام كل مسلم من أمى وقارىء أن يعمل قلبه ولسانه حتى يعى ما لا يمكن أن تؤدى الفريضة الا بحفظه وقراءته والاستماع له ، من حيث أنه كلام ليس من انشاء مؤدى الفريضة ولا صياغته اذ لا تقبل الفريضة الاستقلال بكلام يأتى به المتعبد من لدن نفسه — وكل انسان مقتدر عليه — فليست العبرة بالقدرة على اختراع الكلام وانشائه وانما هى بالحفظ والقراءة والاستماع — وهى أركان التعليم — لكلام يجبر عليه ولا سيما اذا كان مما يعجز الانسان عن الاتيان بما يشبهه أو يماثله .

ووقوف الانسان عند حظ قليل أو كثير دون الطلب والدأب والتهدى الى المعرفة والخير لا يقبل الاسلام أن يعده به عارفا عالما متهديا الى الخير ، وقد أمر النبى ذاته — وقد اغترف من بحور العلم الالهى ما اغترف — أن لا يقف عند حد فى الطلب والمعرفة فقال له سبحانه « وقل رب زدنى علما » اذ لا حد للعلم يقف الانسان عنده حتى لو كان نبيا أوحى اليه .

ومن الحتم على المسلمين جميعا أن تنفر منهم فرق للتعلم والتفقه . — ولا يسقط هذا الفرض العين عن جماعتهم الا اذا نفرت هذه الفرق — فاذا تعلمت وتفقهت رجعت كل فرقة الى قومها لتعلمهم ، مع انبغاء أن يكون المتعلم مستقيما غير مترفع على الناس وغير منبسط فى البلاد دون الرجوع الى قومه بما تعلمه ، ذلك الأمر الذى يفعله كثير من سفهاء عصرنا من المتعلمين الذين ينفرون للعلم أو يبعثون له ثم لا يعودون فلا يكتسب بهم قومهم علما ولا نفعا .

ولعل هذا ينطبق تمام الانطباق على القرار الذى أذاعه الاعلان العالمى لحقوق الانسان فى عصرنا هذا بعد الحرب العالمية الثانية والذى يقول : لكل فرد الحق فى أن يشترك اشتراكا حرا فى حياة المجتمع الثقافى وفى الاستمتاع بالفنون والمساهمة فى التقدم العلمى والاستفادة من نتائجه .

غير أن هذا فى الاسلام ألزم وأكثر ايجابا ، اذ هو لم يترك للفرد أن يكون حرا فى تحصيل العلم والاستفادة به فحسب ، بل ألزمه أن يتعلم وأن

يستفيد بعلمه ويفيد به ، وحين ألزم الاسلام الفرد اذا تعلم أن يعود الى قومه بما تعلمه عمل من جانبهم على رفع مستوى الأمم كلها واشاعة العلم بينها جميعا .

الحروف العربية :

وكان الأمر بالقراءة واكساب لفظ الكتابة معنى الفرض في القرآن وتشريف القلم في بدء الوحي ايذانا بانطلاق الحروف العربية التي كانت في شكل خطوط بدائية وزوايا — فيما كان يدعى بالخط الكوفي — الى ناحيتين من التحسن والاجادة .

ناحية داخلية في الحروف ذاتها اذ رققت الخطوط وذللت عرائكها فاتخذت أشكال الأقواس التي هي أتم خلقا وتكوينا وأوضح في العين وأجمع ، ثم تفرعت الى أصول وأنواع واصطحبت في العصور المختلفة حركات ونقطا موضحة بذلت الأمة العربية في النهوض بها جهودا عبقرية أكسبتها جمالا وثباتا ، وما تزال تتنوع وتتفرع من حيث لم تخرج عن طابعها الأصيل ، وكأنما هي تجبر أهل الفن على التزام أشكالها الأصيلة الأولى .

وحسنا ما اتخذه العرب وما اختاروه من حروف ذاتية لهم ، كما كان حسنا أن ينحنى عليها المسلمون اتقانا وتحسينا حتى صار للكتابة العربية رسمها الفريد بها ، وكذلك كانت دليل القوة الخلقية والفكرية والتفوق القومي التي امتاز بها العرب والمسلمون .

أما من الناحية الخارجية فان تلك الحروف الحبيسة في الجزيرة العربية والتي كادت لا تكون الا تجارة محتكرة في أيدي تجار اليمن والحجاز مع صناديق السلع والبضائع ، قد انطلقت مع الاسلام عابرة أسوار الجزيرة مع عقيدة التوحيد الأخيرة وجيوشها الغازية متخذة شكل السيادة على حروف اللغات المجاورة والبعيدة ، ثم ما لبثت أن وأدت كثيرا منها وأخضعت أممها فتحولوا عن حروفهم الى التعبير بها ، حتى اذا استمكنت لم يكن في استطاعة الحركات الشعوبية التي تخلصت من اللسان العربي أن تتخلص منها كما لم

تتخلص من العقيدة ، وكأنما صـارت الحروف العربيـة ألصق بالعقيـدة الاسلامية حين حازت الشرف الأول فى تدوين القرآن والحديث بها وكان هذا الكسب أقدر مرسخ لها وعامل على تثبيتها .

ولما كانت الكتابة العربية — بالأشكال المختلفة التى اتخذتها حروفها — خاتم الكتابات فى اللغات عند الأمم — سوى ما يقال من أن اليابان تحاول اليوم خلق حروف لها — فانه لا يتصور أن يزول استمكانها بعد المزايا الجميلة التى اكتسبتها والعصور الطويلة التى عاشتها والحضـارات الرائعة التى دونت بها فخلدتها . ولذا فقد أخفقت — كما ستخفق — كل المحاولات الطائشة التى بذلت لهجر حروف اللغة الأم الى الحروف اللاتينية .

وفى بعض البلدان العربية منيت المحاولة بنكبة مريرة حين حاول بعض المفتونين بالردة والشعوبية أن يجربوا كتابة شعر وفصول بالحروف اللاتينية وتشمير الساقين فى أول المخاضة حتى ينخدع الناس فيخوضوا ، ولـكن الناس لم تخدعهم الفتنة فتركوهم وحدهم يبتلعهم التيار .

ولم يكن الانتصار على الحمـلة المسعورة الا لأن الحرف العربى قد أصبح ذا قداسة وارتفع من الدلالة على المادة الصوتية الى العقلية اللغوية فمتى جار عليه جائر فقد هتك حرمة العقل واللغة والقداسة معا .

وفى طريق تكوين الكلمات العربية باجتماع الحروف — وهو ما يدعى بفن رسم الحروف ويدعى فى مدارسنا بالاملاء — قيل ان الصحابة الذين دونوا المصحف الامام راعوا سر اللغة وفقهها ولا سيما فى كتابة الحروف الممدودة والأسماء التى تتردد بين الافراد والجمع والاعتدال والامالة وفتحوا بطريقتهم فى الكتابة أبواب القراءات الصحيحة بل وأبواب علم الصرف أيضا وقد هجرت — فى غير المصحف — هـذه الطريقة الى ما ابتغتـه العصور المختلفة من التسهيل والتيسير .

ولكن العلم والبحث ما يزالان يؤكدان أن طريقة الأوائل — ولا سيما الذين كتبوا المصحف الامام — كانت طريقة أهل الدراية باللغة والولاية عليها من كل المتأخرين . ولا يعنى هذا أن نرجع الى طريقتهم فى كل ما نكتبه ،

وانما طريقتهم لوح محفوظ لمن أراد أن يعرف كيف كان العرب يطابقون بين أسرار لغتهم ومظاهرها على ألسنة الحروف ، كما أنها شاهد عدل على أن الذين كانوا أولا فى الزمان كانوا أيضا أولا فى الدقة والفهم والعرفان .

وكما كانت الحروف العربية خاتم حروف الكتابة فى اللغات كانت حروفها المنطوقة أتم الحروف عددا اذ بلغت فى النطق ثمانية وعشرين وهى كل ما يستطاع أن يكون له نطق مستقيم من الأصوات دون الحروف التى تتخذ شكل الأصوات المبهمة أو التى تكون بين حرفين صوتيين كما فى بعض اللغات . كما تنفرد العربية بالنطق بحروف الاطباق وهو ما لا يقدر عليه كثير من اللغات .

فريضة الجهاد

القوة والضعف • فريضة الجهاد • آداب القتال • الحقوق الانسانية • قسم الغنائم • الجزية والخراج • الرغبة فى السلام .

القوة والضعف :

لا حاجة الى دليل على أن العرب شعب محارب . كانت هذه فطرته ككل شعوب الرعاة — كما يقولون — ولا حيلة فى أن ننكر عليه هذه الفطرة بعد تاريخه الفياض بها . ولا يعنى القول بأن العرب جيل محارب أنه يعتدى ، وانما خلقت فيه النخوة لرد العدوان والقتال من أجل ما يتصوره من كرامة الجنس والنوع ، ولأقل سبب يبذل كل ما يقدر عليه من تضحيات .

نعم انه تطرف فى جاهليته تطرفا أضله عن طريق الاعتدال فكان الاعتداء من قبيلة على أخرى تعبيرا عن القوة التى لا مظهر لها الا هذا الاعتداء ، ثم حسبه الأقوياء عزة وكرامة وحسبه الضعفاء عدوانا وجورا ، وكان هـذا الخلاف اقرارا بأن فى هذا التطرف خروجا عن طبيعة الفطرة التى تميل الى الاعتداء يجب أن يقابل بأخذ الثأر .

ثم حمل الشعبُ العربى معه نخوته حين أسلم فأظهر موهبته العميقة الجذور فى فن الحرب ولكنه خضع لآداب لازمة هذبت هذه الفطرة فيـه وفى الشعوب التى دخلت الاسلام معه ، وكان من أوليات التهذيب أن القتال غير مشروع الا فى عظائم الأمور وحتى تستنفد كل وسائل السلم .

وطبقا للوصف الأول لم يخرج العربى عن طبيعة الانسان الحر المدافع عن ذاته ، ثم ارتفع الاسلام به وبغيره الى درجة أعلى فلم يشرع رمحه الا على عدو خارج عنه وحين لا يفلح السلم فيما تفلح فيه الحرب ويجدى القتال ؛ أما استراق الظفر وانتهاب النصر فلم يصر شيمة العربى أو المسلم وانما هو العون على نصرة الحق والدفاع عن الصواب .

وهذه الصفة لم تكدر الا حين ابتلى المسلمون بخصومهم الأشـداء ، وفيما بين الرعب من زحوف المسلمين الأولى وضعفهم فيما بعد ، انطلقت التهمة عارية بلقاء فأفلحت التقية عصورا طويلة فى توهيم الناس بأن العرب والمسلمين قوم يعتدون ، حتى لقد توهمت العقول — ومن بينهـا عقول المتأولين بلا استثناء — ان التقية والتستر صارت علما من العلوم فأخذت أقلامهم تدافع عن العرب والمسلمين بأنهم شعوب لا شـأن لهـا بالحرب ،

وأخضعوا آيات وأحاديث لهذا الضعف المزرى ، وراح الشاب المسلم يغض بصره عن نشابة لم يعمرها سهم وراحت الفتاة المسلمة تصرخ بأعلى صوتها مذعورة من ضفدعة تقفز على حافة ماء .

وأما الأجنبى المدجج بالسلاح وهو يرتكب العدوان كلما شاء ، فليس عليه أن يتنصل مما يفعل لأنه انما يقر السلم — كما يدعى — ولا عتب عليه فى أن يقره بتقليم الأظفار واذلال النفوس . وتوهم كتابنا جميعا ذلك حقا فدافعوا عن فطرة القوة فنيا ثم أخطأوا اذ حسبوها مرادفة للعدوان .

فريضة الجهاد :

ومهما اختلف فقهاء المسلمين فى توجيه الآيات والاستنباط من الأحاديث فى دوافع القتال وترجيح أقوال على أقوال فان حقيقة موقف الاسلام من القتال انما هو موقف معتدل شجاع لا هو الى الجبن ولا هو الى التهور وانما هو بين سلبية الدفاع ضد العدوان البادىء من العدو وايجابية نشر الدين البادئة من المسلمين . ومنه يبدو أن الاسلام قد يبدأ الحرب حينا وقد يكون مثنيا حينا ، على أنه مهما بدأ أو ثنى فقد أوجب على نفسه ألا يسترق الظفر أو ينتهب النصر بل عليه أن يدعو عدوه أولا الى الاسلام وأغراضه الصالحة ، وقد تقرر ذلك قاعدة فى قوله تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » وفيما أورده أبو يوسف من أن رسول الله لم يقاتل قط — فيما بلغه — حتى يدعوهم الى الله ورسوله .

وقد تكون الدعوة والجند الاسلامى على رءوس القوم ، كما غزا سلمان المشركين من أهل فارس حتى اذا كان على رءوسهم قال لقومه : كفوا حتى ادعوهم كما كنت أسمع رسول الله يدعوهم فأتاهم فقال : انا ندعوكم الى الاسلام فان أسلمتم فلكم مثل ما لنا وعليكم مثل ما علينا وان أبيتم فاعطونا الجزية عن يد وأنتم صاغرون وان أبيتم قاتلناكم . قالوا : أما الاسلام فلا نسلم وأما الجزية فلا نعطيها وأما القتال فانا نقاتلكم . فدعاهم كذلك ثلاثا فأبوا عليه فقال للناس : انهدوا اليهم ..!

وكذلك يرى الاسلام أن يدعو بدعوته قبل القتال ، ولكنه بعد أن يكون قد استعد وقوى ثم يرسل دعوته حتى لو كان على رءوس القوم .

وقد رأى بعض الفقهاء والتابعين انه ليس أحد من أهل الشرك الا وقد بلغته الدعوة فحل للمسلمين قتالهم من غير دعوة ، وقد جعلوا دليل الأول قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » والدليل الثانى قوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

ولم يكن للاسلام أن يغفل ويستر عقله فيغتر بسكون الحقد من حوله ، فان الحقد ما يزال يتطلب العلل حتى يستعر استعار النار ، ولذا فقد حسب دائما أنه محصور بين أعداء لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة ، فأى قتال نشب بين المسلمين لازهاق فتنة الكفر أو ارهاق وثبة الظلم فإنه لا يعد بدءا . وليست بداية واقعة بدر الا مثلا لما هو بين السلب والايجاب ، فان عدت بدءا من المسلمين بالقتال عدت كذلك ردا على طرد المسلمين من الديار والأموال .

ومن ثم صار الجهاد فريضة فى الاسلام بغية الأمرين : نشر الدين ورد المعتدين ، والأهبة للأمرين على الدوام ، وقد قرر ذلك رسول الله فى قوله : والذى نفس محمد بيده لولا أن يشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو فى سبيل الله أبدا » وفى قوله « من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار على متنه يبتغى القتل أو الموت مظانه » .

وقد عرف الرسول القائد وعرف الخلفاء والقواد من حوله ومن بعده أن موهبة القتال لن تخمد عن المسلم مهما كانت القوى التى يلقاها لأنه انما يطلب دائما بقتاله أغراضا صالحة هى التى تتحكم فى سيفه ، وهو يفترض دائما أن عدوه أضعف منه اذ يحيط به الضعف مرتين : مرة من نفسه ومرة من أغراضه ، فما لم يكسره ضعف النفس يكسره ضعف الأعراض .

وحيث يكون الجهاد فرض كفاية حينا وفرض عين حينا حسب الاضطرار وكيد العدو وقهره يكون الاستعداد فرض عين دائما حتى اذا لم يكن هناك عدو ، فلا يؤمن انفتاح باب الفتن بين المسلمين . ومن الاستعداد والتأهب صنع السلاح والتدريب على الرمى ورعاية صحة الجند ومؤونتهم وتحديث النفس والناس بشرف الغزو ، وقد نبه رسول الله على ذلك كله فقال : « ان الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر فى الجنة صانع يحتسب فى

صنعته الخير والرامى به ومنبله » وقال « من علم الرمى ثم تركه فقد عصى » وقال : « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق » وهكذا لم تحط فريضة الجهاد عبئها عمن لا يستطيع أن يغزو بنفسه فكان عليه أن يغزى غيره ويعينه عليه ، وقد قرر ذلك رسول الله فى قوله : « من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا » .

ولم ينس الاسلام ثواب المرابط على ثغور المسلمين بل جعله أكثر ، لأن المرابط مقيم دائما على قلق وهو يهجر وطنه ويغترب من أجل دينه ليحمى مداخل بلاد المسلمين ويدفع عنها . وقد استجاب ألوف الألوف من المسلمين فى شتى العصور فطمعوا فى هذا الثواب فلم يعودوا الى أوطانهم وأقاموا وماتوا على الرباط فى ديار الغربة يحسون حصنا أو واديا ويسدون ثغرا من وراء جبل أو غدرة من وراء البحار .

ومسئولية المسلمين نحو دينهم — من حيث أنه دين الكافة ومن حيث أنهم مكلفون بالدعوة له ورد المرتدين عنه اليه حتى القيامة — مسئولية ذات خطر وبال ، والعالم كله متدينه وعاطله مفطور على قبول الحجة القوية التى هى من صنع الداعى وحيلته ، ولذا وجب على المسلمين متابعة ما بدءوا به من دعوة كل انسان الى ما دعا اليه الاسلام منذ البدء فاما الى الاسلام واما الى السلام .

وقد يكون من المرعب لذوى الحقد والعناد أن يقال ان السيف من وراء تلك الدعوة ، وكان من الحق أن يرتعبوا لو أن السيف سلط على الرقاب من غير أن تصحبه وتسبقه دعوة صالحة وحجة قوية ، فاذا صحبته الدعوة وسبقته الحجة فمن ظلم القول أن يلقى الذنب الا على العناد والكفران .

وما زالت حجة الاسلام قائمة على أهل الأرض ، فالأديان التى خاطبها من قبل لم تزل كما هى بل اختلطت واضطربت فهى أشد حاجة من ذى قبل الى دعوته ، وارتطام كتل ضخمة من البشر فى حضيض الوثنيات ما زالت له هدات ووجبات ، ولم يجد جديد سوى أنظمة مادية تسمى عقائد مجازا وليس فى واحد منها — الا ما سار فى ظل القرآن — ما بلغ فى خطورته عقائد

الخوارج التى خالفت أهل السنة والشيعة جميعا ثم انتصر الاسلام عليها بيقين ثابت وبرهان متين .

آداب القتال :

وقد أخذ الاسلام فى الحرب بمبدأ السياسة واللين ورآه أشد استئصالا للعدو من صرعة المكابرة ، وقد قال الرسول الحكيم فى بعض غزواته لأصحابه « أيها الناس ، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ، قال ذلك علما منه بأن اللقاء قد يكون أضعف حيل الحرب وأن أحزم القادة من لم يلتمس الأمر بالقتال وهو يجد الى غيره سبيلا .

وفى وصية عمر بن الخطاب لسعد بن أبى وقاص ومن معه من الأجناد ، جمع عمر كل آداب الجندى فى زحفه للحرب وكانت من قبل فى وصايا النبى وأوامره ومراقباته فكملت بها المحافظة على مكاسب النصر والصبر على قروح الهزيمة ، ثم صارت الوصايا فى الحرب تقليد الخلفاء والقواد لكل بعث أو رباط .

وأول تلك الوصايا الاستقامة فى مسلك القائد والجندى معا ، فعلى كل منهما أن يلتزم التقوى ويحترس من المعاصى — لا كالجند الكافر الذى ينهم الى اللذة والظلم حين يظن ملاقاة الموت — وقد جعلها عمر أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة على الحرب ، وضرب المثل بالانتصارات فى الغزوات وفى عهد أبى بكر ، وأنها لم تكن بكثرة عدد ولا بقوة عدة وانما كانت بالاستقامة التى نصرت قلوبا جميعة سليمة على عدو متفوق مرتطم فى المعاصى .

وقد فصل عمر واجبات القتال فأوجب على القائد رعاية الجند والسلاح والمؤونة وأمور الزحف والتقهقر والسرايا ، واذكاء الحراس على العسكر والتيقظ للغرة والمفاجأة ، وأوصى القائد بالاصغاء للمشيرين النصحاء فنفى بذلك كله أن يقود المعركة مجازف أو مجنون ومثلها تماما أن يقودها عاقل مستبد يتصرف كما يشاء .

وأوجب عمر على الجندى المسلم — حتى فى أشد أوقات حرجه وضيقه — أن يضبط نفسه وأن يحاسبها ، فاذا لم يكن بد من الاستشهاد فان غضب الله فى انتظار من يفر من الزحف الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة من فئات المسلمين .

وسرقة الغنائم التى سميت غلولا حرمت على الجندى والقائد ، ولم يرصد أشد العذاب للجندى الذى يغل الا صيانة للمعركة ذاتها من أن تضطرب وتتلوث ، اذ لن يكون هناك متسع للسرقة الا قبل احصاء الغنائم التى هى حق الجند جميعه وحق المسلمين ، والا حيث يتلهى المحارب عن واجبه فى الاقتحام الى طمعه فى الالتهام ، ولعل درس الهزيمة فى أحد كان سببا فى سن هذا العقاب الشديد حيث طمس الطمع آثار الانتصار .

والغلام الذى أهداه رفاعة بن زيد الجذامى لرسول الله وحارب بين يديه فى غزوة « وادى القرى » فأصابه سهم طائش فقتله لم يرض رسول الله أن يهنئه باستشهاده فقال لهم « ان الشملة التى أخذها من المغانم يوم خيبر لتشتعل عليه نارا » . وما زال تحريم الغلول يتعالى ويشتد فحرم على النبى ذاته فقال تعالى : « وما كان لنبى أن يغل .. » وذلك حتى يقتدى به القواد وأمراء الفتوح .

ولم يكثر سراق الغنائم والنهابون الا فى كل زمان مدبر . ويكثرون فى نكبة القدر حين لا يريد القدر أن يتخذ جسورا لعبوره من أيدى العدو المغير . والقائد المحظوظ فى المعركة هو الذى يتربص لهؤلاء ويقطع أيدى السراق قبل أن تمتد فى حماية الجهل المظلم والشر المبيد .

وليس الاهتمام بكتمان السر من كل آحاد المقاتلين والمتصلين بالحرب أقل من الاهتمام بشئون القتال الأخرى . وأمر السر متفاوت فمن أفشى سر نفسه فقد ظلمها ، ومن أفشى سر أهله وأصحابه فقد فضحهم وافتضح ، أما من أفشى سر قومه فقد عد خائنا وعدت خيانته الجريمة العظمى التى يستحق عليها أشد العذاب ، وقصة حاطب بن أبى بلتعة وسارة المغنية فى أمر افشاء السر مشهور لولا أن الرسول عفا عن حاطب لأنه كان ممن حضر بدرا ورضى النبى اعتذاره للسابقة وصدق الاعتذار .

الحقوق الانسانية :

وأعداء أبى بكر الصديق الذين كانوا أصروا على أن يدعوه دائما بابن أبى قحافة لو كان كشف لهم عن حال العالم اليوم لعلموا أن ابن أبى قحافة الذى صار فى عالمهم القديم سيد العالم ما تزال فكرته فى الحرب جديرة آن تسود العالم اذ يتمنى الناس مثلها فلا يستطيعون .

بل كان حقا لقوة أبى بكر ولأمثالها أن تسود العالم أبدا قديمه وحديثه فانها لم تجنب خلق التدمير وحسب بل جعلت مجانبة التفكير فى التدمير والتعدى شريعة يلتزمها القائد لا محالة والا أصابه العزل مهما كان منتصرا . وما حدث لخالد بن الوليد مرتين كان تنبيها للمرة الثالثة التى عزل فيها ، فقد استغفر له النبى لقسوته فى فتح مكة وفداه أبو بكر من بيت المال فى حروب الردة ثم لم يكن بد من أن يعزله عمر وهو منتصر فى حروب الشام . ومن قبله عزل أبو بكر خالد بن سعيد بعد أن عقد له ، فكره عمر ذلك ، وكلم أبا بكر فى عزله قائلا له : انه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله الصديق .

ووصية أبى بكر التى أمر فيها يزيد بن أبى سفيان بالابقاء على الزروع والضروع والنخل والثمر وحماية النساء والأطفال وتأمين الرهبان الذين انصرفوا الى العبادة ، وحماية المستأمن واللاجىء والوفاء بالعهود والمواثيق كانت تهذيبا للقوة المنطلقة نحو أهداف عليا لتظل أسمى من أن تسترق الأحرار أو تستذل الناس .

وهذه الوصية التى كانت خطوطا للمسلك الحربى الاسلامى واجبة الاتباع يتعلق العالم كله اليوم بأهداب ثيابها ، ولن ينقذه مما وقع فيه من استعداد خاطىء للحروب الا أن يلجأ الى فكرة الرسول الحكيم فى الاستعداد « فى صانع يحتسب فى صنعته الخير » هذه الفكرة التى كانت قد تاهت ثم وجدت فى قوله صلى الله عليه وسلم فلا يكون صانع الأسلحة محتسبا فى صنعته الشر كصانع النوويات اليوم .

ومن أروع المطابقات أن يتفق ما أحدثه العلم اليوم مع ما جاء فى السمعيات التى وصفت الملك صاحب الصور بأنه قد التقمه ثم ألقى بأذنه الى

العرش ليسمع متى يؤمر وكأنما يمثله اليوم حامل قنبلة نووية يصغى بسمعه فى طائرته أو قاعدته الى مذياعه يتعجل يوم القيامة وينفخ فى الصور .

وفيما لو وقع القتال بين طائفتين من المسلمين ، قد بغت احداهما على الأخرى ــ وقد توقع القرآن حدوث ذلك ــ فقد شرع على بن أبى طالب فى ندائه اثر وقعة الجمل وفى وقعة صفين أن لا يجهز على جريح ولا يتبع مول ولا يطعن فى وجه مدبر ولا يقتل أسير ، ولم يأخذ من متاعهم شيئا ، وكان هذا نفسه نداء مؤذن النبى يوم الفتح ، وكان نفسه فى حروب الردة كلها .

وقد فرضت الشريعة الاسلامية للاسرى من الجانبين حقوقا : فأوجبت التعجيل بسفاداة أسرى المسلمين ، وكان عمر يقول : لأن استنقذ رجلا من المسلمين من أيدى الكفار أحب الى من جزيرة العرب . ولعل المنصور العباسى الدوانيقى قد نسى ذلك حينا فلم يفاد أسراه من الروم فصرخ فى أذنه الأوزاعى البيروتى وكتب اليه يعظه بقول الرسول وفعلته فأسرع الى بذل الفداء .

وأما أسرى الأعداء فقد أوجبت الشريعة الاسلامية معاملتهم بالحسنى من الاطعام والالجاء والحماية حتى يحدث المن أو الفداء .

قسم الغنائم :

فيما سمى اليوم بميزانيات الدول تحصل الجيوش ومصانع الأسلحة وعمالها على نسبة ضخمة من المال . وتبلغ الفتنة بالجهال مبلغا كبيرا من التعسف فى نقد ما ينفق على الاستعداد للحرب ، حتى لو احتسب العمال فى صنعتهم الخير . ولكن هذا النقد ما لم يرتفع الى مناصرة السلم العالمى فانه يكون هراء وجعجعة ، ففيما فرض الاسلام للمجاهدين من المال ما يكاد يكون كل المال الذى تملكه الدولة ويملكه الأفراد وذلك على ديمة واستمرار ثم يضاف اليه أحيانا ما يجىء من غنائم الفتوح .

ولم يكن الاستعداد للحرب ممكنا منذ أول الأمر الا والدولة تهب له كل القوى وتحشد له الآلات والذخيرة وتطورها وتعد له أكفل المؤونة ، وكانت المدينة تشهد قبل كل غزوة للنبى ازدحام الخيل والرجال والسلاح بما

يدرك منه القادم الغريب لأول وهلة أن معركة توشك أن تدور رحاها اليوم أو غدا ، وقد لا تكون الا بعد عام .

وكان لابد فى مقابل ما ينفقه المتطوعون من نفوسهم وأموالهم لاعلاء كلمة الدين أن يكون تعويضهم عند الانتصار مجزيا ، ففرض الاسلام لهؤلاء أربعة أخماس الغنائم ، ولا يخفى أن هؤلاء المحاربين كانوا فى الغزوات الأولى وحروب الفتوح كل رجال المسلمين وشبانهم ، ولم يسمح لأحد بالتخلف عن التطوع الا من عجز أو كان صبيا اذ رد النبى فى غزوة بدر كل من لم يبلغ الحلم ، ولم يجازف باختراق هذا الحد ويجند الصبيان فى الاسلام غير الحجاج بن يوسف فى جيش بلال الضبى الذى سمى جيش « ببى » ومع ذلك فقد تمكن هؤلاء الكشافة من اختراق القلاع والحصون .

ولم يكن لأحد من الجند أن يستولى فى ميدان القتال أو دور الحرب على نصيبه من الغنائم أو يبيعه لأحد ، وانما تنقل كلها الى دار الاسلام ثم يستصفى منها ما لا ينقسم لئلا تثور حوله الاطماع فيكون للنبى باختياره قبل القسمة كالسيف والفرس والجارية ولو لم يحضر القتال ، وكذلك ما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكان يستصفى نصفه للرسول وضعفاء المسلمين كما كان فى فدك أيام الرسول ، ثم تصيب الأخماس الأربعة كل من اتصل بالمعركة بسبب من المحاربين وأهل الديوان وصناع السلاح والخيل التى حاربت تحت الفرسان .. ثم سقط حق الاستصفاء عن كل رئيس بعد الرسول .

والمعروف أن هؤلاء الجند لم تكن لهم مناصب فى الدولة يتقاضون عنها مرتبات ، ولعل الرواتب كانت تغير النظام الذى جرت عليه قسمة الغنائم ، ولكنهم كانوا جميعا من المطوعة الذين فرض عليهم أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله .

وربما ثبت فى الغنائم حق للمقاتلة فى حرب لم يحضروها كما حدث فى الحروب الأولى ذات الدفاع عن العقيدة أو نشرها ، ومثل هؤلاء من نسميهم فى عصرنا بالمحاربين القدماء وأبنائهم ، وكانوا يدعون قديما بذوى السابقة ، فكان يقسم منها على من تجهزوا لمعركة سابقة ثم لم يخوضوها ، وكذلك

على الضعفاء الذين شردوا من ديارهم ، ومثل هذا حدث فى غنائم خيبر فانها قسمت الى ألف وخمسمائة سهم وثمانين سهما منها لأربعين كانوا مع جعفر ابن أبى طالب بأرض الحبشة والباقية للباقين الذين شهدوا بيعة الحديبية وصلحها مع رسول الله .

وخمس الغنائم الذى كان لمن سماهم الله فى كتابه « لله ورسوله ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » فقد صار يتحول فلم يثبت حق الرسول وحق ذوى القربى على حال : فجعل الأول حينا للخلفاء والثانى لذوى قرباهم . ولم يثبت للثلاثة الآخرين ان صارت لهم تجارة أو مال ، وكذلك اذا قعدوا عن القتال بغير عذر مقبول . وعلى خلاف بين ابن الخطاب وابن عباس أمضى عمر رأيه فى انفاق حق ذوى القربى فزوج منه أيامى النساء وقضى حق الغرماء وأخدم الضعفاء ، ثم رده عمر بن عبد العزيز والفقهاء عليهم . ولم يفعل ابن الخطاب ما فعل الا فى آخر سنة من خلافته حين رأى غنى أهل البيت وارتفاعهم عن الحاجة . وحين توالى الخلاف وتفرقت الآراء حول سهم الرسول وذوى القربى أجمعوا على أن جعلوها فى الاستعداد والسلاح . وكأنه لم يثبت وجه واحد فى توزيع الغنائم فصرفه رئيس الدولة حسبما كانت الحاجة ووقع الاضطرار ، وما من شك فى أن هذا قد مهد الطريق للرأى ، فاذا تولت الدولة رفع الضيم عن المحاربين بما تفرض من الرواتب والمعونة والهبات والمكافآت حل لها أن تصرف ما يأتى من الغنائم كله الى الاستعداد والسلاح ورواتب الجند ونفقات الديوان .

وحق المؤلفة قلوبهم الذى عطله عمر بن الخطاب فى عهده من الغنائم لم يكن جورا على التشريع وانما كان وضعا له حينا فيما يليق ، فاذا بدا للحاكم العدل أن يعيده لضعف أصاب المسلسين فان له أن يعيده ولا خلاف بينه وبين عمر لو أعاده . ولعلنا اليوم نراه من أوجب الواجبات لما صارت اليه حال المسلمين .

الجزية والخراج :

ولسنا نسلك فى بحثنا هذا مسالك الفقه الذى يتتبع الأجزاء والتفاصيل ويهتم بتدوين الفروق والخلاف ، فان ذلك قد دونه الأئمة الأقدمون تدوينا

بالغ الدقة والصدق ، ولكننا نكتفى بذكر ما يتصل منه بفكر الحضارة الاسلامية التى تهدف الى أن يتبين القارىء ما كان به من تعال وسمو ، وقد لا نجاوز آراء القرآن والحديث وعمل الراشدين الا قليلا مخافة أن يظن أن بعض الأنظمة التى سنها بعض ولاة الجور كانت من الاسلام .

وأول ما يقرع الظنون أن الجزية والخراج على الرءوس والأرضين كانت مضروبة على الأوطان التى فتحها الاسلام من قبل فتحه وسواء أكانت محكومة بأهلها كأرض فارس تحت الساسانيين أو بالمستعمرين الغرباء كسورية ومصر تحت الرومان . ولم تكن الجزية التى فرضها الاسلام على رءوس الذين خضعوا للصلح ولم يسلموا كتلك التى كانت من قبل وان كان الاسلام قد وسم دافعيها بسمة الصغار ، ولعل هذه التسمية لأن الاسلام لم يفرضها على جملة جملة دائما وانما فرض أن يسبقها احصاء الرءوس ودقة البحث لئلا يفر أحد قادر منهم بوضعها عليه ، وكان على المحصين أن يدركوا الآبقين فى الأماكن التى أبقوا اليها ليؤدوا ما صار عليهم فى سنوات الاباق .

ويهود الشام وحمص الذين كانوا أهل ذمة للنصارى يؤدون اليهم الخراج كانوا أكثر فرحا بتأدية الخراج للمسلمين ، ولذا فقد دخلوا معهم فى صلح المسلمين ليرفعوا عن كواهلهم أثقال القديم .

وقد تصور أنزه الكتاب أن رفع جزية الرأس عن الذى يسلم كانت من الأسباب فى اقبال الناس أفواجا على الاسلام . وتصور من لم ينصف ان الدخول فى الاسلام كان بالقهر والارغام . ونسى هؤلاء وهؤلاء أن رفع جزية الرءوس عن الضعفاء والمرضى والأطفال والنساء والرهبان — الا الذين لجئوا كذبا الى الرهبنة فرارا من جزية الرأس — انما كان سببا عرفت منه الرحمة فى دين الفاتحين .

وضرب الخراج على الأرض ثم على أهل الكسب فى المدن وتحديد وقته بالحصاد أو تمام العام كان لئلا يرهق الخراج أرضا ولا كسبا ولكنه لم يكن ليسقط بالاسلام كما تسقط الجزية لأنه حق واجب فى المال تحت أى نظام تتخذه الدولة ، وانما خففه الاسلام بعض التخفيف .

وما لم يستطع الجند المسلم أن يحمى النواحى التى يفرض على نفسه حمايتها فى شروط الصلح فقد كان عليه أن يعترف بهذا العجز فيرد ضرائب الجزية والخراج الى دافعيها لأنه لم يفتح البلاد للنهب وانما فتحها لتستقر فيها العدالة ويأمن الناس .

والحماية كانت حمايتين : حماية من جند المسلمين أنفسهم أن يعتدى أحدهم على منسك من هذه المناسك ، وحماية من عدو مغير يسقط معه لو انتصر كل سلطان للاسلام ، فكان يرد على البلد كل ما كان قد أداه من جزية أو خراج .

وقد ردت ضرائب حمص ودمشق الى أهلها حين انتصر هرقل فى بعض حروبه على العرب بينما لم يعفها هرقل قادما أو هاربا ، فكان رد الضرائب جملة للأهلين سببا فى انضمام أهل البلدين الى العرب ضد الروم ثم الدخول فى الدين الجديد .

الرغبة فى السلام :

وفى خارج الجزيرة العربية لم يعقد الاسلام صلحا مع الحكام الساسانيين والروم لأن الأولين فروا عن أراضيهم والآخرين كانوا غرباء ، وما جاء الاسلام الا ليخلص الأرض من مستغليها ومستعمريها ، فلم ير أن يمد يده بالصلح الى هؤلاء أو هؤلاء ، فلا شأن لهم ، وانما الشأن لأهل البلاد الأصلاء ، ولذا فقد عقد الاسلام صلحا مع أهل مدن فتحت فى الشام ومع القبط أنفسهم فى مصر وعليهم المقوقس القبطى ولم يعقد قط صلحا مع الرومان فى شأن تلك البلدان ، وكان هذا سببا آخر فى اقبال أهل البلاد الأصلاء على الاسلام واستقراره فى بلادهم .

وأهم ما كان يعقب المعركة الحربية الاسلامية المنصورة أو المهزومة انما هو صلات المسلمين بمن حاربوهم أو وقفوا منهم ومن عدوهم على حياد ، أما هؤلاء فقد حرم على المسلمين أن يصيبوهم بأذى . ومخافة أن يصيب أهل ذمة أو صلح أذى لو كانت منازلهم فى طريق الزحف ، أمر عمر قواده أن لا يأذنوا بدخول ديار هؤلاء الا لمن وثقوا فى أمانته ودينه ، وذلك لئلا يهيجوا عليهم القلوب ويكدروا النفوس .

وأما أولئك فان كان الله قد أظفرهم بهم خيروهم بين اثنين : الاسلام أو الجزية ، وان رجعوا عن المعركة منهزمين أنفذوا شروط الصلح مهما كانت الشروط مثقــلة ، فلا بد من الوفاء ، وصلح الحديبيـــة أول مثل ضرب فى الاسلام خضع فيه المسلمون لشروط جائرة وكان الصبر عليها كفيلا بالخروج منها من قريب .

واسلام العدو الذى يهبه على الفور كل حقوق المسلم كان مثلا للمساواة بين الغالب والمغلوب التى تدهش لها عقول من يعرفون شراسة الاضطهادات الدينية التى ارتكبها أهل الأديان الأخرى فى كل العصــور . واباء العــدو الاسلام لا يكلفه غير الجزية والخراج الا اذا كان من أهل الردة أو من عبدة الأوثان فليس عليه سبى ولا جزية وانما كان القتل أو الاسلام .

وقد شوهد أن مجاورة الذمى للمسلم فى البلد المفتوح صلحا أو عنوة ومزاولة التجربة بالرفق وحسن الجوار ومصاهرة العرب لأهل الذمة ، كانت كلها دوافع قوية لاسراع أهل الذمة الى التخلص من حال دافعى الجزية الى الارتفاع الى مكان المسلم فدخلوا فى الاسلام أفواجا .

وقد عمل قانون الجاذبية — الذى يعمل عملا ظاهرا فى المادة — نفس العمل فى الروح وفى السلوك ، فقد تم لبعض أهل الذمة أن كانوا فى سلوكهم اسلاميين حين انطبعوا بالجوار على الخيــر والمعروف وبقوا على ســلوكهم الشريف ، بل شـــاركهم الذين تأثروا بالاسلام من بعــد بتبادل الدراسات والتجارة والرحلات حين أحسوا بالتسامح الاسلامى الذى يقول فيه (ارنست رينان) : لم يظهر قط فاتحون بالغوا فى التسامح والحلم نحو المغلوبين كما صنع العرب . وليس يطعن فى ذلك الأمر بشد الوثاق على الكفار بعد اثخانهم الذى أوصى به القرآن ، اذ لا يراد منه الارهاق وانما احكام شروط الصلح ، ولا يكلف فوق طاقته عدو مقهور .

وقد يظهر ذلك غير مقبول لأول وهلة ، ولكن من يرى الدعوة للاسلام أو الجزية تسبق القتال ، ويرى الحث على تسكين الهياج ومسالمة المحايدين ، ويرى الأوامر المتكررة فى القرآن بالوفاء بالعهود وعدم نقضها ، ويرى الأمر

بالجنوح الى السلم فور جنوح العدو له ، ويرى الوصـايا بالتزام جانب الاعتدال والتخفيف من شروط الصلح — كل من يرى ذلك تذهب عنه أول وهلة ويستيقن أنه ليس أعطف على السلام من الاسلام . وقد صارت المدينة حرما آمنا حرمها النبى كما حرم ابراهيم مكة لا يختلى خلالها ولا يعضـد شجرها ولا يحمل فيها سلاح للقتال ، لأن فتح المدينة كان أفضل الفتوح : لقد فتحت بالدعوة دون اراقة دم أو لفحة عناد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما يفتح من مصر أو مدينة عنوة فان المدينة فتحت بالقرآن » .

ساعة العسرة

بدر وتبوك • غزو مرير • سياسة الانكماش • زيادة الايمـان • أبو خيثمـة • الذين خلفوا • شـدة الابتلاء • التوبة والأحكام •

بدر وتبوك :

كانت غزوة بدر أول غزوة بدأ بها النبى جهاده ثم كانت غزوة تبوك آخر غزواته . وبينما كان المسلمون عند الغزوة الأولى فى أشد الحاجة الى يد تعين وشخص يزيد وكانوا فى الأخيرة قد كثروا واستغنوا فانه لم يعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاتب أحدا من المهاجرين والأنصار لم يخرج معه الى القتال فى بدر مع القلة والحاجة . بل ان رسول الله رد من الصبيان من رآه صغيرا يتطاول فى الصف ليطول قامات الرجال ويخفى عن رسول الله صغر سنه ، وجعل النبى القائد يهمس بزج رمحه من فعل ذلك ويخرجه من الصف رحمة بأهله ولأنه لم يتهيأ بعد للقتال .

وكذلك فعل رسول الله فى كل غزوة خرج اليها بعد بدر ، فلم يغز الا فى فئام من الناس دون فئام ولم يستوف قط ، حتى كانت غزوة تبوك استنفر كل المسلمين واستوفى ولم يعف أحدا الا بعذر مقبول .

ولبى الناس نداء النبى وخفوا الى طاعته والامتثال لأمره ، فى ألوان من النفوس تؤمن وتنافق ، وخطى من السير تنهض وتتعثر ، وأقوال من الألسنة تثير وتثبط ، ولكن رسول الله لم يرد أحدا ممن خرج معه فى هذه الغزوة وكأنما انقلب الأمر من تطوع حر فى الغزوات الأولى الى اجبار قاس فى الغزوة الأخيرة ، وأحس كل مؤمن برغبة النبى وحدة صدقه فأخذ يستعد ويتأهب ، وجعل كل من له عمل أو زرع أو تجارة ينجزه ويكمله — مهما تفرعت حواشى المكاسب — حتى ينفض منه يده حين تحين النفرة ، فاذا حانت كان على كل رجل أن ينفض يده من رزقه وينتظم فى صفه . فلما حانت ومرت الصفوف وكان أحد الرجال فى طريقها لم يزل يسقى نخلات له وهو بعد لم يبل أرضها بالماء ولم يكن له غيرها يأكل منها ويعيش نفض يده منها ومن مائها ومضى فى الجماعة وهو يقول : الغزو مع رسول الله خير منها .

ومع أن الذين خرجوا قد بلغوا ألوفا كثيرة وكان من أوجب الأمور أن تحصيهم جريدة أو ديوان فان رسول الله ترك لأهل المدينة وللقبائل أن تحصى أنفسها لتعرف من خرج ومن لم يخرج . أما رسول الله فانه لم يغب

عن عينه كل من تلكأ أو تخلف من أصحابه الأدنين بعذر أو دونه ، كما لم يغب عن قلبه وسمعه كل أنة أو همسة تتحرك فى هذا الجيش الكبير فكان ينبىء بها ليمضى المؤمن فى ايمانه وينخذل المنافق عن نفاقه .

ولم يكن كل ما حدث فى هذه الغزوة ــ مما لم يحدث من قبل ــ عجيبا من قائد أمة يرى من الحكمة أن يحمل كل فرد فيها عبئه وينهض بواجبه ، فقد صارت الأمور الى غير ما كانت من أعباء وآمال . وكان من الحكمة أن تنتقل عين القائد وسمعه وقلبه الى أرضه وقومه وجنده فيرى كل حاضر وغائب ويسمع كل حاث ومثبط ويعرف كل مطيع وغادر اذ لا تستقيم أمور الأمة كلما كبرت الا بأن يكبر العلم بها ويزداد الوعى بأمورها ، والا فهى أقرب الى التفكك والدمار ان تركت لعين الغفلة تنام عنها أو للفوضى تقودها وترعاها .

غزو مرير :

وندب النبى الناس الى هذه الغزوة فى عام مجدب كان خريفه يابسا وشتاؤه ممسكا وربيعه مانعا الا أموالا قليلة وابلا متناثرة هزيلة وثمرات على قلتها لم تبلغ النضج ولم تملأ العين .

وبدأت دعوة النبى الى الغزو منذ الخريف فى ذى الحجة ثم خرج للغزو فى رجب من العام التاسع من هجرته . وكان رجب فى ذلك العام قد جاء بلهبان من الحر تجفف ماتحت الظلال فاذا استرسل الحر الى البادية والصحراء التهبت الرمال وأشعلت السعير .

ولم تكن الغزوة هذه المرة فى ناحية من نواحى الجزيرة فقد أصبحت للاسلام قوة داخلية هائلة ، ويكفى لاخضاع قبيلة أو عدد من القبائل أن تسير اليها سرية بقائد صحابى فيستجيب الرؤساء ، ولكن النبى دعا هذه الغزوة الى أن تستقبل سفرا بعيدا وتحمل عبئا ثقيلا وتتجه الى دولة مخيفة السلاح ممتدة السلطان بعيدة آماد الأرض وأعداد النفوس .

كانت هذه الغزوة موجهة الى الروم ، فكان من حق كل نفس أن تتردد ولا سيما قبل أن يكتب تاريخ المسلمين أن اشارة النبى هذه كانت أمرا لابد

من تحقيقه بتحطيم الروم ، وقبل أن يمضى قتيبة بن مسلم البــاهلى بنفس تعاليم هذا الجيش لفتح خراسان بنحو ثمانين عاما .

وكان التهكم أيسر على نفس الجبان وأهون على قلب المنافق فبرز من المنافقين الجبناء من يهمس فى آذان الناس ويقول : أتحسبون جــلاد بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضا ، والله لكأنا بكم غدا مقرنون فى الجبال .

وربما كانت وقعة مؤتة التى حدثت من قبل قد بقى ظلها يخيف الجبناء فقد قتل الروم فيها ثلاثة من خيرة قواد العــرب ثم انســحب الجيش . ولم يستطع الخائفون حينئذ أن يقدروا بطولة خالد بن الوليد فى انسحابه بجيش المسلمين سليما ، أما النبى فقد قدره نصرا أكيدا أو حيلة للنصر المؤجل ولقب خالدا بسيف الله المسلول .

ومع أن النبى كاشف المسلمين بأمر هذه الغزوة دون أن يورى كما كان يفعل فى كل غزواته وظل يدعو للتهيؤ والاستعداد ثمانية شهور كاملة ، فانه قد غمض على الناس أن يكشفوا السر الذى بعث النبى اليها ، فقد يكون ثأرا لموقعة مؤتة وقد يكون ارهابا للروم حين بلغ النبى انها جمعت له جموعا كثيرة بالشام وان هرقل قد دفع لجنده أرزاقهم لسنة مقدمة وأن قبائل العرب فى الشمال قد أجلبت معه وسارت فى مقدمات جيشه . وسواء أكان واحدا من هذه الأسباب أو من غيرها أو كانت كلها جميعا فان اختفاء السر كان عبئا ثقيلا أضيف الى أعباء الجدب والحر ومشقة السفر وحرب الروم .

ولم يسع القائد الحكيم — مع كل هذه العوائق والهموم — الا أن يندب للحرب وأن يعمم الدعوة وأن يستوفى وأن ينذر بالعتاب والعقاب كل متخلف بلا عذر . ولم يجد المسلمون بدا من الطاعة — مهما اختلفت درجاتهم فى الايمان — فلبوا القــائد وخرجوا معــه بالأنفس والأموال والمراكب والأزواد .

كان الذين خرجوا فى بدر ثلثمائة وبضعة عشر وفى أحد سبعمائة وفى خيبر ألف وخمسمائة ويوم الفتح كانوا عشرة آلاف ويوم حنين كانوا اثنى عشر ألفا ، أما تبوك فقد بلغوا أكثر من ثلاثين ألفا .

ولم تجد غزوة من مشقة وهم مثلما وجدت هذه الغزوة اذ لم يكن معها ما تجره من الدواب والطعام والماء ما يناسب العدد والحر ومدى الطريق ، بل لم تكن النفوس التى انتظمتها كلها ذات صدق ووفاء ، ولكن بحسبهم أن كان منهم بقية من أهل بدر وكثير ممن جربوا المشقة فى كل الغزوات .

سياسة الانكماش :

وبدأ النبى حين دعا النـــاس الى الاستعداد لغزو الروم بدعوتهم الى الانكماش وسياسة التقشف اذ كان فى شبه حصار من الطبيعة ومن الروم معا ، وظل يدعو الى ذلك ثمانية أشهر كاملة ، وكان ما لا بد منه لكل قائد يخرج بقومه من مآزق الحصار حتى ولو كان نبيا .

واستجاب الناس فربطوا على بطونهم ورفضوا شهواتهم ، بل ترفع كثير منهم عن كثير من الحلال ، ووجد الاسراف العيـــون التى تزدريه والنفوس التى تمجه ووفر الناس الابل للركوب — ولو أنهم لم يستطيعوا الا أن يوفروا لكل عشرة أو أكثر جملا واحدا — وأبقى كل من استطاع ما اقتدر عليه — ولو قبضة كف من ذرة أو تمر أو كسر من الخبز والشحم والقديد مهمـــا تغيرت أو عطبت — ويكفى أن تشق التمرة أو تقسم الكسرة بين اثنين أو أكثر وأن يبل الماء الريق أو يرطب الشفاه .

ولم تكن الأمة الاسلامية — ومعها كل الأمم حين ذلك — تعرف من سياسة الانكماش ما عرف من بعد ، من توفير السلع لترخص وتباع ثم ترد أثمانها على انتاج جديد — كما يقولون اليوم فى علم الاقتصاد — ولكن الأمر — ولم يكن علما — كان بديهة للتقشف والتوفير ثم رد ما بقى على الحاجة الى الغزو والقتال ، فالأمر هو نفسه ، مهما كان بديهة أو كان علما .

ولما آن للنبى أن يبدأ السير للغزو كانت الثمار القليلة — ولا سيما فى المدينة — قد آن لها أن تطيب ، وتطلعت اليها العيون تعد لها الأيام ، كما اشتاقت النفوس وحنت الأبدان الى التفيؤ بالظلال والأشجار . ولكن النبى أصدر أمره بالمسير قبل أن تجنى الأيدى ثمرة أو تركن الرءوس الى ظل فوقع الناس فى أبأس انكماش .

ودروس العفة والايمان كانت تلقى من قبل على فرد أو جماعة ، ولعل آخر درس ألقى منها كان على الأنصار فى غنائم حنين حين امتدت شهواتهم اليها والنبى يؤلف بها قلوب أهل مكة . وكان كل درس نافعا بليغا فى نطاقه الضيق ، فلم يبق الا الدرس الجامع الذى هو أنفع وأبلغ ، وعلى القائد أن يلقيه على الأمة جميعها حتى تعرف سبيل التهيؤ الجماعى العريض للقتال المرير والنصر الأكيد القريب .

وعلم النبى فى هذه الغزوة كل الأمة أن يتقارب البعداء ويتعاون الغرباء وأن يشعر كل فرد بقوة الجماعة وسطوة الوحدة ، ويتعود كيف يمضى فى الشدة كما يمضى فى الرخاء ويحتال للمآزق حتى ينجو بنفسه وبقومه . ولم يكن هناك من مفر للأغنياء الذين تسير أممهم فى الحميم الا أن يسيروا معها ولو شقوا كروش الابل ليشربوا ماءها ويبلوا جلود أكبادهم فى لهب الحر بما بقى منها رطبا مبلولا كما فعل جيش العسرة فى تبوك .

زيادة الايمان :

ومهما اختلفت آراء الفقهاء حول زيادة الايمان ونقصه أو بقائه قدرا لا يزيد ولا ينقص فان أفضل الآراء أن زيادة الايمان ترمى الى مضاعفة العمل الصالح لزيادة الثواب والأجر ، وبهذا المعنى عمل كثير من الصحابة الأولين وكرروا العمل وضاعفوه ولم يملوا قط ، وكان من بين هؤلاء رجال لم تبق قمة فى الجاه الا بلغوها ولا رتبة فى الدين الا صعدوا فيها ، وربما كان أحدهم من السابقين الأولين العشرة الذين ضمنت لهم الجنة ثم كانوا ممن حضر بدرا فغفر لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر غير أنهم مضوا يعملون ويضاعفون رغبة فى الزيادة وطمعا فى الدرجة ، ومع أن الوعود التى سبقت لهم بالجنة والمغفرة لن تنقض حتى لو أخطأوا كما أخطأ حاطب بن أبى بلتعة وثعلبة بن حاطب البدريان فعفا النبى عن الأول وهجر الثانى وقاطعه ، فقد طلب هؤلاء مزيدا من الايمان والاحسان ، ولم يكن الوعد بالجنة غاية يقفون عندها دون المضى مع رسول الله ونصره ومؤازرته فى كل وجه يريد .

فحين استنفر النبى المسلمين الى تبوك وكان ذات مرة على منبره فى مسجد المدينة يحث على جيش العسرة ويوضح للناس أمرهم ويجليه ويخبرهم

بوجهه الذى يريد ليتأهبوا أهبته قام عثمان بن عفان رضى الله عنه — وكان أحد من أقبلت تجارته بربح وفير — فقال : يا رسول الله ، على مائة من الابل برحالها وأحمالها .

وتهلل وجه رسول الله اذ وجد فى الأمة التى ضاق بها الخطب وأذهلها الجدب والغزو مثل عثمان ، ثم استمر يخطب ويحث الناس واذا بعثمان يقف مرة ثانية وهو يقول : وعلى مائة أخرى برحالها وأحمالها .

وسرت موجة فى الصحابة من الفرح والاعجاب بعثمان وزاد وجه النبى اضاءة وتهللا وكأنما انتظر قليلا على قمة منبره ليجود أحد من الناس كما جاد عثمان فلم يفعل أحد ، لأنه لم يكن أحد ربح كما ربح ، فنزل النبى مرقاة من المنبر ثم وقف واستأنف الكلام لعل جوادا يفعل ، فما كان من عثمان الا أن وقف مرة ثالثة يقول ، على مائة ثالثة برحالها وأحمالها .

قال راوى الحديث : فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال بيده هكذا — أى يحركها كالمتعجب — ثم قال « ما على عثمـــان ما فعل بعد اليوم ! »

ابو خيثمة :

ومضى القائد بجيشه الى لقاء الروم ولقى الناس من العسرة ما لم يعرف وصفه الا الأكباد التى احترقت والابل التى شردت والرمال التى احترقت ، ثم بلغ النبى تبوك دون أن يلقى كيدا أو يجد عدوا ولكنه كان قد أحصى كل من حضر من أصحابه الأقربين وكل من غاب ، وكان ممن رحمه النبى رجل يقال له أبو خيثمة كان قد عرف عنه الطاعة وصدق الايمان ثم عرف عنه القدرة على الخروج والغزو ، وكأنما تمنى ان لم يكن قد غاب ، بل كان على ثقة من قلبه — وهو نبى — انه سيلحق به لا محالة .

وكان أبو خيثمة عبد الله بن خيثمة — أو أبو حتمة كما احتملوا — غنيا ذا زوجة حسناء وصاحب ظلال تكاد تورف وثمار تكاد تطيب ، وحين خرج رسول الله بجيشه تخلف أبو خيثمة يتلهف على ظلاله وثماره ، ثم أوغل رسول الله فى الصحراء نحو تبوك ومضى فيها أياما .

وأبو خيثمة كلما انفجر صبح أو خيم ليل تمنى أن يلحق برسول الله وتحرك لأمنيته ثم لم يجد من نفسه بعثا على المضى ولا اصرارا ، حتى اذا مضت عشرة أيام ورجع الى أهله للقيلولة فى يوم قائظ ملتهب وجد امرأته قد استظلت بعريش لها فى بستانه وقد رشت أرضه وبردت الماء وهيأت الطعام . ودخل أبو خيثمة فرأى الحال على ما رأى .

وكأنما طارت شرارة من عينيه فرأت جيش العسرة وارتدت الى قلبه تلهبه وتحرقه فصمت الرجل صمتة كادت تهلك فيها نفسه ثم أرسل صوته يزجرها ويقول : يا سبحان الله ، رسول الله ، وقد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فى الضح والريح والحر يحمل سلاحه على عاتقه ، وأبو خيثمة فى ظلال باردة وطعام مهيأ وامرأة حسناء ! ما هذا بالنصف !

ثم احتد غضب أبى خيثمة فقال : والله لا أدخل عريشا ولا أكلم زوجة حتى ألحق برسول الله ، ثم أناخ راحلته وتزود وارتحل وجعلت امرأته فى أثناء ذلك تكلمه فلا يكلمها ثم شد على راحلته يطلب رسول الله فلم يلحق به فى الطريق .

ودنا أبو خيثمة من تبوك فرأى أصحاب رسول الله رجلا يسيل به السراب قادما من بعيد فقالوا : هذا ركب على الطريق . وما كادوا يقولون ذلك لرسول الله حتى نطق ما كان قد تعلق به قلبه فهتف لسانه يقول « كن أبا خيمثة » .

ولم يكن لأبى خيثمة أن يغيب يوما واحدا اذ لم يغب من قبل وهو فقير ، وقد سبق له أن تصدق بصاع من تمر وكان هو كل جهده فلمزه المنافقون فذمهم القرآن ومدحه فى قوله تعالى « الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات والذين لا يجدون الا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم .. »

وأقبل أبو خيثمة يدنو من مكان النبى صلى الله عليه وسلم فقال الناس : هذا أبو خيثمة يا رسول الله . فأناخ راحلته وسلم على النبى فقال له النبى — بين العتاب والتهديد — أولى لك ! فجلس أبو خيثمة بين يدى رسول الله يقص خبره ويفصله ورسول الله يقول له خيرا ويدعو له .

الذين خلفوا :

وكان لثلاثة آخرين قد قعدوا فى المدينة دون أن يخرجوا أثر بالغ فى نفس رسول الله ونفوس أصحابه اذ لم يكن منهم تردد أو نفاق ثم لم يظهر عليهم فقر . فلم تغب أشخاصهم عن عين رسول الله ، فقد كانوا أقرب اليه وألصق به جوارا .

وقعد فى المدينة غيرهم بضعة وثمانون رجلا ، منهم من لم يجد حمولة ولا طعاما فأذن له رسول الله بالتخلف فقعد فائض الدمع حزينا ، ومنهم من قعد ليقدم عذره بعد صدقا أو كذبا اذا رجع النبى بعد غزوه وحسبما يكون العود والرجوع بنصر أو هزيمة ، بل منهم من أقعده رسول الله لتميعه وهذره كما فعل بالجد بن قيس .

قال له رسول الله « يا جد ، هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟ » فادعى ذلك المتميع أنه يخاف ان هو خرج أن يفتتن بنساء بنى الأصفر . ولم يستح العابث أن يقول ذلك لرسول الله فأعرض عنه الرسول وتركه يرتكس فى فتنة أشد ، قال فيها القرآن « ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى الا فى الفتنة سقطوا وان جهنم لمحيطة بالكافرين » .

ولم تكن تخفى على رسول الله طباع الجماعات الكبيرة وما تموج به امورها فتلتقى أو تتناقض ، فكان رسول الله يداوى كل طبع بما يناسبه من دواء فاذا لم يجد ما يشفى الا الكى كوى .

غير أنه لم يكن فى بال رسول الله من المتخلفين مثل ما كان لأولئك الثلاثة وقليل غيرهم ممن لم يجدوا حمولة ولا طعاما ، فكان رسول الله كلما نزل شعبا أو ارتقى مكانا أو قطع واديا قال للذين معه « ان بالمدينة قوما ما سلكتم واديا ولا قطعتم شعبا الا وهم معكم حبسهم العذر » .

وكان هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك ومرارة بن ربيعة وهلال بن أمية وكلهم من الأنصار ، وقد حضر الآخران بدرا ولم يحضرها كعب ولم يعاتبه رسول الله فيها . وقد تخلف الثلاثة بلا عذر ولكنهم لم يضمروا كذبا ولا نفاقا فاجتمع عليهم الضدان : كانوا فى قدرة على الغزو فاستحقوا عقوبة التخلف ،

وكانوا على رسوخ فى الايمان وقد ظفر اثنـان منهم بعفو بدر فاستحقوا العفو ، فلم يبق الا شيء بين بين ولعله العتاب .

وليس شيء أمر على المؤمن من العتاب على التقصير ، وهو بالغ أشد المرارة لو كان رسول الله ذاته هو الذي سيتولى ولايته وينفذ أمره . واذا هان العتاب على جندى فى آخر الصف فكيف به على نفس رجل ككعب بن مالك صار فى أول الصف ، وقد أدناه النبى منه وكان شاعرا فأنشد رسول الله فى الحماسة فقال له « أنت تحسن صفة الحرب » ثم أمره فى سفر صحبه به أن يحدو بالشعر وراء ناقته فحدا ؟!

وكانت فى كعب بن مالك السلمى مظنة كبر وعجب ، أو يحسبها خصوم له من قومه بنى سلمة كذلك ، وذلك من بردين ثمينين يمشي فيهما وكأنه يزهى بهما . وبينما رسول الله يقلب وجهه فى أصحابه وهو جالس معهم فى تبوك تذكر كعبا فقال « ما فعل كعب بن مالك ؟ » فقال رجال من قومه بنى سلمه : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر فى عطفيه !

ولم يدع الله كعبا دون أن يدافع عنه وهو غائب لا يستطيع أن يرد أذى ولا كيدا فان الله يدافع عن الذين آمنوا ، فانبرى معاذ بن جبل للسلمى وقال له : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه الا خيرا . فسكت رسول الله .

شدة الابتلاء :

وقفل رسول الله بجيشه الى المدينة بعد أن أقام بتبوك بضع عشرة ليلة ، لم يجاوزها ولم يلق فيهـا كيدا ولا عدوا ، وجاءه هنـاك يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على الجزية كما أتاه بعض أصحاب النواحى يصالحونه ، وبعث رسول الله خالد بن الوليد فى سرية من هناك الى أكيدر رومة فجاء النبى مصالحا .

ولما بلغ المتخلفين قفول رسول الله جاءوه جميعـا يعتذرون ويحلفون وكانوا وكان الرسول معهم كما قال الله فيهم « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا

يكسبون . يحلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » .

أما كعب بن مالك فقد حضره بثه وحزنه ورأى أنه لن ينجو الا اذا أجمع صدقه مهما أصابه من عتاب أو من عقاب ، فجاء الى النبى وسلم عليه فتبسم رسول الله تبسم المغضب وأشار أن يقبل فأقبل وجلس بين يديه .

وسأله رسول الله قائلا « ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ » فامتلك كعب نفسه وكان رجلا عاقلا فصيحا — وقال : يا رسول الله انى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سخطه بعذر ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك على ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه انى لأرجو فيه عقبى الله . والله ما كان لى عذر ، ووالله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك » قد خلفه رسول الله لأمر الله فسمى هو وصاحباه بالمخلفين . .

وتوالى الابتلاء على كعب من قومه ومن غير قومه ومن المسلمين عامة . وقومه بنو سلمة الذين حسدوه واغتابه أحدهم عند رسول الله بقوله : حبسه برداه والنظر فى عطفيه ، ثار منهم جماعة وراءه بعد أن قام من عند رسول الله يلومونه على أن لم يكذب فينجو كما نجا غيره ، وما زالوا يؤنبونه كالمشفقين عليه حتى كاد يرجع الى رسول الله فيكذب نفسه ، ولكنه أحب أن يستأنس بأقوال كل من اعتذروا لرسول الله فعرف أن صاحبى بدر ، مرارة وهلال قد مضيا فى الصدق كما مضى ، فلما عرف ذلك أشاح بوجهه عن قومه ومضى غير عابىء بما قالوا .

وأمر رسول الله أن يعتزل الناس هؤلاء الثلاثة فاجتنبوهم وتغيروا عليهم حتى زوجاتهم أمرن باعتزالهم فأطعن . واستكان مرارة وهلال فقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما كعب — أشب الثلاثة وأقواهم — فقد جعل يخرج الى الصلاة ويطوف فى الأسواق ويتسور جدران أهله وحدائقهم لعله يجد من يكلمه فلا يجد أحدا .

ولم تظل قصة كعب وصاحبيه محبوسة فى المدينة أو الجزيرة فطارت الى الآفاق حتى وطئت بساط ملك غســان على أطراف الشــام وكان الملك يعرف كعبا ويعرف أنه يكتب فأرسل اليه الملك برسالة فى السر يحرضه على النبى ويدعوه الى اللجوء اليه .

وضل ملك غسان الصواب ، فما كان لرجل مثل كعب قد ضاقت عليه الأرض بما رحبت لأن رسول الله غاضب عليه ثم يجد فى الأرض متنفســا وسعة ولو كانت كلها جنات وعروش ملوك . فما تناول كتاب الملك حتى قال فى نفسه : هذه أيضا من البلاء ، لقد بلغ بى ما وقعت فيه أن طمع فى رجل من أهل الشرك ! ثم عمد الى التنور برسالة الملك فسجرها به .

النوبة والأحكام :

ومضى على تلك الحال خمسون يوما قد هجر الثلاثة المخلفين فيها كل الناس أقرباء وأبعداء ، ثم تهــاجر الثلاثة فلم يعد أحد منهم يكلم الآخر أو يراه . وبينما كعب جالس على حاله تلك من الغم والحزن واذا صوت صارخ ينادي قائلا : يا كعب بن مالك ، أبشر . فعرف كعب أن قد جاء الفرج وخر لله ساجدا ثم نزع عنه برديه وكسا بهما من جاءه بالبشرى .

لقر نزل القرآن يقول « لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رءوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » .

نزل القرآن بهذه الآيات التى نبهت شأن النبى بذكر الله واللجأ اليه ، ومع أن التوبة لم تفارقه فقد بشرته الآيات بقبولها ، وكأنما ما فعله رسول الله من دعوة الأمة الى العسرة — مستوحيا رضا من الله وتوبة — قد علمهــا رسول الله فى هذه الدعوة ما يجمعها وينصرها . أما ما جاء فيهــا من توبة المهاجرين والأنصار فذلك رجوعهم من التردد والوقوف على باب المعصية الى حالة الطاعة ، وانتقالهم من الكسل الى النشاط وخروجهم من صــفة القعود

الى صفة السفر والجهاد . وقد كررت الآيتان لفظ التوبة تكرير توكيد بقبولها وتنبيها على أن الله تاب عليهم من أجل الطاعة والصبر على المشقة وطول المكابدة .

وتبين من فعل الثلاثة الذين خلفوا أن الناس لا يسمون صادقين حتى تستوى ظواهرهم وبواطنهم ، ويوفوا بما عاهدوا الله عليه حتى يرتفع النفاق فى العقيدة والمخالفة فى العقل ، فاذا لم يكونوا كذلك واختلقوا الكذب وتركوا الجهاد بلا عذر لم يدخلوا فى عداد الصادقين ، كما تبين أن الكذب كما أخبر عنه رسول الله لا يصلح منه جد ولا هزل .

ولم تكن توبة الذين اتبعوا النبى فى ساعة العسرة كلاما مقولا ولكن طاعة وانفاقا وخروجا بالأنفس والأموال والزاد والماء . وليس أحد من الناس قاطبة — والمؤمنون خاصة — مستثنى من احتياجه الى التوبة رجاء الترقى الى ما هو أكمل وأعلى . « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله .. »

ولقد وضع رسول الله فى هذه الغزوة آدابا حكيمة وأحكاما فاصلة ، وألزم المسلمين أن يتبعوها وأن يقضوا بها — ولا سيما فى ساعة العسرة — لئلا يزهى المسلمون أو يبطروا واذا كان الزهو أمرا ماحقا فالبطر أولى حذرا وأشد خطرا .

وتجلى فى قصة العسرة خلق سياسى تخلق به الرئيس المجرب والقائد المظفر ، ففيما بين بدر وتبوك اتسع سلطان النبى وصعد من قيادة ثلثمائة فى الحرب الى ثلاثين ألفا وتزيد ، وقد شوهد وهو يرعى هذه الألوف من غير جريدة ولا ديوان لا تفوته احصاء وعدا ومعرفة وأحوالا .

وقد علم رسول الله أمته أن لا تقتصر فى طلب النصرة على داخل شئونها وحدودها ، وانما عليها أن تطلبها كذلك فى خارج أرضها وحدودها . وليس عليها من بأس أن تلقى بقوتها القليلة وفقرها الشديد عدوا أقوى منها عدة وأعظم مظهرا ، فانه لا يدرى أحد لمن تكون الغلبة ، فهى من عند الله وحده ينصر من يشاء .

وفى حومة اليأس لم يقر رسول الله شهادة على غائب بقبيح ولو كان الشاهد من أهله ، فكان صلى الله عليه وسلم على حذر ، فان بنى سلمة قد ذموا كعبا فى غيابه ، فلما ظنوا رضا النبى عليه حين خلفه لصدقه وأمر الله فيه ثاروا اليه حتى يكذب فيرتطم فى الفجور ، فلم يشفقوا عليه فى الحالين غائبا وحاضرا .

وخروج قوم من المسلمين للجهاد دون قوم ان كان فرض كفاية فى كل ما يرد عنهم الأذى ويجلب لهم الخير ، فهو فرض عين فى كل عسرة يلقونها ، وليس على واحد منهم أن يتخلف بنفسه أو ماله الا وهو يرجو أن يلقى عتابه أو يصيب عقابه ، ما لم يكن متخلفا بعذر صحيح من مرض أو ضعف فانه لا يفقد أجره ولا يضيع ثوابه .

وقد اجتمع عدد من أئمة المسلمين على أن اتباع القائد المسلم فى ساعة العسرة لم يكن للنبى وحده بل هو لكل من يقود الأمة الى فلاحها حتى القيامة . وكان من هؤلاء الاوزاعى وتلميذه سعيد بن عبد العزيز وابن المبارك والفزارى والسبيعى وأبو جابر ، فقد قالوا : انما هو لأول الأمة وآخرها للقتال فى سبيل الله وجهاد أعدائه واعزاز أوليائه .

وهكذا كان أمر العسرة أمرا فصلا لم يقبل توانيا ولا تخلفا بل كان كله جدا واقبالا وعزما واسراعا . وليس من درس واعظ أو عظة أبلغ من أن يعرف المسلمون ما يجب عليهم فى ساعة العسرة ، فانه لم يكن لهم من أسوة أفضل من جند العسرة فى تبوك ، أولئك الذين أولاهم الايمان طاعة وقوة وأولتهم الطاعة والقوة نصرا عزيزا .

حركة المال

تنبيه موجز • الجهود والنقود • الكسب والصرف •
حقيقـة التملك • طرح الزوائد • طبع الادخار •
تحريم الربا • بيوت الأموال •

تنبيه موجز :

في كل ما أكتبه من حضارة الاسلام فى هذا البحث انما أود أن أنبه الى حضارة الفكر الاسلامى الأولى والتى كان من شأنها أن فتحت طريق التطور لما ترتب عليها وتبعها من أطوار ، اذ لولا ما جاءت به أولا من الكليات والأصول وما منحته للباحثين والأزمنة والأحوال من الحريات لما أمكن الوصول من حضارة الاسلام الى حضارة المسلمين ، فعلى الأولى كان الأساس وبالثانية شيد البناء .

والحرية التى منحها الاسلام للجهود والآراء — فى غير الفروض التى جاءت بصور العبادة النهائية فيه للتطور التعبدى — كانت الباعث الجدى الذى ساق الجهود والأفكار فنتج عنها اجتهاد متواصل وتطلع الى ما هو أسمى وأنفع وكان الاسلام دائما صديق الاجتهاد وعدو الانخماد .

وهنا وفى كل باب سبق أو يأتى من هذا البحث لم أتكىء الا على الفكر الأول للحضارة الاسلامية ، ولما كان البحث كله ذا فروع وشعب فان الدلائل فى كل فرع أو شعبة منه تكاد تكون اشارة الى أنها كانت النواة لما حدث بعد ، الا ما جاء لا يقبل التطور ولا يقبل الرأى ، وهو كل ما جاء على الصورة النهائية التى لا تتبدل عند المسلمين كصور الأقوال والأفعال التى لا بد أن تؤدى عليها الفرائض ، وكترتيب القرآن كلمات وآيات وسورا . أما ما عدا ذلك فقد وقع فيه الاجتهاد فاتفق الرأى واختلف ولم يكن ذلك الا لصالح الحضارة ذاتها لئلا تقف عند حد لا يقبل الزمن وأحوال الناس أن تقف عنده وتنتهى اليه .

ودعوى الاسلام انه صالح لكل زمان ومكان هى التى وهبت الحرية للحضارة الاسلامية أن تتطور وتتخذ الأشكال التى اتخذتها فى البلدان والأزمنة والأفكار فتكونت منها حضارة عامة للمسلمين . ولن يلقى أحد باله لمن تلتبس عليهم الأمور أو يدأبون على اصطناع الكيد فيقولون ان الاسلام فى البلاد المفتوحة والأزمنة التالية صار غيره فى بلاد العرب والعصور الأولى .

وحين اعتمدت حضارات المسلمين على الاسلام من ناحية واجتذبت اليها من الحضارات الأخرى ما يشاكل روح الاسلام ومجمل حضارته من ناحية أخرى ، ثم انبثق من هذا التأليف خير كثير لبنى الانسان — كان الفضل فى ذلك للاسلام مرتين :

مرة باستعداد أصوله للخير المطلق والفضل المجمل حيث ينفصل عنها كل خير ويتفرع منها كل فضل . ومرة أخرى لأنه وهب الحرية للعقول والجهود أن تنطلق فى دائرة ما رسمه للخير والفضل ثم تظل منطلقة على الدوام .

ان مفخرة الاسلام أنه كان أصولا وقواعد ذات مرونة تتشعب منها الفروع وتعلو الأبنية وتتسع استمدادا من ينابيع قريبة ترسل مياهها هذه الأصول أو ينابيع بعيدة تستدعيها هذه القواعد نفسها من سفوح أخرى ولكنها ما تكاد تصعد فروعا وشعبا حتى تتراءى كالأصل الذى انبثقت منه ، كالبراعم من أشجار مختلفة تتصل بالتطعيم بشجرة ولن يكون لها تفرع ونمو واثمار الا اذا كان بين الأصل والفروع نسب وصلات .

الجهود والنقود :

وكل ما سبق فى هذا التنبيه ينطبق على حركة المال فى هذا المقال ، فان حركته اتخذت نفس الشكل الذى كان له على يد من أسلموا من مكة وهاجروا الى المدينة وهاجرت معهم مواهبهم وتجاربهم فى رحلتى الشتاء والصيف ، وصيروا المدينة مركز التجارة بعد مكة ، وبعد مرحلة طويلة من الخسائر والمتاعب التى منيت بها مكة والمدينة والبادية فى الحروب التى نشبت بين المدينتين ، ثم تولت المدينة مركز الرياسة فى التجارة الداخلية والتجارة الخارجية ووفد عليها غنى لا عهد لها به من قبل ، قام فى حقيقته على جهود المسلمين الأوائل أو على بعض جهودهم حين شطروها شطرين شطرا للتجارة والكسب وشطرا لدعوة الاسلام .

وقد نظم الاسلام جهود التجارة وأساليبها ، وكانت بداية هذا التنظيم فى مكة حيث ألقى الاسلام بتعاليمه فى الوسط التجارى المعقد عالما بصيرا ،

ثم تابع القاء هذه التعاليم فى المدينة فأثمرت فى انتظـام التجارة والزراعة والصناعة والتقاط الأموال المبـاحة من البر والبحر فى سلك من الاجتهاد والأخلاق أغنى المدينة وأسعدها حينا ، فلما انزلق بهـا الغنى فيما بعد الى المتارف والمناعم مما صب فيهـا صبا من الهدايا والمنح التى عطلت الجهود وجارت على الأخلاق أصيبت بالكروب العظام والبلايا الجسام .

وكانت مبادلات السلع عينا بعين أو عينا بمنفعة هى النظام القائم فى داخل الجزيرة العربية أو بينها وبين البلاد الأخرى ، ومعظم التعـاليم التى جاء بها الاسلام فى المعاملات كانت لتنظيم هذه المبادلات . ولم تكن النقود أهم شيء فى التجارة الا أحيانا وبالنقد الأجنبى من الذهب والفضة ثم صارت الأهمية للنقدين فيما بعد حين اتسعت رقعـة الدولة وقامت بيوت الأموال وضرب المسلمون النقود . وحيث لم يكن يعترض على النقدين الا لصحتهما ووزنهما فقد كان لا بد من الصفات التى تتوفر فى السلع ، وهو الأمر الذى لم يزل باقيا الى اليوم فى كل المبادلات الكبرى والصغرى فى العالم كله . وقد حدثت محاولات من المسلمين حين ضربوا النقود أن يضربوا العمـلة الصغيرة من جلود الابل ومن الزجاج أحيانا لضرورة السوق الداخلية وأجزاء البيوع الصغيرة بين الأفراد ، وهى محاولات فتحت الطريق فيما بعد لضربها من معادن رديئة لا تقبل فى المبادلات الخارجية بين الدول والبلدان .

الكسب والصرف :

وافترض الاسلام للكسب الحلال طريقين : ايجابيا وسلبيا ، أما طريق الايجاب فكان بالعمل الذاتى الذى يبذله الفرد من جهده البدنى أو الفكرى أو هما معا « وان أطيب ما أكل الرجل من عمل يده » وقد أوجبه الاسـلام على كل مستطيع حتى لو انقطع للقراءة والعبادة مع فقره كأحد أهل الصفة ، وفى أهل الصفة الحجة فقد كانوا فقراء يقعدون فى المسجد لا يحرثون ولا يتجرون ليس لهم كسب ولا مال ، انمـا هم أضياف الاسـلام عند ضيق البلدان ، ومع ذلك فانهم كانوا يحتطبون بالنهار ويسوقون المـاء الى بيت رسول الله ويقرأون بالليل ويصلون . وهكذا وصفهم البخارى وغيره ، فكانوا يتسببون .

وأما الطريق السلبى فكان من الميراث أو الوصية أو الهبة ما لم يكن هناك تصرف شاذ . ويلحق بالايجابى الاقتراض بنية الإداء اذ الشريعة تلزم المدين أن يقضى دينه ولو من مجموع أمواله ، بل ان شخصية المسلم لا تنتهى بوفاته اذ لا تركة الا بعد سداد الديون ، ولعله رأى كثير من فقهاء القانون فى العصر الحديث . ويلحق بالثانى طريق الصـــدقات للذين افترضت لهم الزكاة .

ويدخل فى الأول كسب البيع والشراء وأجور الصناعة والتعليم والعمل وأنصبة المحاربين من الغنـــائم . وكل ما يصل الى يد الانســـان من هذين الطريقين أحاطه الاسلام بشروط دقيقة مفصـــلة أوردتها أبواب الفقه ايرادا لا تكاد تسقط منه مسألة الا ولها حكم أو عدة أحكام . وقد أحكمت السنة عند فقهاء الظاهر العمل بالأسباب الدنيوية من الحرث وغرس الثمار والتجارة فى الأسواق والعمارة للأموال التى هى أهم الروابط الظـــاهرة فى علاقات الأفراد فى مجتمعهم الصغير أو الواسع الكبير .

واشترط فى العمل أن يكتسب صـــفة الشرف التى لا ترجع الى نوع العمل ، فليس الشرف أن يكون فى المعـــدن دونه فى التراب مثلا ، وانما الشرف فيه أن لا تدخله شبهة من حرام فلا يكون من سرقة أو نهب واغتصاب أو احتيال وتغرير أو غبن فاحش ، كما لوحظ فى الكسب الذى يكون من غير عمل أن تكون هناك وشائج طبيعية أو أسباب صالحة تدعو الى صحة انتقال الأموال الى من انتقلت اليه .

وقد ترك للموصى والواهب — اذا كان مدركا ســـليم العقل — أن يكون حرا . ومن كانت هذه صفاته فانه يدرك لا محالة سبب ما أوصى به وما وهبه ، غير أنه لا يوصى بأكثر من ثلث ماله لغير ورثته لئلا تقع المظلمة على الورثة اذا أوصى لواحد منهم بالثلث ثم أخذ نصيبه فى الميراث من بعد وترك غيره لنصيبه من الميراث ليس غير .

ومن ثبت عليه سوء التصرف فى ماله أو كان هو قاصرا لا يستطيع أن يتصرف فيه منعه الاسلام من هذا التصرف بالحجر أو الولاية عليه ، ثم أنفق عليه من ماله ما يسد حاجته وزينته وكما يقول الكتاب « ولا تؤتوا السفهاء

أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا » وذلك حتى يؤذن للسفيه بأن يعقل — ان أذن له — وللقاصر أن يرشد ، لئلا يقع هو الآخر فريسة ظلم أو خداع .

حقيقة التملك :

وكل ما يكسبه الفرد لا يعد فى نظر الاسلام تملكا على الحقيقة بحيث يتلازم المالك والمملوك على الدوام ، ولكنها صورة من تقابل مؤقت يرتبطان فيه ويتلازمان الى أجل ، وبعده يزول المالك ويبقى الشىء المملوك ، وكأنه يتمثل فى المالك بصورة الأجزاء التى تتغير ويتمثل فى المملوك بصورة الكليات التى لا تتغير . وقد خلقت الكائنات مهادا لخلق الانسان الذى نزل ضيفا عليها ، ورقعة ضيافته فى هذا الوجود تتسع وتضيق بقدر سعيه وحظه .

أما السعى فواجب أن يكون هو منفقه وباذله ، وأما الحظ فهو ماتتيحه له الظروف الخارجة عنه ، وسواء أكانت مكشوفة لديه أو مستورة عنه لا يراها . ولا سبيل الى نكران السعى والحظ اللذين قرن وجوبهما الفقهاء والمتصوفة وأهل الظاهر والباطن ، ومهما نال الانسان بسعيه أو بحظه فانه سيدعه — لا محالة — يوما ما حين تنتهى الضيافة بحلول الأجل .

هذه هى الحقيقة عينها ، وهى واحدة لا غير ، أما ما يدعى من حق التملك فى شتى الأحكام — ومنها أحكام الاسلام نفسه — فانما هو ارساء للأمن بين الناس حتى لا يتخاصموا وينتهبوا من حقوق الضيافة غير ما قدر لهم وسقط عليهم . وكان من الحق أن يسمى ذلك ضيافة يجب أن يلتزم الضيوف آدابها ، أو استخلافا يجب أن يلتزم الخلفاء آدابه ، أما تسميته بالتملك فهو مجاز .

والى مثل هذا الذى حققه الصوفية تشير القوانين الحديثة فان الحقوق المالية يمكن التصرف فيها أو التنازل عنها كما أنها تنتقل للورثة مثلا وذلك دون الحقوق العامة اللاصقة بشخصية الانسان والتى لا تنفصم عنه كحقه فى الحياة وسلامة الجسم وحرية التنقل .

وان صوفية المسلمين الذين هم أرباب هـذا الباب قد أشبعوه أقوالا صادقة وأوصافا معجبة وأمثالا ذات دلائل قاطعة وتوصلوا من صدقهم فى وصفه وترسيخ آرائهم فى القلوب الى الآداب التى ترتبت على هذا التملك المجازى الزائل حتى فضلوا من يخرج عما يملك قبل أن يأتى أجل الافتراق عمن يتشبث به حتى يؤخذ منه أو يطرد عنه .

ولما كانت الحاجات المخلوقة والمصنوعة أكثر من ضرورات بنى آدم جميعا بل ومن كل الأحياء مع بنى آدم ، وكل فرد مهما قل كسبه وضاق رزقه ينال من هذه الحاجات أكثر مما هو مضطر اليه — وجب أن يطرح كل فرد عنه الزوائد ، سيرا مع منهج الطبيعة الذى تسير عليه فى جميع مظاهر الزوائد المخلوقة والمصنوعة التى توفرت بها .

طرح الزوائد :

ومن الممكن أن يتخذ القول بطرح الزوائد شكل نظرية من النظريات الكونية الثابتة ، ودليلهـا فى كل زائد عن الاحتمال من مخلوق ومصنوع ، وبحسب ما تكون الزيادة يكون الحط والطرح : فالسحب التى تحمـل من الماء أكثر مما تطيق تحط عن كواهلها جبالا من الثلج على رءوس الجبـال وسفوحها ، والأنهار التى تفيض أكثر مما تتسع له أحواضها تحتال فى طرح الزائد من السيل فى كل مكان يتسنى لهـا أن تطرحه فيه ، والشجرة التى تحمل ما يثقل أعناق العناقيد تطرح الزائد وترميه ، والأجساد الحية تفرز كل ما زاد فى جوفها من زوائد الطعام والشراب ، والأثواب التى تقد على قدر الأجسام تطرح بقاياها التى تزيد عنها ، وهكذا كل زائد مطروح . ولا تبقى فى انائها الا المقادير المساوية للحاجات ، بل ربما كان الأقل من الحاجة أكثر تحيزا واستقرارا ونفعا وصلاحا .

والشرائع التى فرضت طرح الفضـول والزوائد ، ومنهـا الشريعـة الاسلامية ، كانت تساير الفطرة والطبيعة لتمكن للمكلف أن يهنـأ بضيافته — على لغة الحقيقة — حتى أقصى أجله ، أو ينتفع بما يتملكه — على لغة المجاز — حتى نهاية العمر .

فالقوى المدخرة فى الانسان بحيث يستطيع أن يفجر منها أقوالا وأعمالا لا نهاية لكثرتها يجب أن يحبس منهـا ما لا يفيد ، ويطرحه ولو الى داخل نفسه من غير تفجير لئلا تكسر اناءه وتحطم نفسه لو لم يحبسه ، كالغضب فانه زائد عن الحـاجة . ومظهر الغضب ملوم لأنه لم يطرحه من قلبه حين فاض به .

ونوم القيـلولة مع نوم الليل يستغرق أزيد من الحـاجة الى النوم ، فأوجبت الشرائع — لسدادها وميلها الى تحقيق مبدأ الفطرة — أن يطرح هذا الزائد بقيام الليل ، وحيث كان النوم هجرا لكل فكرة وبعدا عن كل جهد وقد يتمادى فيكون غفلة وحيوانية أوجبت الشرائع أن يطرح عنه الزائد فيضيفه الى أوقات العبادة ، فكما كان النوم هجرا للفكر والجهد حسن أن يصرف هذا الزائد فى تبتل وخشوع .

والأموال التى تقع فى ملك الانسان — من منقول وغير منقول وهى زائدة عن حاجته لكثرتها كثرة طاغية فى الكائنات المخلوقة والمصنوعة — قد أوجب الاسلام على المالك المسلم أن يطرح منها ما زاد عن حاجته لئلا تتخمه فتخمد جسمه وفكره ، بل عليه أن يدفعها الى المسارب التى تحتاج اليها ، وكلما زاد امتلاؤه وجب أن يطرح عن كاهله أكثر مما يطرحه لو لم يكن متمتلئا . وفى أمثلة زكاة الأنعام ما يبهر ويروع .

وما لم يطرح المسلم هذا الزائد فسـد قانون الفطرة الذى من أجله حرمت الشريعة الاسلامية كنز الأموال من ذهب وفضة بغير أن تؤدى منهـا الحقوق ، وكنز الأطعمة والأسقية حتى ينهبها السوس والدود ، وكنز الثياب والأمتعة حتى تأكلها العثة والعفن . وهكذا أوجب الاسلام أن يطرح الزائد منها حال جودته حتى يستفاد به ويستمتع بخيره ، فاذا بقى حتى يفسد ثم طرح كان سفها واثما .. « ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه » .

على أن طرح الزائد عنك الى غيرك الذى هو محتـاج اليه يزيد فى الانتاج العام الذى يعود على المجتمع بالخير .

والأسعار الحرارية التى يحتاجها المرء لحفظ حياته ولانتاجه لو زادت عند انسان لانقلبت كسلا ولحما كثيفا يكون وباله على الانتاج العام ، وتكون الزيادة حينئذ كالنقص تماما وهو ما عنى به الدين من التنبيه على الاقلال من الاستمتاع بالحلال لئلا يعود على المجتمع بشر وبيل .

طبع الادخار :

والمنهبة الأولى من الأموال المكسوبة والمملوكة هى لصاحبها يقضى منها حاجاته وزينته — بلا اسراف — ثم يقتصد منها ما يسد خلته وخلة من تجب عليه نفقاتهم « ولا عال من اقتصد » كما يقول الرسول الحكيم ، ثم عليه أن يطرح ما زاد الى من لم يزل محتاجا من الأقرباء من حيث لا يهمل حق الناس العام فى هذا الزائد الذى تمثل قديما فى حق بيت المال والصدقات ويتمثل حديثا فى حق الدولة ولم يزل قائما فى الزكاة والصدقات .

وابن عباس فقيه الأمة يقول : رحم الله أبا بكر ما أفقهه ! وكان أبو بكر قد قال — وهو يبعث بجيوشه لحرب المرتدين عن الزكاة — : لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال !

وقد اختلفوا فى تقدير الزيادات : فرآها الفقهـاء فيما زاد عن حاجة الطعام والملبس والمسكن والمركب على ألا تحرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، ورأوها فى تقييد هذه الزينة بما فرضته الشريعة من الآداب وطلب الباقيات الصالحات ، لا يخرج بها الرجل الى تنوق ولا تخرج بها المرأة الى تبذل وتبرج .

ورآها المتصوفة فى الرضا بالقليل دون الكثير وطرح الباقى وهو الأكثر لمنافع الناس . ورآها الصوفية والعارفون — وهم فى أعلى درجات الزهد — فى الاكتفاء بما يقيم الأود والصلب ويردد الأنفاس ويعين على العبادة ، ولا يزيد عن لقم جافة من الخبز بلا ملح ، ورأوا طرح الكل بحسبانه زائدا كله ، بل وجوب رده قبل أن يقبل ويملك ، لأنهم رأوا فى قبول النعمـة الوارفة والاستمتاع بكل الحلال ايثارا للدنيا واغترارا بها . فالاجماع فى الاسلام على طرح الزائد وان كانوا قد اختلفوا فيه . على أن صوفية المسلمين لم يطرحوا

الكل ولم يحثوا أحدا من غيرهم على طرحه الا لأنهم يتفقون مع المتزهدين والفقهاء على أن عمران الدنيا انما هو بأن يحصل معظم الناس على ما هو أكثر من الكفاف ليقدروا على سد الحاجة والحصول على الزينة أيضا . أما هم . فلقلتهم وندرتهم — بالضرورة — فليس من اكتفائهم بأقل من القليل ما يحدث لعامة الناس أى أذى .

وليس يتعارض هذا كله مع وجوب الادخار ، الذى هو أمر حتم فى الطبائع خشية الزمن وشدائده الطارئة . وبعض الأحياء — من غير أن يكون لها تفكير الانسان — موهوبة خلق الادخار كالنحل والنمل ، وكذلك كان من طبع الانسان أن يدخر ، وكان من فرائض الشرائع تنظيم هذا الادخار عند الفرد والجماعة لئلا تقع الحاجة وليس مايسدها ، وقد أوحى القرآن والحديث وعمل النبى بهذا التنظيم .

ومن الادخار ما هو ممقوت ، وذلك ما يقع عليه اسم الكنز والخزن والاحتكار ، وهو أشد مقتا حين يقع من الأغنياء والتجار ولا سيما عند الضرورات التى توجب انفاقه فى صالح الأمة « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » فالكنز والحبس عن الانفاق فى سبيل الله هو المحرم الممقوت ، أما اذا كان ادخارا لصالح النفس المعتدلة ولصالح المسلمين فهو أوجب من الانفاق .

وقد رأى بعض خلفاء المسلمين أن يكون فى بيوت الأموال مدخرات عامة ورأى بعضهم أن لا وجوب لهذه المدخرات ، ولكنهم اتفقوا جميعا على أن يكون القسم بين الناس بالعدل والقسطاس وأن يكون المال فى صالح جماعات الناس بالانشاء والاعمار ومحاربة الكوارث والأمراض .

تحريم الربا :

وكسب الربا — فى صوره المحددة الممنوعة والتى تطلق مطامع الفرد فى استغلال غيره والتى وقع عليها اتفاق فقهاء المسلمين — حرام لا جبر له برأى ولا اجتهاد ، وقد أنشأ الاسلام معادلتين حسابيتين غاية فى رعاية العمل والخلق بالنسبة لحسبة رياضية جافة :

أولاهما جاءت فى قوله تعالى « وأحل الله البيع وحرم الربا » أى أنه لم يرض أن تكون المائة الزائدة على المال بسبب الربا كالمـائة الزائدة على المال بسبب التجارة . والمائة تساوى المائة فى الحساب الجاف ، ولكنها عند عند الاسلام — بل عند اليهودية الأولى والمسيحية — معادلة خاطئة ، اذ تلك ذات الربا آتية للمرابى بلا عمل وان كان هناك عمل فهو من غيره . وهـذه ذات التجارة آتية للتاجر من عمل ، وعمله هو فيها قبل عمل غيره . فأصاب تلك التحريم من حيث فازت هذه بالتحليل ، فكأن القيمة فى نظر الاسـلام بالعمل المبذول لا بذات المال ، وهو تحطيم لصنمه لئلا يكون معبودا .

واتكال الرجل على أنه يستطيع أن يقترض بالربا اذا أعسر قاتل لروح نشاطه مبدد لماله باعث له على ألا يأخذ نفسه بالدقة فى حسابه وحساب حياته، وفى الحياة الواقعية يكاد لا يشذ مثل لمصائب الربا فى الآخذين والمعطين ، وهذا فى الأفراد ، أما فى الدول فمصائب الدول ونكبات العالم كله — وعلى الأقل فى القرنين الماضيين — كانت فيه .

وسر آخر دقيق ، حتم على العقل الرشيد المفكر أن يتفهمه ، ذلك أن المال غاية من كل الأعمال ، ونحن انما نعمل لنحصل على الأموال التى تخضع لها كل الحاجات ، فاذا رابينا بالأموال نكون قد اتجرنا بالغايات ، والاتجار بها باطل عقلا لأنها لا تأتى بغايات فوقها ، وهو كتحصيل الحاصل — فى نظر المتكلمين — ولا يطعن فى هذا المنطق الصادق أن يتحول المال بالزيادة فى يد والنقص فى يد اذ هو تحول فى المظهر أما الجوهر فهو باق كما هو .

ولكنا اذا رابينا بالأعمال وذلك فى مثل التجارة فاننا نكون قد اتجرنا بالأعمال التى هى قبل الغايات وهى — عقلا — ميدان السباق .. وبعد الغاية من السباق لا يكون لأى مدى من السبق قيمة ، مهما اشتطت الخيول فى الجرى والسبق . فنتج عن ذلك صحة معادلة الاسلام — والأديان معه — وخطأ المعادلة الحسابية ، اذ يجب أن تكون قيمة الأموال فى المجتمع بأعمالها لا فى الأموال ذاتها .

والمعادلة الاسلامية الثانية أكثر غرابة وأدق فكرة وهى فى قوله تعالى « يمحق الله الربا ويربى الصدقات » وفى قوله « وما آتيتم من ربا ليربو فى

أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

وهذه معادلة أرقى من المعادلة الأولى رقيا لا يحد بمقدار ، ومعناها أن المائة التى تأتى بسبب الربا تساوى صفرا أو أقل من الصفر بالنسبة للمائة التى تذهب نقصا بسبب الصدقة .

ومن الغريب أن يكون النقص أفضل من الزيادة ، وفى الحساب الجاف أن بين المائة الناقصة والمائة الزائدة مسافة مائتين ، ولكن الاسلام يفضل نقص المائتين عن زيادتهما ، ويتوعد الزيادة بالمحق ، والنقص بالبركة والزيادة، ويصف أهل الانتقاص بأنهم المضعفون . ويقول صلى الله عليه وسلم « اذا تصدق العبد بصدقة فان الله يربيها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون فى ميزاته كأحد » .

ولا ريب فى صدق معادلة القرآن وتأييد الحديث لها اذ النتيجة معلقة بالتوفيق الذى هو من صنع الله وحسابه ، ولا يمكن أن يكون ذلك باطلا فى العقل ولا فى الواقع المحسوس ، حتى لو ذهب المال ، لأن النقص يشترى به رضا الجماعة ، والزيادة يشترى بها غضبها . والزيادة بالرضا مكفولة التعويض ورأس المال مع الغضب غير آمن ، وقد تجمد مالك وتربيه ثم ينقصك الله من أطرافك ، وقد تبذله وتزكيه ويزيدك الله من كل الأطراف .

وهو — عقلا — رد على المعادلة الأولى التى تقدر الأموال بالأعمال لا بذواتها ، ولكن هنا فى هذه المعادلة فضلا آخر : فالمعادلة الأولى كانت القيمة فيها للعمل المنتج ولكنها فى هذه المعادلة للخلق الدافع . فالضن والأثرة فى خلق المرابين خليق أن يمحق المال ، والبذل والايثار عند المزكين خليق أن يربيه ، وهو ارتقاء فى تقدير القيم الاجتماعية والخلقية عند المسلمين لا تسمو اليه غوارب المذاهب ولا رقاب الحساب .

بيوت الأموال :

فى مقال فريضة الجهاد السابق عرف أن من حق بيت المال أنصبته من الخراج والجزية وغنائم الحرب والكسب ، على الأفراد أو على الجماعات

والشركات والجيوش ، وكان على بيت المال جمع الضرائب واحصاء دافعيها وما أدوا لبيت المال ثم انفاق الأموال على مستحقيها وعلى المصالح العامة وما يأمر به الخلفاء ما زالوا أحياء ، فان كان أحدهم قد أمر أمرا ومات دون أن ينفذه بيت المال وجب أن يرد الأمر للخليفة الجديد .

وتولى بيت المال تقدير النقود دراهمها ودنانيرها وابدال ما أفقده التداول شكله القوى ورسومه الظاهرة لئلا تجد سوق البيع والشراء عنتا ويضار الناس ، كما تولى الانفاق على الاستعداد والتسلح والتخطيط للمشروعات العامة من الأبنية والمساجد والجسور والطرق والخانات لأبناء السبيل حتى تتيسر الهجرة والأمن للتجار والطلاب والمسافرين ، وتولى دفع آثار الكوارث العامة من الغرق بالسيول أو تدمير الزلازل أو الجدب والقحط وتفشى الأوبئة فان ذلك لا يستطاع دفعه بالأموال الخاصة بل لابد من الأموال العامة بمقادير مسعفة كبيرة . ثم التقى بيت المال مع الصدقات الخاصة فى رفع مستوى حياة الناس فزوج الفقراء وسدد ديون الغارمين وأخدم الضعفاء .

وعمر بن عبد العزيز لم ير ضرورة فى أن يخزن ببيت المال شيء اذا كانت حاجات الرعية تستنفد المال كله . وقد أقلقه عماله وأصحاب بيوت أمواله وأقلقهم : كانوا يرون أنه لا بد من مال يخزن لينفق فى الشدة والحاجة وهو يرى ألا يخزن منه شيء ، وكتبوا اليه يحثونه وهو يأبى ، ثم اجترأ عليه أحد العمال فكتب اليه عمر : اعط ما فيه فاذا لم يبق شيء فاملأه وحلا !

ولم يكن عمر بذلك يدعو الناس الى الاسراف فالاسراف أمر غير قضاء حاجات ذوى الحقوق ، أما العمال فكانوا هم المسرفين ولا يدرون : فكانوا يفرقون ما يجمع فى التافه والرخيص : على الأوراق والاضاءة والفرش والمراكب والزخارف .

ولم يكن لأحد من حق فى بيت المال الا بحقه حتى القائم على حسبته وحراسته ، فاذا نقص من المال شيء — من غير خيانة — كان على القائم أن يعوضه من خاصة ماله ، ولم يجعل عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز

حقوقا لهما فى بيت المال الا بقدر طعامهما ، ولم يكن ذلك مانعا أحدا من الخلفاء بينهما أو بعدهما — ما عدا ابن أبى طالب — من أن يأخذ حقه ، الا أنهم منعوا جميعا أن يصيب منه مواليهم أو أولادهم بغير حق .

وأنفق بيت المال على دور الضيافة ثم تولى الفرض للمواليد وهو ما اتخذته القوانين الجديدة فى المواريث من أن الجنين صالح لاكتساب الحق .

وقد كان على بيت المال — تتمة لعملية الاحصاء — أن يراقب أرباح التجار مخافة أن يستغلوا الناس أو يستغلوا بيت المال وابطال حيلهم فى الحصول على أكثر من حقوقهم ، وقد هم عمر بن عبد العزيز ألا يكون من حظ تاجر واحد ما يغنى عشرات من بيوت المسلمين ولكن الأجل عاجله فلم يتم ما أراد .

وقد فرض الاسلام وحدة الاقتصاد فجعل بيوت الأموال فى مختلف بلاد المسلمين بيتا واحدا ، فلو استغنى بلد وافتقر آخر سد البلد الغنى حاجة البلد الفقير حتى لو لم يبق له شىء ، فكان كنظام القروض الدولية الحاضر ، ولكن بلا ربا ، حتى يستطيع البلد المتعثر أن ينهض فيسد دينه ، أو كنظام المعونات للبلاد المتخلفة . وقد أمر عمر أن تسد الشام حاجة العراق فى رد المظالم حين لم يكف مال العراق فى ردها . وبذلك صار العالم الاسلامى فى مدته وحدة اقتصادية ذات قوة وتماسك يسد بعضه حاجات بعض .

فلم تكن وظيفة بيت المال بذلك كله الا مساهمة أقوى فى نفع الناس من جهتين : جهة مصالحهم الفردية وجهة منافعهم العامة . كما لم تكن بيوت الأموال الا معابر تعمر وتخلو حسبما اتفق لمصالح المسلمين وأهل ذمتهم أن تكون . وهكذا دار المال دورته فى الاسلام مرتبطا بالأخلاق والفرائض فى مجموعة من القواعد التى نظمت سلوك الأفراد فى مجتمعهم وألزمتهم باتباعها ، فلم يحرمه الاسلام مطلقا ولم يحله مطلقا بل أحل منه وحرم ، وأعد لمن يتعدى الحدود عقابه . وكأنما جمع الاسلام القانونين الحاليين : المدنى والمالى فى اطار واحد ، وكان بيت المال مظهرا من تدخل الدولة فى كافة الشئون الاقتصادية وغيرها شأن بعض النظم الاشتراكية فى عصرنا الحديث .

الحكم والمشورة

شخصية فذة • عمر وأبو بكر • يوم الامتحـان •
تنازل الأنصار • مبايعة المبادىء • سياسة الحكمة •
مرحلة الانطلاق • أسوة حسنة •

شخصية فذة :

رجل سفعت بياضه سمرة ونبت على صفحتي خديه شعر خفيف وقد بدا لنحافة جسمه معروق الوجه عارى الأشاجع فى ظاهر كفه لا يستمسك ازاره على خصره . ولكن بدت حدقتاه من غور عينيه كأنهما سهمان يريدان أن ينطلقا من قامة منعطفة كأنها قوس قد شدها ضاربها .

هذه صفات بدنية ظاهرة لذلك الرجل وقد يشترك معه فيها كثير من الناس ، ولكنه — وقليل معه — كان يبدو فى هالة لا تلمس ولكنها تلمح كأنها شعور بالثقة فى النفس . وما يكاد الناظر اليه يتأمله حتى يطمئن اليه ويثق به لأن ملامح وجهه تنطق بصدق عجيب .

هذا الانسان هو عبد الله بن عثمان بن عامر ولما كان فتيا قويا وكان بكر والديه لقبوه أبا بكر . وللمحة من جهارة وحسن سموه عتيقا . ولاقبال من قلبه على الحق والخشية سموه منيبا . ولالتزامه الصدق قولا واستماعا وعملا سموه صديقا .

ما كاد المبعوث بالرحمة يسر الدعوة حتى سبق هـذا الرجل الى الله ورسوله ثم لزم النبى وانقطع اليه وكان أول الناس معه حين صلى وأكثر رديف له اذا ركب . ثم حمل الدعوة الى أصحابه وهى لم تزل سرا فأسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنة : عثمان وطلحة والزبير وسعد وابن عوف .

وخاض هذا الانسان العظيم مع النبى سنين شدادا فلم تزده شدتهن الا تمحيصا واقبـالا على الله . ثم كان أوحد النـاس بهجر الوطن والأهل مع الرسول ليلة الهجرة ، ولعلها كانت أشق ليالى حياته عليه اذ انعدمت أمامه كل حيلة بشرية لينجو بصاحبه . ولعله لأول مرة وأوحدها كان بادى القلق كثير الاضطراب وذلك حين سمع الخطا تزحف وراءهما وهما فى حصار الغار ولم يهدأ قلبه من فزع الا حين طمأنه صاحبه قائلا له : لا تحزن ان الله معنا .

ولعل الحروب التى خاضها مع النبى فيما بعد لم تكن أشد على نفسه حين الهزيمة وأبهج لها حين النصرة من تلك الليلة وصبيحتها ، بل لعله حين حمل راية النبى فى ثلاثين ألفا ساقهم النبى الى تبوك فى قيظ مهلك لم يكن

بأسعد حالا منه يوم كان رافعا ثوبه يظلل النبى من الشمس وهما مشرفان على المدينة يوم الهجرة — من ثنيات الوداع .

هذا الإنسان العظيم صاحب الرأى السديد والقلب المنيب ، والقسوة بحيث لا يفزع منها محق واللين بحيث لا يطمع فيه جائر — هـذا الانسان بصفاته وأعماله تلك التى ميزته عن كل أصحابه استحق بهـا أن يكون أول صحابى يبايع له الناس فى الاسلام .

ولم يقع للناس أن يبايعوا لغيره أو يحددوا مدة لمبايعته ، وانما بايعوه بلا شرط ولا حد لأنهم عرفوه وجربوه فلم تعد فيه خافية لم تعلن ولا فضيلة لم تلمس ، فرأوا من انصافهم له ولأنفسهم أن يختاروه .

ولقد ثبت أن هداية الله هى التى ساقت الأمة كلها الى مبايعته فقـد أعطاهم فى مستقبل زمانهم ما لم يعطهم فى أوله ، وصار من الحق أن يعود اليه كل فخر — بعد النبى — لأن الرسول الذى قاد الأمة قبله كان يقودها بالوحى والهداية الملقاة فى الروع ، أما أبو بكر فكان رائده عقله وفطنته وقلبه ودينه وما اقتدى برسول الله فيه .

عمر وأبو بكر :

ومع أنه كان بين أبى بكر وعمر مسافة أربعين رجلا فى الاسلام اذ أسلم أبو بكر أول الناس وأسلم عمر فتمم الأربعين فانه من الحق أن يقال ان عمر ابن الخطاب قد طوى هذه المسافة وصار التالى لأبى بكر وأقرب القوم مكانة منه . ثم جعل عمر يحاول أن يزحم حظ أبى بكر ويسابقه لعله يسبق حتى يعوض لنفسه سابقة أبى بكر الى الاسلام ولكنه وقف عند حظه دون صاحبه ، وما زال كذلك حتى شوهد يقبل رأس أبى بكر فى المدينـة وعلى ملأ من الناس .

فيوما ما حدثت جفوة بين عمر وأبى بكر فى حياة الرسول ، وقد بدا أن عمر كان فيها بادئا ثم سبق فاشتكى الى النبى ، وجاء أبو بكر فرأى وجه رسول الله متغيرا فأشفق أن يزيد فى غضبه فشهد عنده بأنه هو الذى ابتدأ

بظلم أخيه فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد انجاب عنه الغضب وجعل يمتدح أبا بكر بمارد عمر عنه وأخره أن يلحق به .

وذات مرة أمر رسول الله كل من عنده مال من أصحابه أن يتصدق ، ووافق ذلك ما لا عند ابن الخطاب فقال في نفسه : اليوم أسبق أبا بكر ان سبقت يوما .. ثم مضى الى رسول الله مسرعا بنصف ماله فسأله رسول الله عما أبقى لأهله بعد هذا الذى جاء به فأخبره أنه ترك لهم مثله . ثم لم يمض كثير حتى جاء أبو بكر بقطعة عظيمة من المال فسأله النبى عما أبقى لأهله مثلما سأل عمر فقال له أبو بكر : أبقيت لهم الله ورسوله ! لم يبق على شىء مما كان عنده ، فجاء الى النبى بكل ماله . فلما رأى عمر ذلك قال لأبى بكر : لا أسابقك لشىء أبدا !

وهل كان لعمر أن يسابق أبا بكر فى الجود الذى سبق فيه كل الناس ؟ فانه يوم أسلم كان يملك أربعين ألف درهم فكان يعتق منها العبيد ويقوى بها المسلمين ، ولعل عمر نفسه لم ينس لأبى بكر يوم أقبل على شراء بلال وهو مدفون فى الحجارة المحماه لينقذه ممن يعذبونه ثم اشتراه بخمس أوراق ذهبا وفرح البائعون بما أخذوا فقالوا له : لو أبيت الا أن تشتريه منا بأوقية واحدة لبعناك ، فرد عليهم أبو بكر قائلا : وأنتم لو أبيتم الا مائة أوقية لأخذته بها .

ولم يزل أبو بكر كذلك حتى قال النبى فيه « ان من أمن الناس على فى صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا لاتخذت أبا بكر ولكن أخوة الاسلام ومودته » وقال « ما نفعنى مال قط ما نفعنى مال أبى بكر » وكان أبو بكر كلما سمع ذلك بكى وقال : وهل أنا ومالى الا لك يا رسول الله ؟!

فلما مات رسول الله وكان يوم السقيفة ساوى عمر بين أبى بكر وأبى عبيدة بن الجراح وأخذ هذا بيد وهذا بيد وطلب الى الناس أن يبايعوا لأحدهما . فلم يدعها له أبو عبيدة وجعل يعاتبه اذ رآها أبو عبيدة أكبر بادرة من عمر لم يكن منه مثلها من قبل وقال له : أتبايعنى وفينا أبو بكر الصديق وثانى اثنين ؟!

حتى اذا كان أبو بكر خليفة وانتصر الاسلام ورجع الناس اليه بعد الردة أخبر أبو رجاء العطاردى يقول : دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له : أنا فداء لك لولا أنت هلكنا ! فقلت للناس : من ومن ؟ قالوا : ذاك عمر يقبل رأس أبى بكر فى قتاله أهل الردة اد منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين .

يوم الامتحان :

وأهابت الأقدار بأبى بكر فلم تلق على كاهله من الشئون والأعباء — بعد مصاحبة النبى فى الهجرة — أفدح ثقلا مما ألقت عليه يوم الكارثة (يوم موت الرسول) اذ استفحلت الكارثة فأيقظت الجهالة وأثارت الفتنة وكشفت وجه الردة ، وكاد أصحاب رسول الله حتى من وفرت عقولهم وكبر ايمانهم أن ينسوا الآيات ويخوضوا فى الظلمات ولم يزل القرآن بينهم غضا وحكمه مقبولا متبوعا .

ولكن أبا بكر العظيم — ومثله كل عظيم — كان أكبر من الكارثة فوقف وحده يعترض العاصفة بأقوى منها جلدا وقوة ، وما لبث أن رد العقول الى رءوسها والقلوب الى صدورها وحادت العاصفة عن طريقه لم تغلبه ولم تزلزل قدمه ، وبدا فى ذلك اليوم أكبر عقلا من العقلاء وأثبتت ايمانا من المؤمنين اذ فرق بين ما لا بد أن يموت وما يجب أن يحيا : فرق بين الجسد والروح والزمن والمبدأ ثم صرخ فى آذان الناس — وكأنما يعلمهم من جديد — ان الجسد يفنى والزمن يمضى أما الروح والمبدأ فلهما البقاء والخلود .

وكأن نفس أبى بكر هى التى كانت قد تألفت وحدها عائذة من الضلالة والعمى لما استقر فى ذهنه وقلبه أن الرسول ميت وجعلت تزداد ثقته فى قرب موت رسول الله أخريات أيامه . ولعله أول من أدرك دنو أجله من النذر القرآنية التى جعلت تتوالى من الوحى كآية إكمال الدين وسورة النصر فبكى حين سمع الآية وحين سمع السورة . ثم خطب رسول الله ذات مرة وأشار فى خطبته الى أمر وأبعد فى الاشارة فقال « ان الله عز وجل خير عبدا بين الدنيا

وبين ما عنده فاختار ذلك العبد ما عنده » فبكى أبو بكر فعجب الناس من بكائه أن أخبر رسول الله عن عبد خير ، ولكن أبا بكر علم أن رسول الله يعنى نفسه . وكان أعلم الناس بما قال .

فلما مات رسول الله وبلغ أبا بكر وكان قد صعد الى منزله بالسنح عند منازل الحارث بن الخزرج بعوالى المدينة لم يتزلزل وأقبل على فرس له مسرعا يطوى الميل الذى كان بين منزله ذاك ومنزل النبى صلى الله عليه وسلم ثم نزل فدخل المسجد فلم يكلم الناس وتيمم قاصدا رسول الله وهو مغشى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه فقبله وبكى ثم قال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله !

ثم خرج أبو بكر الى الناس وهم يضطربون فى كلام مستبهم لا أصل له ، الا أن دهشة الموت خطفت ألبابهم فأقبل أبو بكر فوقف بين الناس نافذ البصر ثابت العود جرىء القول ثم قال : أما بعد فان من كان يعبد محمدا فان محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حى لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » .

قال أبو بكر ذلك فكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر فتلقاها منه الناس كلهم أو تذكروها ، ولم يكد عمر يسمع أبا بكر يتلوها حتى عقر فما تقله قدماه وحتى أهوى على الأرض تاركا موقفا كان قد اتخذه على رءوس الناس وارتجع فى نفسه ما كان قد أذهلته عنه الكارثة من آى القرآن .

تنازل الأنصار :

ويغلب على الظن أن أهل المدينة من الأنصار حين نبتت فيهم فكرة المناوبة فى الخلافة بينهم وبين قريش كانوا قد نظروا الى المهاجرين من مكة نظرة عامة . وكان من المهاجرين من سبق ومنهم من لحق وكان منهم المتقدم فى هجرته الى الله ورسوله والمتأخر فيها فلم يكونوا على سواء . والأنصار

كانوا كذلك منهم من آمن قبل قدوم النبى اليهم ومنهم من تأخر حتى قدم أو أقام . وقد كان كثير منهم قد سبقوا كثيرا من المهاجرين الى الاسلام وحينئذ كانت تصح الفكرة فى هذا الخليط أو تكاد .

ولكن ما كاد اسم أبى بكر تشرق أوضاحه ويبايع له من بايع من المهاجرين حتى أقبل الأنصار على مبايعته كالعصائب المزدحمة لم يتخلف منهم أحد وغلت فيهم الحمية حتى كادوا يطأون من تعرض لبيعته ، ولم يعد لذى رأى أن يعترض أو لذى أناة أن يتأنى ، وحسب أبى بكر أنه كان أول من تفرد بصحبة النبى يوم الهجرة وقد تقسم أهل المدينة شعاع وجهه بأعينهم وهو يظل رسول الله بثوبة من حر الشمس ، ثم هو قد وقف اليوم يرد العقول الى الرءوس والقلوب الى الصدور فجمع بين أول الأمر وآخره ولمه فى يده لمة القادر المسيطر والقائد المظفر .

وأقر الأنصار فى سرعة واذعان ما تقدم من الأدلة مكررا معادا : اذ كان رسول الله قد أشار باستخلافه على الصلاة : فانه لما ثقل المرض برسول الله عكف الناس فى المسجد ينتظرونه ليصلى بهم صلاة العشاء ولم يكن يستطيع الخروج اليهم من معاودة الاغماء عليه فأرسل الى أبى بكر أن يصلى بالناس فصلى أبو بكر بالمهاجرين والأنصار وأهل البادية سبع عشرة صلاة أو ثلاثة أيام .

وكانت هذه مرة . أما الثانية وقد حدثت عائشة عنها — فان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجد خفة من مرضه فخرج بين العباس وعلى لصلاة الظهر فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر فأومأ اليه رسول الله أن لا يتأخر وأمرهما فأجلساه الى جنبه فجعل أبو بكر يقتدى برسول الله ويصلى قائما ورسول الله يصلى قاعدا .

والمرة الثالثة حين كشف النبى ستر حجرته ينظر الى المصلين ثم تبسم يضحك فهموا أن يفتتنوا من الفرح فنكص أبو بكر على عقبيه وظن أن النبى خارج الى الصلاة فأشار النبى اليهم أن أتموا صلاتكم وأرخى الستر فتوفى فى يومه .

أما فى غير الصلاة فقد أشار الرسول اليه ذات مرة حين جاءته امرأة فى حاجة ولم يكن عنده شىء يعطيها فأمرها أن ترجع اليه من حين الى حين لعلها تجد فقالت المرأة : أرأيت ان جئت ولم أجدك ؟ فقال لها رسول الله « ان لم تجدينى فأتى أبا بكر » — وكأن المرأة كانت تريد الموت — فأشار اليها الرسول أن تأتى أبا بكر ان هو غاب !

حقا لم يكن فى هذا كله تخليفا صريح القول من النبى ولكن كان فيه ما هو أبلغ وأقوى وأجدر أن يشكر لرسول الله اذ دل على الفضل وأشار اليه ثم ترك للناس حرية الاختيار ، ولن تخرج بهم الحرية عن اقرار الفضل الذى أشار اليه رسول الله .

ولقد كان خيرا ما هدى الله الأنصار والمهاجرين الى مبايعة الصديق الذى لم يدع لهم وقتا يتفرقون فيه فلا يلتئمون وجدالا يختلفون حوله فلا يجتمعون ، ومما لا ريب فيه أن أبا بكر كان يرى ما سيحدث خارج أسوار المدينة من ارتداد العرب فعجل بتوحيد المدينة فى يومه ليواجه ما يكون فى غده — فعل القادة الحكماء — ولو تأخر القائد عن هذه الخطوة لحظة واحدة لفشل أمر الناس .

وكذلك لم يتخلف أحد عن البيعة العامة حتى أقرب الناس الى النبى قرابة . واذا كان قد قيل فى أقاصيص التاريخ من بعد أن قوما نظروا فى هذا الأمر واعترضوا عليه أو انزووا عنه فانما كان قولا لم يقع له فعل ولم يعترض الاقالة الكلام ومن لا هم لهم الا لوكه ومضغه . وأنى لهم أن يحسوا بما أوجب البيعة العامة لأبى بكر وهم ليسوا من أهلها ولا أهل زمانها ؟!

مبايعة المبادىء :

ولقد كسبت الأمة بمبايعة أبى بكر كل الكسب : اذ بايعت فيه سطوة الرأى التى بدت يوم الكارثة حيث ظهر الصديق فى مظهر القائد القوى المجرب الذى يمسك بزمام النفوس أن تزل والحوادث أن تغلب .

وكسبت الأمة بصرخته فى الآذان بما نسيه الناس من القرآن أن أعاد اليها طمأنينتها وفطنها الى وجوب أن لا يكون كتابها كلاما يقرأ فينسى ،

ولكن أن يكون قواعد راسخة لا تخلخلها العواصف والـكروب حتى لو تمثلت في موت النبي الذي بعث بالقرآن .

ولعل هذا الموقف الرهيب كان أول ما فطن عمر بن الخطاب الى جمع القرآن ، فلما قتل أكثر حفاظه يوم اليمامة أشـار على أبي بكر بجمعه في الصحف مخافة أن يذهب بذهاب الصدور التي تحفظه ففعل أبو بكر ما أشار

وبايعت الأمة بمبايعة أبي بكر الشجاعة الباسلة ، وهي وان كانت صفة له فيما مضى من تاريخه فقد كانت صفة جندي تابع في أول الصفوف لا بد له أن تتأثر شجاعته بأوامر قائده ، ولكنها انطلقت بعد المبايعة بكل مظاهرها وخفاياها في القائد الفرد الذي تنتظره الحوادث العظام والخطوب الجسام .

وبايعت الأمة بمبايعته كل خصـال الفضيلة من الزهد والجود والحلم والوقار والرأفة والوفاء ، وقد مضى أبو بكر في كل حياته — قبل الخلافة وبعدها — عفيفا متعاليا لم يسأل الناس شيئا من قبل ولم يسألهم من بعد ، حتى لقد قالوا انه وهو خليفة ، سقط خطام ناقته من يده فضرب بذراع ناقته فأناخها فأخذه فقالوا له : لو أمرتنا أن نناولك اياه فقال : ان حبي صلى الله عليه وسلم أمرني أن لا أسأل الناس شيئا .

ولقد ظل أبو بكر لجيرانه — ككل الأوفياء — كما كان ، لم يتغير ولم يتبدل ، ومن كريم خلقه مع جيرانه أنهم قالوا انه كان يسـاعدهم في حلب أغنامهم التي كانت تمنح لهم ليشربوا لبنها ويردوها الى أصحابها ، فـكان الصديق يعاون من يريد الحلب ليستقي من يشاء . فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحي : الآن لا يحلب لنا منـائح دارنا ! فسمعها أبو بكر فتبسم وقال : بلى ، لأحلبنها لكم ، واني لأرجو أن لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت فيه . واستمر في معونة جيرانه كما كان .

سياسة الحكمة :

وكان أبو بكر — منذ أول المبايعة — بارع الرأي كريم الخلق اذ طمأن الأنصار بقوله : منا الأمراء ومنكم الوزراء . فلما وقف خطباؤهم يذكرون

فضل الأنصار أقرهم على ما قالوه من الفضل وقال لهم : وما ندفعكم عن الفضل الذى قال به خطباؤكم ، وما ذكرتم من الفضل فأنتم له أهل .

ولئن كانت خطبته الأولى قد اتسمت بالاعتراف بالرأى العـام الذى اعترف به وتفضيل الجمـاعة التى فضـلته واتسمت بالتواضع الجم وروح المشاورة حيث طلب من كل ذى رأى قويم أن يبديه ليستقيم وتستقيم الأمور، فان خطبه الكثيرة التى تتابعت ظلت تتردد فى وسط من الحزم بين الشـدة واللين والترغيب والترهيب والحث على التقوى وطرح الحمق . ولعل أفضل ما فصله فى سياسته وصفه للقوى والضعيف عنـده ، فلم يدع للقوى أن يعتدى ولا للضعيف أن يضام .

وما كاد يتم له الأمر حتى استوزر عمر بن الخطاب ليأخذ برأيه ولاسيما فيما يصطنعه الناس من خلاف ويبدونه من تردد فانه لم تعرف مرارة حق بأشد مما عرفت فى عمر ، ثم لم يأل أن أنفذ أسامة بن زيد بلواء رسول الله الذى كان قد عقده له ولم يخرج ومات رسول الله .

وقلقت نواحى الجزيرة واليمن بالفتن ومنع الزكاة والارتداد عن الدين ، ولم تدر هـذه النواحى أن أبا بكر سيتجرد لهم ويرميهم بسواس الحرب ونصراء الموت وفى مقدمتهم خالد الذى عقد له أبو بكر فمضى الى القوم يتأنى لهم تأنى القطاة ويثب عليهم وثوب الأسد ففرق الجموع وقتل المقاتلة وأسر الأسرى وأخمد فتنة التنبؤ ورد العرب الى الاسلام والزكاة .

وكما لم يعف أبو بكر عن عقال يمنعه مانعو الزكاة فانه لم يعف عن قائد من قواده تبلغ به الثقة فى نفسه أن يغتر فيهمل أو يشتط فيأثم ، ولقد عاتب خالد بن الوليد فى ثقته بنفسه واشتطاطه على غيره ولم يدعه يمضى على خطته التى يشاؤها مهما صار له من الظفر والانتصار .

وجمع أبو بكر ما كان قد ظل متفرقا فى مكة من النفوس فشد قريشا الى رابطة المهاجرين والأنصار من غير أن يسرف واحترس على أبيـه الذى تقدم اليه يوصيه بمتأخرى من أسـلم منهم فاستعظم أبو بكر الأمر وترك

الشفاعة فيهم لله فانه لا قوة له ولا يدان الا به . وحسبه أنه سأل عن سيرة العدالة فيهم فلم يتقدم له أحد بمظلمة فأثنى على واليهم .

وقد اتسمت سياسة أبى بكر بالمساواة بين الناس ، فحين جاءت الغنائم جعل للناس جميعا حقوقا فيها وساوى بينهم فى قسمها فلم يفضل أحدا على أحد : ساوى بين الأحمر والأسود فلم يفضل جنسا ، وساوى بين الحر والعبد فلم يفضل طبقة ، ثم أقام نفسه فى مال الله وفىء المسلمين مقام الوصى فى مال اليتيم ان استغنى تعفف وان افتقر أكل بالمعروف .

مرحلة الانطلاق :

ولم يكن أحد أكثر ثقة فى النصر من أبى بكر متى طلبه بشرطه وعدته ، وقد رأى فى وحدة الأمة قوة ليس من شأنها أن ترد عنها العدوان فحسب ، بل انها لتستطيع بهـذه الوحدة أن تكشف الغمـاء عن الجمـاعة المظلومة والشعوب المستعبدة . وكذلك أسرع حين أيقظ فى العـرب نواة طاقة لا تنضب فوجههم الى مرحلة النضال الخارجى فألقى عليهم أن يطردوا عبادة الأوثان عن الأرض ما قرب منها وما بعد وأن يردوا أنفاس الأنين فرحا بانقاذ المظلومين والمستعمرين .

وأقبل العرب على أبى بكر حين شمر للأمر من كل فج يبشرونه بالخير ويبايعونه على الطاعة ولا سيما من اليمن فقد ساروا اليه بذراريهم وأموالهم وعشائرهم ثم تبعتهم القبائل وعقد عليهم الألوية ليزيد بن أبى سفيان وأبى عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص وأنفذ معهم أولئك المبايعين جيشا بعد جيش فى بحر بشرى مصطفق بالحديد لا ينحسر له مد ولا ينقطع له مدد .

وكان من أروع مظاهر الانطلاق أن يمضى أهل البادية فى أعظم براعة حربية يعتسفون المفازة العطشى الى الشام فى ثمانية أيام وكأنما طويت لهم الأرض . ثم مضت الجيوش الأخرى تغزو البحرين وأرض العراق فى نظام يخلب الألباب .

ولم يكن أبو بكر يتفادى بما فعــله تمردا داخليا — كما يدعى أعداء العرب والاســلام — ولو كان ذلك ما تيسر له أن يفتح فى أقل من سنتين أرض اليمــامة فيرد الصحراء خصــبا ، وأطراف العراق فتفيض السيوح والغيوث ، ومشارف الشام فتشرق منها على الأرض كلها شمس الاسلام .

وليس من شك فى أن الجماعة الاسلامية كلها قد تحولت فى عهد أبى بكر تحولا تاما الى قوى حربية ضاربة ولكنها لم تكن مغرورة ولا طائشة فقد أشرق الاسلام فى نفوسها فقادها الى النصر والغنيمة ان كانت الحياة ، والى الجنة والمغفرة ان كان الاستشهاد .

أسوة حسنة :

لم تكن الموهبة التى تمثلت فى مبايعة أبى بكر غير مثل رائع لما يحدث فى تواريخ الأمم من أدوار تمتاز باظهــار المواهب البشرية لأفراد من ذوى المنــاقب العالية فيطبعون الحوادث بطابع شــخصياتهم القوية فاذا وافقت ظهورهم الحاجة اليهم فلا مناص لها من أن توليهم زعامتها وتسلم لهم قيادها .

وما تهتدى الأمم لأمثال هؤلاء الذين تبايعهم مبايعة عامة عن عفو من الخاطر أو بادية من الرأى ولكنها لا تفعل الا وهى تكافىء الهبات والصفات التى عرفتها والأمانى والآمال التى ترجوها .

وظاهرة الاجماع فى المبايعة بعد التنبه لمن يستحقها انما تنبع من اقرار نفسى متشابه فى الأفراد بالقيم العظيمة التى تجمعت مظاهرها فى شخص من يبايعون له ثم بدت لعيونهم أشعة مضيئة يبصرون فيها مستقبل آمالهم كما أبصروا ماضى أمجادهم ، وقلما تخطىء هــذه البواعث التى تجمع الجماهير على رأى يرونه بل انها لا تخطىء أبدا .

ولقد صدق الذين قالوا : انه لا بد للحوادث من أن ترخى ظلها قبل وقوعها . ويكاد يصدق قولهم فى كل حادث لأنه ما من أمر يحدث الا وهو يسوق قبله أدلة ظهوره ، وانما تختلف الظلال قوة وضعفا وامتدادا وانقباضا بقدر ما فى ذلك الأمر من قوة أو ضعف . وقليل من الرجال من هبت لهم

أممهم تبايعهم بيعة عامة بل وتجبرهم على أن لا ينفكوا عن ميثاقها الذى واثقتهم عليه . ولم يكن ذلك الا للأفذاذ العظماء الذين لا تجد الأمة سبيلا لنهوضها الا أن تلقى عليهم بأزمة الأمور كما هو حادث فى بيعة العرب لرجل اليوم الذى أجمعت الأمة العربية كلها عليه وهو الرئيس الرائد جمال عبد الناصر .

ومنذ المبايعة تتقابل الطاعة بالواجب ، اذ حين تقلد الأمة قائدها الرياسة وتضع على كاهله أثقل أعبائها وأفدح أحمالها انما تؤمن بهذا التقليد جانبها لتنصرف الى أعمالها فى اقبال واخلاص ملقية أمر حاضرها ومستقبلها لمن أولته زمامها ، حتى اذا حان له أن يدعوها الى معونته هبت غير متأنية الى طاعته ولا متراخية فى تلبيته .

وكذلك تقابلت الطاعة بالواجب فى بيعة أبى بكر الصديق وكذلك يتقابلان فى كل بيعة صادقة وأمة واعية . ومهما تطورت حياة الشعوب واختلفت صور معايشها فان حتمية التاريخ ستظل تقرر أن أحق الناس بقيادة الناس من يفوت الرجال مستعليا بخلقه ورأيه وتجاربه وما حقق لهم من الأمانى فيما مضى وما يستحدث لهم من الآمال فيما بقى . وما من سحابة ترتجز الا وهى تبعث أملا واقعا وغيثا نافعا .

التكامل والإيثار

ضمان النصر • البيعة الشاملة • الطاعة والانقياد • استقبال المهاجرين • خلق الايثار • تيسير التحول • صخرة الآمال • الحقيقة الأزلية •

ضمان النصر :

دخل الاسلام فى ضمان النصر حين بايعت الأوس والخزرج رسول الله فى سوق مكة وفى المدينة : فى السوق لمن لقيه منهم ، وفى المدينة لمن بلغته دعوته قبل أن يراه . وكانت وحدة الاسلام الجامعة قد شدت القبيلتين برباطها شدا وثيقا وامتدت يدها مع الدعوة الرجيمة فأطفأت عصبية الجاهلية فيهما واستلت السخائم من قلبيهما .

وأمر مدهش كأنه المعجزة أن تنقلب الفرقة العريقة والعداوة الموروثة بين هذين الشعبين اتفاقا واتحادا يتحول به الصراع الى حب وامتزاج وتتحول به أفكار المتعادين من تعصب ذميم الى مودة ورحمة . وكان من حق هذه المعجزة أن توجب على من حولتهم أن يتعجبوا لها وعلى من استمتعوا بنعمتها أن يشكروها ، وكان من حق القرآن أن يمن عليهم قائلا « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » .

ومبايعة الأنصار لرسول الله بعد قليل من السابقين من أهل مكة أفضى الى أن يتخذ النبى قاعدة لدعوته غير القاعدة الأولى التى تشبث أهلها بمعاداته بغيا وعدوا ، ومع أن الأنصار كانوا أبعد اتصالا بالنبى من أهل مكة وأقل معاشرة له فقد قدموا بما فعلوا دليلا من الاسلام ذاته على قوته وصلاحيته للأمكنة المختلفة مع فروق ما بينها من معايش وأحوال .

وأهل المدينة كانوا يساكنون فى بلدهم أهل ديانات أخرى منذ أزمنة بعيدة ، وكان بين أهل هذه الديانات علماء بها حراص عليها ، فحين بايع أهل المدينة دينا مكيا أفسحوا له فيما بينهم أن يحقق دعوته بالاستعلاء على الدين كله حين حققوا له أن ينبعث صوته فى وسط يعج بأصوات تنبعث من أديان أخرى .

وقد فارقت الدعوة بهذا كله طريقة الحنفاء الذين ظلوا يعكفون على الظن باله واحد دون أن تكون لهم قوة ظاهرة بين الموحدين أو تكون لهم شريعة مفصلة ، وانما كانوا أشبه بمن وقعوا فى حيرة ثم مالوا فى هذه الحيرة الى النجاة .

البيعة الشاملة :

والأوس والخزرج الذين شرفهم الله فى كتابه باسم الأنصار اكتسبوا لأنفسهم حين بايعوا رسول الله فى أسواق مكة ربحا رابحا اذ بايعوا للنبى فى مزدحم البيع والشراء والتفاخر بالأحساب والأنساب فاختاروا بذلك لأنفسهم أن يذهب الناس الى رواحلهم بمكاسب الدنيا ويعودوا هم بها أيضا ومعها مرابح الآخرة ، فكانوا أربح سفر ذهب فى تجارة وأظفر شراة اشتركوا فى بيع .

ولم تفسد ضوضاء التجارة على رسول الله ولا على الأنصار أن يدعو بدعوته وأن يجد مبايعين دون أن يمتنع الناس عن دنياهم . ومن قبل أمسك السيد المسيح بهراوته يضرب التجار خارج الهيكل لما كدروا عليه صلاته بضوضائهم ، ولكن محمدا ترك للدنيا سبلها وقصد من الآخرة سبيلها فأوضح للناس فى دعوته ملامح دينه حيث تطلب الآخرة وترجى من حيث لا تهمل الدنيا ولا تنسى .

ثم لم تكن بيعة المدينة للنبى ترضية لهوى أهلها ضد أهل مكة أو اليهود المقيمين بها ، واذن لانفض الناس عنها اذا شبعت الشهوات حينا ، ولكنها كانت مبايعة أبدية تعيش مع حياة النبى وتمتد الى ما بعده ، يمضى عليها السلف ويتولاها الخلف ، وهكذا كل ابن عن أب فى سلسلة الوجود حتى القيامة .

وكانت بيعة كل من بايع على ما يحب وما يكره ، فليس لأحد على المبايعة شرط ، وانما هى العقدة التى لا تحل ، ولم يترخص رسول الله فيها لأحد ولم يقبل بعضا دون بعض ولا ظاهرا دون باطن ، اذ لا تستقيم البيعة الا بالاقبال كله وكما دعا الله قائلا « يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » .

فلم يكن كافيا للدخول فى الاسلام أن تتبع بعض شرائعه دون بعض أو تستحسن منه وجوه دون أخرى . وكل ما يسار المرء به نفسه من باطل أو

نكوص فانما اثمه على من يخفيه في نفسه أو ينكص به من حيث يبقى حق البيعة قائما وأوامر الولى مطاعة معمولا بها ونواهيه متروكة مبعودا عنها .

وأعظم ما شرف المدينة أنها أقبلت على الاسلام راضية به كله من غير اكراه حتى فضلت فيه سائر البلدان ، لا يستثنى بلد حتى مكة ، فقد فتحت المدينة وحدها بالقرآن حتى ان الآباء الذين أرادوا أن يكرهوا أولادهم على الاسلام منعهم الله ورسوله من أن يكرهوهم عليه وتركوهم لأنفسهم ، فقد صار لهم أن لا يتخلفوا وهم أبناء الأنصار وقد تبين لهم الحق من الباطل حيث يقول سبحانه « لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » .

الطاعة والانقياد :

وأزمعت الأوس والخزرج ومن بايع معهما أن يقتدوا برسول الله ويتبعوا سنته من قول وفعل ، ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه ، ومهما أدبهم بأدب تأدبوا به ، وأقروا فى ظاهرهم وباطنهم أنه لا حلاوة لتعزير رسول الله وتوقيره الا أن يكون الله ورسوله أحب الى قلوبهم من أنفسهم فى العسر واليسر والمنشط والمكره ، ولم يكن لهم غير أن يلبوا داعى الله الذى نادى قبلهم أهل مكة يقول : « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره » . ثم أقبل بعض أهل مكة وتأخر بعضهم فعد من الفاسقين .

ورؤية رسول الله أو الشوق اليه بالعين أو القلب كانا كما قال على بن أبى طالب — رضى الله عنه — : أحب من الماء البارد بعد الظمأ .

ومهما صور هذا الحب فى بلاغة فان المسلمين انتصروا به حين التفوا حول رسول الله ذاته ، وانتصروا به حين التفوا حول شريعته ، وأول دليل على صدق هذا القول ما حدث من أصحاب رسول الله فانهم لم يخرجوا بعد أحد فى عسكر مع النبى الا ظفروا ، ولم يخرج عسكر بعد رسول الله وفيه واحد من الصحابة الا ظفر ، وهذه البلدان كلها انما افتتحت على عهود الصحابة فلما انقرضوا لم تفتتح بلدة على الوجه الذى كانوا يفتتحون .

وقد تبين أن أهم شئون المبايعة بالتقدير كان العهد ببذل الأرواح فى نصرة الداعى ، أما ما وراء الأرواح فكله أدنى منها قيمة وقدرا . وقد وضع هذا العهد فى ميثــاق الأنصار أول ما واثقوا النبى ثم أقبلوا على الوفاء به اقبــال الليوث فتكسروا على الموت أفرادا وجمــاعات حتى تفرقت الأوس والخزرج أشلاء كريمة تتناثر فى بقاع الأرض كلها طهرا وطيبا .

وفى الحق أنه لا قيمة للأموال الا اذا كانت الأرواح ناكصة والنفوس مخذولة ، فهناك يظهر الغنى وتصلصل الأصوات ، أما اذا شجعت الأرواح على البذل فلا ضعف مع الضنك والفقر مهما بلغا واشتدا .

وهكذا كانت مبايعة المدينة ، بل هكذا كانت وتكون كل مبايعة ينتصر فيها دعاة الأديان والمبادىء ، أما اذا تلكأ الناس وتلمسوا القوة المادية وحسب ولم يدبروا لهم أمرا حتى ترخى عليهم ظلالها فانه لا أمان للمعركة التى تخاض ولا مطمع فى النصرة التى تراد .

ولم يكن المال ولا الملك مطلب النبى ، واذن لوجدهما فى مكة ، فقد عرضا عليه والتمس المشركون رضــاه فأبى الا ما يكرهون من الاقرار بالله ورسوله ، وهذا الذى أباه أهل مكة رضيه أهل المدينة مع أنهم كانوا أفقر من أولئك حالا وأقل مالا .

ومنذ قبول المبايعة بالأرواح على ما يحب الناس من النبى وما يكرهون تمت كل الأجزاء فتركب الميزان من كفتيه : كفة راجحة موزونة من ايمــان وفقر ، وكفة شائلة خاسرة من كفر ومال .

استقبال المهاجرين :

وباستقبال الرسول فى المدينة دخل الأنصار دور الايمان والعمل بعــد دور الاسلام والقول . ووشيكا توالت نوائب الامتحان الشاق والابتلاء المرير وتمخض الزمن عن صدق ايمانهم وبذل أرواحهم فلم يقولوا قولا الا حققوه ولم يعدوا وعدا الا وفوا به .

والاخاء الذى صنعه رسول الله بين الأنصــار والمهاجرين كان عبؤه الأكبر على الأنصار اذ قسمت مآكلهم ومساكنهم وأرزاقهم ، ثم ما لبثوا أن

خضعوا للنبى فى تخطيط مدينتهم من جديد ومد أرجائها وزراعة حواشيها وتثمير وديانها لتتسع لأفواج المهاجرين الذين وفدوا عليها من مكة ثم من آفاق الجزيرة وخارجها وهى لا ترد مهاجرا ، بل تعتبر بائسا كل من رجع عن الهجرة أو مات بعيدا عن المدينة فلم يدفن فى بقيعها .

وكان حسب المهاجرين الى المدينة أن يلبسوا ثوب الهجرة الى الله ورسوله ، ورب امرأة أتت النبى مهاجرة فاستحلفها بالله أنها ما خرجت من بغض زوج ولا رغبة بأرض عن أرض وما خرجت الا حبا لله ورسوله حتى يقرها على هجرتها . وكذلك كان حسبهم جميعا وان لم يحملوا معهم زادا أو نفقة ، اذ صارت الهجرة فرضا على كل من آمن بقوله تعالى « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وسواء استطاع المهاجر أن يستخلص من ماله ما يستطيع أن يهاجر به الى المدينة أم لم يستطع فان الأنصار باستقبالهم المسلمين هدءوا كل مرتعب وشجعوا كل متردد فلم يعد لخائف أن يختار بين الهجرة والتخلف فان فى انتظاره الدار والكسوة والطعام .

وقد رأت المدينة فيما رأت من فيالق المهاجرين ألوانا لا حصر لها ، فى برهة قصيرة من الزمن صارت الهجرة اليها سيلا جارفا وطوفانا طاغيا . وممن رأت وضمت قوم من الفقراء هاجروا اليها بلا مال ولا كساء ولا أداة للتجارة فلما أقاموا لم يجدوا وجها للكسب ولا مكانا للسكنى ، قد أنفدت المدينة كل جهدها من رزق ومكان ، فجمعهم النبى فى صفة كانت فى مسجده وهى سقيفة كانت من جملته فقعدوا فى ظلها ورصدوا أنفسهم لتعلم القرآن والخروج فى سرايا رسول الله عند كل مفزع ومقتل ، وكانوا أربعمائة ، وقد أصاب بعضهم الضعف وأصابت بعضهم الجراحات فصاروا من الزمنى ، ولكن أهل المدينة لم ينسوهم ، حتى اذا اتسع الاسلام كان منهم الأغنياء وكان منهم الأمراء .

قال أبو ذر : كنت من أهل الصفة وكنا اذا أمسينا حضرنا باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيأمر كل رجل فينصرف برجل ويبقى من بقى من

أهل الصفة : عشرة أو أقل فيجاء للنبى بعشائه وتتعشى معه فاذا فرغنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ناموا فى المسجد » .

ولم يضق الأنصار بأحد ذرعا وكأنما كانوا أوحد الناس ايمانا بالرزق وأكثرهم توكلا على الله ، وكأنما صار هذا الايمان وهذا التوكل طبعا قائما فتركوا سيول المهاجرين الجارفة تسيل بمدينتهم وضواحيها فى كل مسيل ، ولا سيما حين نزل فى أولئك المهاجرين الفقراء قول الله تعالى : « وكأين من دابة لا تحمل رزقهــا الله يرزقها واياكم » فحمل كل مدنى جهــده بل فوق ما يطيق وكأنما أصبح على عاتق المدينة أن تحمل وحدها كل الأعباء .

خلق الايثار :

ولم يتخلق أهل بلد بمثل ما تخلق به أهل المدينة الأنصار من ايثار غيرهم على أنفسهم بكل ما سال فى وديانهم من نعمة ورزق . ولقد كان الغالب عليهم العمل فى حدائقهم وأموالهم بأنفسهم فلم يكن معهم لغيرهم كبير فضل ، فلما انصبت فى أرضهم سيول المهاجرين أشركهم الأنصار فى أعمالهم وأموالهم وظل ذلك حتى افتتح رسول الله بنى النضير فقــال للأنصــار : « ان شئتم قسمتها بين المهــاجرين وتركتم نصيبكم فيها وخلى المهاجرون بينــكم وبين دوركم وأموالكم فانهم عيال عليكم » فقالوا : نعم ، ففعل النبى ما وافقوا عليه ولم يأخذوا من أرض بنى النضير نصيبا .

وكان ما فعله الأنصار مع المهاجرين مثار عجب المهاجرين ذاتهم فقــالوا لرسول الله : يا رسول الله ، ما رأينا قوما أبذل من كثير ولا أحسن مواساة من قليل من قوم نزلنا بين أظهرهم ، لقد كفونا المئونة وأشركونا فى المهنأ حتى لقد خفنا أن يذهبوا بالأجر كله . فقال لهم رسول الله : « لا ، ما دعوتم الله لهم وأثنيتم عليهم » .

نعم انه قد تحرك الغضب والأثرة أحيانا فى نفوس الضعفاء منهم فكان أن ذكرهم رسول الله بنبيل مسلكهم فى نصرته والاستئثار به مما لا تقاس به مكاسب ولا تبلغ غنائم فانطفأ الغضب وخمدت أثرة النفوس .

ولعل أكبر غضب حاك فى صدورهم يوم غنائم حنين حين فرقها رسول الله على أهل مكة ولم يعط منها الأنصار فغضبوا ، وما لبثوا أن رجعوا عن الموجدة وغلظ الطبع الى الرقة والايثار حين خطب فيهم رسول الله يقول :

« أوجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قوما ليؤمنوا وتركتكم الى ايمانكم ؟ أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالهم ؟ » قالوا : بلى ، ولله الفضل والمن . فقال لهم رسول الله : « والله لو سلكت الناس شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار » ثم دعا رسول الله لهم ولأولادهم وذراريهم . وقد كان ما قاله الرسول حقا وصدقا فقد بين لهم أنه ليس قوم أقرب الى قلبه منهم وانه لن يبيع موطنه بينهم بالوطن الذى ولد فيه .

ومن قبل هذه المرة راود الحزن قلوب بعض الأنصار حين استشهد بعض رجالهم فى أحد ثم ما لبثوا أن كفوا حين نهاهم النبى عن الاسترسال فلم تسمع بعد ذلك رنة حزن على شهيد .

ولقد كان الرجل منهم ومن غيرهم يستبعد ما بينه وبين الجنة لو كان بينه وبين الاستشهاد مسافة أكل ثمرات فى يده فكان يرمى بهن ويقتحم على الموت حتى قال قتادة : ما نعلم حيا من أحياء العرب أكثر شهيدا أعز يوم القيامة من الأنصار .

وهذا الجبل المدنى الذى هزم الأنصار عنده لم يلبث أن تغير حاله من جبل كرهت عنده الهزيمة الى جبل يتقدس بحديث رسول الله الذى يقول : « أحد جبل يحبنا ونحبه » ورسول الله وان كان يعنى به أهله على المجاز — وهم أهل المدينة — فان الجبل ذاته قد أصابه ما أصاب أهله من عزة وتقديس .

ولكن هذه المرات التى بدت فيها باديات غضب أو حزن من الأنصار أو بعضهم لم تكن غير موجات عابرة لم تمس قلوبهم أو تكدر نفوسهم فكانوا أحق الخلق بثناء الله عليهم فى قوله « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هو المفلحون » .

تيسير التحول :

ولم يكن الدين الا تحولا سريعا أو بطيئا عن الماضى الذى توارثه الناس ، وانما يظهر هذا التحول عنيفا حينا وهينا حينا آخر . وهو يعنف حين يكون تغييرا فى جذور الحياة التى ألفها الناس ، وأعنف اذا مس العبادات التى اعتادوها . ولكن المدينة سهلت كل صعب ويسرت كل شاق فى كل تحول عنيف فمضى الاسلام قدما شجاعا فى كل تغيير .

وكان حادث التحول الى القبلة فى المدينة ابتلاء للناس ليعلم الله من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ، وهو وان كان استجابة لرغبة رسول الله من ربه وتخلصا من شبهة مسايرة دين آخر ورجوعا الى قبلة ابراهيم التى صلى اليها النبى من قبل وهو بمكة — الا أنه كان فى مظهره اتجاها الى مكة وانتباها من النبى الى موطنه الذى ولد فيه ، فأثار السفهاء من يهود المدينة والمنافقين والمشركين فأجلبوا فيه .

ولكن سرعان ما تحول الأنصار فى كل مسجد لهم عندما سمعوا أن رسول الله قد تحول الى الكعبة دون أن ينتظروا أمرا مؤكدا اذ خرج رجل ممن كان صلى مع النبى الظهر أو العصر فى مسجد بنى سلمة فمر على مسجد قباء وهم راكعون فنادى قائلا : أشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت :

قالت نويلة بنت أسلم — وكانت من المبايعات — : كنا فى صلاة الظهر فأقبل عباد بن بشر بن قيظى فقال : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد استقبل القبلة ، فتحول الرجال مكان النساء وتحول النساء مكان الرجال .

وهذا التحول العظيم الذى قبله أهل المدينة من خبر الواحد وجعلوا فيه الظن يقينا يدل على مقدار استباقهم الى الخيرات وتلهفهم على أخبار رسول الله وما يفعل حتى يقلدوه فلا يبطئوا . وهو دليل أيضا على أن الرسول

وأصحابه ما كانوا يدعون أمرا ذا بال دون أن يطيروا به الى الأسماع ليذيع بين الناس .

وربما يسر هذا التحول العنيف على الناس أن يتحولوا فى يسر الى كل ما يريد رسول الله أن يتحولوا اليه من أمور الدنيا مهما شق التحول ، لأنه ليس أشق على النفوس ولا أعصى عليها من التحول فى أمور الدين .

ولقد بدا فى القرآن أنه أكد الأمر باستقبال الكعبة والبيت الحرام أكثر من مرة ، ولم يكن ذلك الا لأن موقع التحويل كان صعبا على كثير من النفوس فأكد القرآن الأمر ليرى الناس الاهتمام به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم اليه . وانه انما كان عناية من الله بالمسلمين واتماما لنعمته عليهم .

صخرة الآمال :

وكان على كل عشرة من الأنصار مع من هاجر اليهم أن يحفروا فى الخندق حول المدينة أربعين ذراعا قبل أن يعض بهم الكرب الزاحف اليهم ، وفيما بين ستة أيام أو شهر كامل — كما اختلف الرواة — تم حفر الخندق ولم يبق الا أن تحاط المدينة بأعدائها ومحاربيها وكانت البلاد كلها ما عدا المدينة كفرا مطبقا .

واستعصت على سلمان الفارسى صخرة عاتية بدت فى بطن الخندق فصعبت على المعاول والفؤوس ونبت عن الأجلاد والحديد ، ولو تركت لصارت أدنى الى معابر الفرسان من خارج المدينة الى داخلها ، واتجهوا الى رسول الله يستعينونه على الصخرة فان فيه كل الأمل اذا عزت الآمال ، حتى فى الأمر يحتاج الى قوة البدن فانهم كانوا يستعصمون به ويلجئون اليه .

وأقبل القائد حين نودى ليرى رأيه فى هذه الصخرة ولم ير شيئا يعوقه دون أن يتم الحفر قبل أن يحيط بالمدينة كربها . ولعل رسول الله كان يرى من حيث لا يرى الناس أن الله لن يدع المدينة تقتحم حتى لو تركت بلا خندق حولها ، ولكن أحوال النبوة غير أحوال الناس الذين لا يطمئنهم الا الظاهر الملموس فكان من الحكمة أن يحفر الناس الخندق لتطمئن القلوب .

وسرعان ما شمر رسول الله عن ساعديه وضرب الصخرة ثلاث ضربات فتحطمت تحت فأسه وهى تنقدح نارا فتبعث برقا كأنه يلمع فى ليل بهيم ، ورأى رسول الله والصخرة تنقد بفأسه وينقدح برقها أنه لن يغلب بالأنصار قريشا وحدها ولا حلفاءها معها وحسب ، ولـكنه وقد رأى قوما صوما يحفرون الخندق فى زمن يسير بهمم شوس أنه ما يلبث أمر هؤلاء الناس أن يمتد الى ما وراء المدينة والجزيرة والآفاق ، وكان صدقا منه وحقا ما رأى فى تحطيم الصخرة أكثر مما أراد سلمان الفارسى من كسرها ليتم تعميق الخندق قبل القتال .

لقد رأى رسول الله أن البرق الذى انقدح بالضربة الأولى يضىء له قصور الحيرة ومدائن كسرى ، وأن برق الثانية يضىء له قصور قيصر من أرض الروم ، وأن برق الثالثة يضىء له قصور صنعاء .

وضجت قلوب المنافقين ترفض أن يكون لقائد ــ حتى ولو كان نبيا يوحى اليه ــ ان يؤول ضربات المعول وتطاير الشرر منه فتوحا فى الآفاق وهم لم يخلصوا بعد من الضيق الذى هم فيه . وقد خفيت عليهم أمور من الوحى أو الالهام يلمحها النبى فى الاتجاهات التى ضربت الصخرة فيها ويراها عيانا فى نفوس الأنصار من حوله ، وليس يراها الا هو ، ولا يقتدر على تأويلها الا الملهم الحكيم .

الحقيقة الأزلية :

ولقد استطاعت المدينة بكل ما فعلت أن تكتل كل القوى التى ردت عن الاسلام كيد المغيرين وغارة الكائدين من خارج المدينة ومن داخلها ، بل فى المدينة تجهزت كل القوى التى زحفت تحت راية الاسلام تخضع أعداءه وتقهر خصومه ، وفيها تجمعت كل القوى التى زحفت فيما بعد الى خارج الجزيرة لتبيد قوى الشر وتعلى لواء الاسلام .

وليس من شك فى أن تاريخ المدينة أيام الرسول وبعده ، وسيرة الأنصار وأحفادهم وذراريهم كانت دلائل مستقيمة يعتبر كل ما بقى من تاريخ المسلمين بما مضى منها فى كل الديار والأدهار .

والدلائل المستقيمة من حقها أن تتخذ قواعد صادقة تقاس عليها النتائج والآثار . وحتى فى الأمور التى لا تستلك تعود علماء الفلك أن يروا فى كل حدث مفرط فى الجو خارجا عن العادة يحدث فى الكون كيفيات مفرطة . وقد كان الأنصار كالحدث المفرط فأحدثوا فى الـكون ما لم يحـدثه غيرهم من الناس . وكذلك من أراد النصرة فعليه أن يكون أنصاريا فى مبايعته وصدقه وتضحيته وبغير هذه جميعا لا تكون البيعة الا لهوا ولعبا .

وانها لحقيقة أزلية . وقد كانت الرسالات المؤيدة من السماء فى حاجة الى أن تظاهرها المحبة الخالصة لتنتصر وتعم ، فلا يتخلى المبايعون عن أعبائهم التى تحملوها ولا ينفـكون عن مواثيقهـم التى ارتبطوا بها بحجـة تأييد السماء .

وكما لم يتخلف أنصارى عن أداء واجبه فانتصر الاسلام وبقى فانه يجب على المسلمين فى كل مطارح الأرض ومباعد الزمن أن لا يتخلف أحد منهم عن مبايعة المخلصين والوفاء بمواثيقهم حتى ينتصر الاسلام ويبقى . وسواء فى ذلك من دنا من رسول الله وأسكنه فى داره كأبى أيوب الأنصارى أو جاء فى أقصى الأرض وآخر الدهر قصيا مجهولا متى بايع على الحـق وأخلص فى الصدق ولم يضن بروحه على الفداء .

الفتوة والخلود

معنى الجيل • أخلاط وحظوظ • جيل الصحابة •
امتداد الأمل • الذكر والنسيان • اليقظة والوعى •
الزعيم الموهوب • مواثل الآمال •

معنى الجيل :

من المستطاع استئذان أهل اللغـة المحافظين أن يقـروا العرف الذى فرضه الزمن والناس على لفظ الجيل . وكان القدماء يقولون ان الجيل هو الصنف من الناس أو الأمة منهم فيقال جيل العرب وجيل الروم وجيل الترك وبذلك يمتد لفظ الجيل الى الجنس كله فى مختلف أزمانه للمظاهر التى تميزه والصفات التى يتوارثها الأبناء فيه عن الآباء .

ولكن العرف فى الأزمنة الأخيرة أخضع لفظ الجيل ليدل على أهل عصر واحد من أمة واحدة أو من كل الأمم ما داموا يعيشون فى وقت واحد أو أوقات متداخلة . ومع تغير هذا العرف أو اتساع معنى اللفظ فما زال الجديد قريب النسب من القديم ، ففيه منه أسباب ومشابه اذ دل الجديد على الجماعة أو شتى الجماعات التى يتساوى زمانها وتعيش فيه معـا ، فالعرف الجديد بذلك لم يهجر الصفات والمواريث .

وبهذا التوسع اللفظى لكلمة الجيل تناولت الكلمة معنيين : أوسعهما ما دل على سكان الأرض فى وقت واحد ، وأضيقهما ما دل على أبنـاء أمة واحدة فى زمن واحد ، وقد اخترت فى مقالى هذا المعنى الضيق للجيل والذى يدل على أهل عصر واحد من أمة واحدة ، فاذا قلت جيل الصحابة أو جيلنا المعاصر فانى أعنى الناس الذين جمعهم زمن النبى فى صحبته دون غيرهم ، وأعنى بالجيل المعاصر الذين يعيشون معنا فى زماننا ومن أمتنا .

وفى الحق انه لا ضرورة لاستئذان المحافظين ، فلقد صار هذا عرفا قائما بين الناس فلا تكاد تذكر كلمة الجيل حتى يثب الى الأذهان معناه الجديد ، أما المعنى القديم فلم يعد بين اللغويين محافظون الا بطون المعاجم التى استقر فيها هادئا ذلك المعنى القديم .

وأنتهى ما بين طرفى الجيل من مبـدئه ونهايتـه مع تداخل الأجـداد والأحفاد فيه أن يعيش مائة عام أو زهاءها ثم تتغير الوجوه وتغيب ولا يبقى منه الا الآثار المتحركة أو الجامدة التى يتركهـا ليرثها جيل متخلف عنه من الأبناء والأحفاد .

أخلاط وخطوط :

وتختلف حظوظ الأجيال ما بين السعادة والشقاء . وقد تحقق — مما حفظه التاريخ — أن الأجيال التى سعدت كانت أقل عددا وأقصر زمانا ، أما الأجيال الشقية فتكاد تنتظم معظم الناس فى معظم الأزمان .

ولم يخمد قط نبض الحياة وخفق القوة فى جيل سعيد مهما مضت به القرون ، فاننا ونحن نقرأ تاريخ جيل مجدود نحس أنه أحب الى أنفسنا وأقرب الى قلوبنا ، وما ذلك الا لأنه حى قوى يؤثر فى نفوسنا كما أراد أن يؤثر ويفيض علينا من قوته وحياته مثلما شاء أن يفيض . أما اذا حاولنا أن نقرأ سيرة جيل شقى فاننا نصد عن قراءته وتنفر من سيرته ، وليس ذلك الا لأن النفوس تستوحش من التعاسة وتهرب من الاستئناس بقبور الموتى .

والله سبحانه يقول : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ؟ » ولعل الرسول الحكيم قد ضرب مثلا لعاملى الصالحات برجل كيس دان نفسه وعمل لما بعد الموت وضرب مثلا للمفسدين فى الأرض برجل عاجز أتبع نفسه هواها ثم ظل يتمنى على الله الأمانى .

ولم يفتح الله باب السعادة الا للنفوس التى هى معادن من جوهر الفضائل ، وللبصائر التى هى عيون ترى الحق والباطل فى المعتقدات والخير والشر فى الأفعال ، والحسن والقبيح فى الأخلاق ، والصدق والكذب فى الأقوال .

وأما الأبدان فهى متون النفوس والبصائر ومراكبها التى تسافر عليها الى ما تريد ولا سبيل الى خلودها فى هذه الديار ولو طبق علم الانسان وطبه ما بين السماء التى يرجو اليوم بلوغها والأرض التى استقر فيها . وما كان للأجساد التى تركبت من طبائع متعادية وعناصر متبدلة متحيرة الا أن تدعو نفسها ، على بطء أو عجلة وعلى استمرار أو فجاءة ، الى التفكك والانحلال والفناء والزوال . وهكذا لا بقاء لأحد من أى جيل بعد مائة عام أو قريب منها ، وهذا ما يجب أن يصان من الحقائق بين عيون الناس ، فوجب على كل

جيل أن يفكر لنفسه فيما يفعله فى المدة التى يعيشها والتى لا بقاء له بعدها الا فى جيل آخر يرثه من الحفدة والبنين .

ليس من جيل من أجيال الخليقة الا ململما سرباله ، لأن الموت طبيعة لا محيص عنها . وكل زمان يمضى بقوم يأتى بعده زمان بقوم . وسواء فى ذلك الأجيال التى رفلت فى صحة وغنى وسرور أو تردت فى وهدات المرض والفقر والأحزان .

جيل الصحابة :

ويكاد يكون جيل الصحابة أسعد جيل مر فى الاسلام أو مر فى كل الزمان ، بلا مبالغة أو أدناها ، فلم يشابهه جيل آخر قط حتى ولو كان جيلا لأحد الأنبياء ، فان جيل الصحابة للحظ الذى أصابه والسعادة التى أرخيت عليه قد عاش وبقى بعد موته واشتهر كله فردا فردا ، ذكرا وأنثى ، حرا وعبدا . ولم يهمل التاريخ منه أحدا الا أحصاه وأحصى له ما قال أو عمل أو أشار ، من حيث لم تحفظ أجيال الأنبياء سوى أصحابهم الأدنين أو الحواريين .

ولقد كان من جوامع الكلم قوله عليه الصلاة والسلام « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ولم يرد رسول الله آحادا منهم دون آحاد ولا فئة دون فئة ، وانما أراد كل الأصحاب ، فكل واحد منهم — بلا استثناء — قد أشار النبى صلى الله عليه وسلم الى أنه ستنبعث عنه أضواء .

ولم يرد النبى من الأضواء التى أشار اليها فى نجومه أن تقتصر على زمانهم أو الأزمنة القريبة منهم ، ولم ينبىء بأن أضواءهم تنبعث عنهم وهم أحياء ثم تخف وتتبدد كلما ابتعدت بها المسافات والأزمان كما تخف وتتبدد كل القوى التى تبتعد عن مراكزها ومباعثها . وكأنما كان قول رسول الله مع أهل الفلك وعلمائه على اتفاق ، فانه أراد أن أضواء أصحابه تمتد الى كل أفق والى كل زمان . وأهل الفلك يقولون انه قد يأفل نجم ويحترق ويزول ثم ما تزال أضواؤه تنبعث بعد احتراقه فى أرجاء الكون الى ألوف لا تحد من الأميال والسنين .

بل ان من النجوم ما لا يهتدى به أحـد . فأراد رسـول الله نوعا من النجوم معروف المطالع والمغارب واضح المضاوىء والأنوار محدود السمات والأشكال . وهذه النجوم هى التى يشبه رسول الله أصحابه بها ، فانه صلى الله عليه وسلم لم يكن يتكلم الا بجوامع الكلم ، فمن حيث قصد الراغب الى قوله وجد من ناحية ما يقصد معنى قائلا وقصدا راميا .

وأصحاب رسول الله كانوا سعداء مجدودين لأنهم لم يتهيئوا وحسب لقبول الدعوة والانتظام فى الملة ، ولكنهم شاركوا الرسول فى كل نبرة من نبرات الحياة ايجابا وسلبا ودفعا وشدا وجهادا وسـلما ، ولم يخطر ببـال واحد منهم أن يفر أو ينخذل ، وكأنما حمل كل واحد منهم وحـده عبء الرسالة كله كالرسول نفسه — فيما كان فى طاقة البشر ما عدا الوحى — فاما أن يبلغ بها أقصى الأمل واما أن تقربه وتسرع به الى أدنى الأجل .

لذلك عاش جيل الصحابة — وان كان قد مات واستشهد فى شتيت من أنحاء الأرض — جنودا معروفين مجهولين ، ملمومى الجثث فى التراب أو ممزقى الأشلاء فى البحار أو مفرقين فى أفواه السباع والطير . ولم يزل ذلك الجيل يعيش فردا فردا وسيظل عائشا الى الأبد ، لأنه لم يعبأ بالبقاء ولا كبر الشهرة وكان فيه كثيرون من أمثال من قال لابنـه وهو يموت : يا بنى ، اذا أنا مت فاحث على التراب حثوا ولا تقل كان أبى وكان !

والأرض التى نعيش عليها نحن المسلمين بعدهم بمئات السنين قد كتب لها الخلود فلم يزل عنها الاسلام — الا قليلا — فهى هى أرضهم التى فتحوها بسيوفهم وعمروها بعقـائدهم لم تحط عن رءوسـها أعلامهم ولم تزو عن وجوهها أمجادهم .

ومع أنه لم تكسب أمة مجدا حربيا مثلما كسبوا ، فلا يدر بخلد انسان أن المجد الذى اكتسبه ذلك الجيل لم يكن الا مجدا حربيا ، بل انه امتـد الى البناء والاعمـار والتشييد واقامة أركان الحياة ورغادة العيش ورفاهة الانسان — بقدر ما كانت الدنيا آنذاك تمدهم بقوى ومعارف وأدوات .

امتداد الأمل :

ومع كل ما اتصف به جيل الصحابة من الخير فانه لم يذهب بالخير كله ، فقد بقيت للناس منه كل بقية — وكأنما الخير أشجار الجنة كلما قطفت منها ثمرة خرجت من مكانها ثمرة فهى لا تنقطع ولا تمتنع — وقد نبأ الرسول الأمين بأن الخير باق فى الناس حتى القيامة ، وكان يحث البعيد ليلحق بالقريب والسامع بالرائى والأزمنة التى لم تولد بأهل زمانه .

وقد نادى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع — التى قرر فيها آخر أحكامه — قائلا : « ألا فليبلغ أدناكم أقصاكم » أو قائلا « فليبلغ الشاهد الغائب » وقائلا « فرب مبلغ أوعى من سامع » فكأنه صلى الله عليه وسلم ينادى أجيال المسلمين الى يوم القيامة أن هلمى فالدعوة ما تزال غضة والجهود لم تزل مطلوبة وباب الجنة لم يزل مفتوحا .

ولقد حققت أجيال اسلامية كثيرة هذه النبوءة حين أصاخت للنداء فتوالت أجيال التابعين على الحق — برغم ما حدث من خصومات دموية بين آبائهم — ولم يصدهم عن نشر الاسلام والجهاد فى سبيله والرقى بالحياة ومظاهرها فتن أو خصومات ، وبرغم وجود فئات من المتهافتين على متارف الدنيا عن ايمانهم وعن شمائلهم .

وقد خيلوا أن من الأجيال الاسلامية التى سعدت — بعد عصر النبى والخلفاء الراشدين — أول الأموية فى المشرق وآخرها فى المغرب والأندلس ثم أجيال متتابعة فى العباسية الأولى وفى كل الأجيال التى امتشقت حسامها فى الصليبيات والمغوليات من الحمدانية والنورية والأيوبية والمملوكية تذود عن حماها وتدفع عن دينها وتبنى لدنياها ومستقبل أيامها .

وفى ألوف من القصص القصيرة والطويلة وفى الشعر والنثر والحكم والأمثال تتحدث سير هؤلاء تشنف الآذان وتعطر الجواء . ولم تغفل عين التاريخ أو تضل فانبرى يكتب ما يؤثر ويبعث الفخر ، وكان أشد حرصا على تخليد الأقوياء الذين يعبرون هذه الحياة فيؤثرون فيها بوجودهم وأعمالهم ، أما الذين لم يستحقوا أن يلتفت اليهم فانه لم يبال بهم ، وان كان

قد دون بعض أخبـارهم ففى القـرون الهـالكة التى تبعث الرثاء أو تثير المضحكات .

وسوف تظل نبوءة رسول الله باقية ودعوته قائمة ، لكل جيل يصغى اليها ، غير انه لن يجاب بالسعادة لجيل ما لم يبتعد عن الخمول والتمنى ، وما لم تثقل كواهله الأحمال أو تحطمها الأعباء بغير ضجر ولا ملال .

الذكر والنسيان :

ويحسب بعض الناس خطأ أن الأجيال السعيدة هى التى تمضى بهـا الحياة هينـة لينة من غير أن تلقى على كواهل أفرادها وجماعاتها واجبـات وأعباء ، بل تكون حياتهم كلها تخاصما وتبايعا وأكلا وشربا وغناء ولعبا وفراغا وخلو بال ، ولكن الأجيال التى تمر بها الحياة هكذا انمـا تنطرح فى الألم والشقاء أو هى وشيكة أن تذوقهما لو أمهلتهما الدنيا فترة وغفلة ، ثم هى صـائرة لا محالة الى الضياع والنسيان ، وما شـأن هذه الأجيال فى نظر الاسلام الا شـأن من قال الله فيهم من الـكفار « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

والوجودية البلهاء كل تطرحاتها أكل وشرب ونوم وغفلة وقضاء شهوة أو اقتناص لذة ، بل كل حياتها شىء لا أمل فيه ، فلا نية ولا عمل وانما هى سـكرة تجرى فيها الأمانى الزائفة سـيلا غامرا ، والبلهـاء ينطرحون على شواطئها تطرح المخمورين .

ويخطىء كذلك من يرى أن أجيال الانقلاب تمر بحياة بائسـة وأيام شقية ، فى حين أن التاريخ لم يذكر جيلا بالفخر والخلود الا الأجيال التى تغيرت ظواهر الحياة فيها وبواطنهـا الى خير مما كانت ، وفى عهدها وعلى أيديها .

فليس من جيل سعيد كالجيل الذى يحمل أعباء الانقلاب مهما أصـابه من كرب وأذى ، لأنه يبدو بما فعله من الانقلاب متحكما فى الأجيال التى تليه ، وفي ذلك وهذا معنى العلو والسيادة . وكذلك مرت أجيال الصحابة

والنابعين ، وعلى أيديهم تغيرت العقــائد وثبتت ، وتحولت الحياة ونمت ، وتحققت الآمال وامتدت ، ثم استطاعوا أن يطبعوا كل العصور بعدهم على ما رسموا من خطوط ونشروا من آراء .

أما الأجيال الفارغة والتى يخطئون فى حسبانها سعيدة فان الموت يتراكم عليها كثيفا ، ويبيت التاريخ عاجزا عن الحفر عنها ، وقد يمر على ســطوح قبورها كما تمر الريح على الآكام لا تنبش فيهــا خبرا ولا تحس لشيء فيها ركزا .

فمن أشد العيب وأشين الشين أن يترامى جيل على الأمن والســلامة ويرضى لنفسه بالثرثرة فى القول والعمل ، حتى اذا وقعت عليه أيام الضنك خنس وانقبض ، ولكن عليه أن يلحظ الحقائق فيرقى فى درجات المعــارف ومعارج الفضائل وتتسع آفاقه فى الانشاء والاعمار والبناء ، ولا عبرة بموت الأجساد فانها معادن المعاطب ومساكن الآفة والهلاك .

اليقظة والوعى :

ولا حق لجيل أن يدعى أنه أصاب حظا من السعادة فى الحياة الا الجيل الذى ورث صفاته العليا من أجيال أجداده ذوى المجد والفخر وكان لهــذه الصفات مظاهر من الفكر والخلق والقوة والعمل ، أو الجيل الذى اكتسب لنفسه صفات ألحقته بتلك الأجيال أو قدمته عليها ، ثم تحول كله الى فيالق للانتاج تنوزع العمل الجدى وتسهل بعزائمها الصارمة كل ما يتخلل طريقها من صعوبات .

وكل جيل من المسلمين يدعى الانتماء الى مفــاخر أجداده فلن تكون دعواه أصيلة الا اذا تنبه للصفات التى نبهت أجداده ، واذا كان الفخر طبعا من الطباع المخلوقة فى الجبلة ثم صفة من الصفات المكسوبة كان على الطبع والعقل أن يسترشدا بكل الأجيال السالفة حتى يقتديا بالقوى ويحيــدا عن الضعيف ، وانه ليمكن للناس من خلال ولادة جديدة أن يرجعوا للحياة ثانية بعد الموت أو يطردوا عن خيالاتهم أطياف الموتى .

وما من شك في أن جيلنا العربي الحاضر أو الاسلامي كله قد تجافت جنوبه عن المضاجع وأخذ يعد للبناء والمعركة معا : يعد للبناء درجة درجة ، ويعد للمعركة بالقوى الحاسمة الضاربة . أما البناء فلا طاقة لأحد الا بأن يمتد زمانه ويطول أوانه ، وأما النصر في المواقع فانما تتجمع له كل القوى حين يحين وقته ويحل قدره ولا يتنافى في ذلك مع الاستمرار في المعركة ولو لم يتحقق النصر الا بلقاء بعد لقاء .

ومن المحقق أن من يخططون للخمسيات — في سياستنا اليوم — يدركون هذا التفصيل فهم ملهوفون على تحقيق ما يرسمون ، اذ لو انعدم التخطيط وانعدمت اللهفة على تحقيقه لانعدمت سعادة الجيل الذي يعيشون فيه وماتت آمال الأجيال التي تليه .

وأمهات الجيل الذي يصيب حظا من الوعي واليقظة ، هن أشد من يحرص على تنبيه أولادهن من الآباء العقلاء ، وكأنما هي قاعدة مقدسة اذ لم يسر جيل قوي في أي زمن أو أرض بغير أن يكون للمرأة القوية مظهر فيه .

ولقد حفظ تاريخ المسلمين قصصا ذات روعة لأمهات أثرن الدهشة وبعثن العجب والفخر ، وربما عز أن تكون أم من الأمهات — في قديم الناس وحديثهم — قد بلغت من دقة الادراك ما بلغته أم سفيان الثوري الفقيه اذ قالت لابنها وهي تبعث به ليتعلم : يا بني ، اذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في مشيك وحلمك ووقارك ؟ فاذا لم يزدك فاعلم أنه لا يضرك ولا ينفعك !

الزعيم الموهوب :

ورب فرد واحد من جيل يكون سببا في اسعاد جيله ، وذلك حين يقوده الى أعمال البطولة بما يحمله من الواجبات والأعباء ، وكأنما الزعماء مباعث للقوى الهائلة التي تحرك آلات العمل بمثل القوى الحرارية التي تبعثها في أيامنا القوى العالية ، والجيل المحظوظ هو الذي يخطو في اندفاعه نحو الرقي خطوات قياسية بدون توقف .

وقد يكون الزعيم الموهوب – كما علمنا التاريخ – وحيدا فى أفكاره وكأنما يهمس بها فى أذنه الهام ، وحين تعبر أفكاره مناطق التجارب وتتحقق أهدافها كما فكر وقدر يجد الناس لأفكاره مساغا وحلولا ، ذلك لأن الزعماء الموهوبين يقفزون فى خطوات جريئة قفز متسلقى الجبال ، أما الناس فهم يسيرون سيرا متشابها فى المباسط والوديان .

ورب رأى فريد يكون من مقاليد الغيب ، فاذا به راميه خلف كل أبية من العقد والمشاكل أدركها كسهم الصائد المبعد يصيب الوعول على القمم والطيور فى الأفق البعيد .

وانطلاقة الزعيم الموهوب فى اطفاء نار الأحقاد بين أبناء جيله باخساد فتنة المال ولمعة الشهوات وضرب الذلة والتعاسة من دلائل الحظ والسعادة ، اذ حين يتخلى جيل من الأجيال عن النهمة فى اجتلاب المنافع الذاتية الرخيصة وينصرف أفراده لاكتساب أكبر قدر من المحبة يسعد الجيل ويبنى أمجاده التى لا تهزها الزلازل ولا تجرفها السيول .

وان زعيما نشأ فى قلب النضال الذى يلفظ النظام الرجعى ويدمر خطوطه فى حماس ثورى بالغ لهو حظ كبير لأمة يقودها ، اذ هو يشعل عواطفها التى ابتردت ويرجع اليها حكمتها التى ضاعت ويرد عليها شجاعتها التى اطرحتها ، ثم تتولى فى مقدرة وعناد بناء المشروعات الضخمة التى يعجز عن بنائها وتشييدها العبيد المسخرون .

ومثلما تتمثل قوة الزعيم الموهوب فى محبة قومه له محبة طاغية تتمثل أيضا فى شدة خصام أعدائه له ومحاربتهم لسلطانه ، بل هما معا : محبة أهله وعداوة أعدائه قوتان صاعدتان به الى القمة ، لا تتخلف احداهما عن الأخرى : العداوة والمحبة ، لأن المحبة اذا كانت كالضوء الواضح فان العداوة كالغيوم السود لا تقوى على حجب أضواء الشموس .

مواثل الآمال :

وكما قلنا فى المقال السابق ان الدلائل المستقيمة تؤدى لا محالة الى نتائج مستقيمة ، ومن حقها أن تتخذ قواعد صادقة تقاس عليها النتائج

والآثار . فانا نقول : انه اذا وهب جيل من الأجيـال زعيما موهوبا وأقبل الجيل على طاعته وتقدير آرائه وخاض معه المعارك التى يحشد لها كتب النصر لا محالة لذلك الجيل وقدر لأبنائه وأحفاده أن يرثوا بعده سعادة محققة لا مرية فيها .

وان تخلفا قيد شبر واحد عن اتبـاع زعيم موهوب يعد من الخطايا البالغة التى يتحقق منها العطب والدمار . والطاعة مهمة يسيرة ، ولكن التخلف خطأ مركب ، وعاقبة الطاعة للموهوبين كلها خير مهما أوقفت الطاعة فاعليها على هضاب قلقة معرضة لهبوب الرياح والأعاصير .

وكل الأجيال فى كل الأمم والعصور يلفها الضباب ، ووراء الضباب لو اخترقته الأبصار شمس ساطعة دافئة يعيش تحتها الناس سعداء أصحاء ، واختراق الضباب يحتاج الى رأى وشـجاعة حتى يصل العاقل الشجاع الى النور من لجة الظلام .

والشجاعة — وهى مظنـونة آنهـا طبع مخلوق — يتعودها النـاس ويتعلمونها ، وحيث كانت الشجاعة تعويدا فانه لا عذر لجيل يجبن عن أن يجنى آماله ولو بأقصى ما يبذل من جهود .

والحياة لا رحمة فيها ، وهى تخلق فى كل ركن منها قوى متصادمة ، ولكن فى استطاعة السعداء أن تسيطر أذهانهم وقواهم فيقدرون على المقاومة والاحتمال ، بل على كشف المصاعب قبل أن تحيط بهم وتضطرهم للنضال . ولا يضطلع بالأعباء الا جيل شجاع .

وما لا ريب فيه أن كثيرا من هذه الآمال المواثل أو هى كلها قد صارت من حظ جيلنا الذى كتبت له السعادة وضمن له الخلود .

الفهـــرس

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)

مؤسسة
دار التحرير للطبع والنشر
(مطابع شركة الاعلانات الشرقية)